رواية

ABU ABDO ALBAGL

حسن بن عثمان

أطفال بورقيبة

إذا أعجبك الكتاب، فرجاءً حاول أن تشتري النسخة الورقية.
تذكر أن الكتاب العرب معسّرون والكل يستوطي حيطهم
دعنا لهم يضمن استمرار عطائهم.
(أبو عبدو)

SSB4

أطفال بورقيبة

الكتاب: أطفال بورقيبة
المؤلف: حسن بن عثمان
جميع الحقوق محفوظة
سنة الطبع ٢٠١١

الناشر:

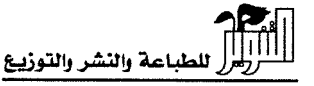

بيروت - لبنان
هاتف: ٠٠٩٦١ ١ ٤٧١٣٥٧ فاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٤٧٥٩٠٥
www.dar-altanweer.com
info@dar-altanweer.com
التنفيذ الطباعي: مؤسسة ديمو برس للطباعة والتجارة بيروت / لبنان

All rights reserved, No part of this publication may be reproduced, stored in a retrival system, or uansmitted in any means, electronic, mechanical, photo, copying, recording or otherwise, without the prior permission, in writing of the publisher.

رواية

أطفال بورقيبة

حسن بن عثمان

إلى:

محمد دريج، تبنّى روايتي الأولى و نشرها على نفقته.

أحمد الحاذق العرف، عرف الثقافة اليانع.

سمير العقربي، موزيكار لأهم الأدوار.

ليلة الفتى و الفتاة

تخيّل يوسف عبد الناصر أنه بلغ الستين من عمره. في الليلة التي سبقت عيد ميلاده الستّين كان برفقة فتاة أعجبته للغاية. رأى أنها تفيض حلاوة وجمالا. أمضى معها وقتا ساحرا، تصرّف أثناءها كمراهق ولم يعبأ بفارق السنّ.

مع الفجر قبّل جبهة الفتاة الناصعة النديّة وهما واقفان، ثم استدار فوجد برنسا مغربيا على شمّاعة فألبسها إيّاه. على تلك الحالة ترك فتاة العشرين لصديقه الشاب. غادر شقة العزّاب قبل طلوع النهار، عائدا إلى بيته حيث تقيم زوجته. لم يكن يشعر بالندم. لم تعد الخيانة الزوجية تثير فيه أدنى مشاعر الإثم. غدا متعودا على الخطيئة. امّحت عنده الحدود بين الحلال والحرام. كل أنواع الجنس النسائي طيّبة ومستساغة، وهي تصلح لتقوية العزيمة الفردية. عدا نكاح المحارم فهو يقع خارج تفكيره، وتعزله عنه بحار من دماء القرابة. تلك الدماء التي تنبع من أرحام دامية ولا تصلح إلاّ لإثارة عواطف الشفقة والحزن.

في الطريق إلى بيته كان يفكر في حكاية مثيرة يرويها لزوجته. تخيّل أنها بانتظاره في غرفتها المظلمة العابقة بالأنفاس وبرائحة اللحم البشري

مشلول الحركة. مكوّمة على السرير تسندها الوسائد، امرأة لا ترى ولا تتكلم ولا تشم، تنتظر عودته ليلقى على مسامعها حكاية جديدة تقتات منها كوجبة ليلية ضرورية. منذ أن صارت هامدة كسيحة بكماء، مقيمة في سريرها لا تبرحه، باتت تتغذى وجوديا بالسماع. ذلك كل ما بقي لها بعد حادث سيارتها الفظيع الذي أودى بحياة أطفالها الثلاثة وألحق بها دمارا جسديا كاملا.

كان ذلك منذ عشر سنوات. قبل ليلة من بلوغ يوسف عبد الناصر سن الخمسين من عمره. كان عيد ميلاده الخمسين يوم المأتم الكبير. شيّع فيه جميع أطفاله إلى المقبرة واستقبل في البيت حطام زوجة رابطها الوحيد مع الدنيا أذناها ورغبتها في سماع الحكايات. ورغم حالتها تلك فإن لها قدرة على تذوّق الحكايات ويتملكها الغضب إذا ما تعمّد زوجها تقديم حكاية مطبوخة بشكل سيّء أو مغشوشة. حين تغضب تعبّر عن غضبها بتغطية وجهها بألحفة الفراش وحين تروق لها الحكاية تظل على هيئة متيقّظة.

تخيّل يوسف عبد الناصر صاحبه هلال الأحد وكتابه «بحار الكائن الخائن». تذكّر بحار الكاتب وحكايته. عزم على رواية بعض تلك الحكايات من ذلك الكتاب، علّها ترضي حاجة قرينته.

كان يوسف حريصا على أن لا يحدث أي ضجيج عند دخوله البيت الفسيح. قصد التواليت رأسا. اغتسل لإزالة ما علق به من رائحة فتاة العشرين. بعد أن تنشّف جيّدا راح بهدوء إلى غرفة شهرزاد. فتح الباب ببطء ودفع بجسده في ظلام الغرفة. استقبلته رائحة الحطام البشري

التي سرعان ما ألفها. أشعل ضوء الأباجورة الخافت حتى لا يؤذي عيني شهرزاد المنطفئتين. جثا على ركبتيه حذو السرير الزوجي الذي صارت شهرزاد تشغله بمفردها. لمس السرير بأنامله و تذكّر كم كان هذا السرير شاهدا على عذابه. كانت شهرزاد مغمضة العينين وهي تجلس مائلة إلى الخلف متكوّمة تتردّد أنفاسها بصوت مسموع. دسّ يوسف يديه تحت اللحاف بحثا عن يدي قرينته الدافئتين السمينتين. سحبهما و قرّبهما من وجهه و شرع يلثمهما مغمض العينين. حين تسحب شهرزاد يدها اليمنى وتربّت بها على خدّه، وباليسرى تداعب شعر رأسه المبيضّ، فتلك علامة استعدادها للسماع.

قال لها وهو جاث مستند بمرفقيه على السرير:

تلمّ بالجمهورية التونسية أحيانا مناخات شمالية أوروبية فتتساقط الثلوج، وتصل درجة الحرارة إلى معدلات قياسية قد تبلغ الصفر في بعض المناطق المرتفعة. إنه فصل الشتاء وكان الطقس شديد البرودة تتخلله زخّات من المطر و حبّات البَرَد. كانت البرودة تلسع ركبتي هلال وهو جالس في مكتبه المدفّأ تدفئة خفيفة بجهاز كهربائي. منذ حوالي خمس سنوات غدا هلال يحتاط من البرد الذي صار يضربه بقوة في رجليه، وبتركيز أكثر حول منطقة الركبتين، فيلبس بنطلونا قطنيا تحت بنطلون كسوته. ولكن البرودة تعرف كيف تتسلّل إليه وتظلّ تلسعه من طرفي قدميه إلى فخذيه. ورغم تدفئة المكتب المستقرّة يعمد هلال إلى فرك ركبتيه وساقيه بيديه عسى أن يزول عنهما البرد. لكن حالما يتوقف الفرك تعود البرودة أشدّ مما كانت عليه.

في ذلك المساء كان هلال يفكّر في بلاد متقلّبة المزاج، رائعة وغير مستقرة على حال. بلاد تذكّره بالخيانة الجوهرية، لكنها دائما تهزم كبارها. بلاد نزقة تسحر الألباب، لا تشيخ أبدا ولا تعرف للحكمة سبيلا، بل كلّما نضج فيها حكيم تمسكه من خصيتيه حتى يصير يبعبع كتيس، فتلقي به إلى أقوام أخرى يحتفون بتعقيدات الكلام والوجود. بلاد سهلة، بلا ماض ولا مستقبل، تعيش للحظتها فقط، وترتجل في كل حين ما يتناسب مع شروط اللحظة. تتحوّل صفراء زرقاء خضراء سوداء حسب الضرورة. وذلك البحر الأبيض المتوسط لا ينفك يلثمها من كل الأطراف السافرة ويلجها في كل حين، وهي تسعى، بهيأتها المتحفّزة النافرة وجسدها الناهد، إلى الفكاك من جغرافيّة تأسرها لتتبخّر في بحر عميق الزرقة. بلاد شابّة أبدا، مراهقة وجميلة جدّا، لها تفكير الزناة ونزوع الانتحاريّين.

كان هلال يفكّر في تلك البلاد ويفكّر في اللحظة ذاتها في نفسه ويعقد مقارنات من أجل التماهي مع البلاد. أن يصير هي وتصير هو، وأن يبتعد ما وسعه الابتعاد عن الحكمة، حتى لا يتحوّل إلى تيس ممسوك من خصيتيه اللتين تحوّلتا إلى مصنع لإنتاج أفكار مخصبة. فالبلاد الحبيبة التي يشتهيها لها درسها الواحد الوحيد لكل الناس وعبر مختلف الأزمان: إن الخصيتين لا تصلحان إلاّ لإنتاج حيوانات منوية فحسب، هذا إذا أنعم الله عليها بالصلاح، والعقل ليس إلاّ طاقة تنكّرت لمصنع الخصيتين، وما عليه إلاّ العودة إلى مهمّته الأولى والوحيدة: تحفيز الحيوانات المنوية حتّى يكون سائلها مقذوفا بكميّات تحدث النشوة وتمنح الرضا.

طرقات متتابعة على باب مكتبه انتشلت هلال من أفكاره وتخيّلاته. سارع بفتح الباب وهو مشوّش الذهن. ألفى نفسه قدّام صديقه الشاب ومعه فتاة في العشرين. كانا ينتفضان من آثار المطر ويصخبان في حيويّة. لحظة انفتاح الباب اقتحما عليه المكتب.

قال لهما هلال وهو مرتبك: «أهلا!»

قالت له الفتاة بغنج:

ـ «لماذا أنت مختبئ، أيّها العجوز الهرم، في هذا الجحر مقرورا والدنيا تغتسل في الخارج عارية تماما، تعرض عري مفاتنها على قارعة الطّريق، والناس من هول الافتتان يهرولون مذعورين...

نهرها صديقه الشاب:

احتشمي... لماذا تتكلّمين هكذا؟! هل لك به سابق علاقة تسمح بمخاطبته على هذا النحو؟

نعم لي سابق معرفة به. قرأت روايته الفاحشة «بحار الكائن الخائن».

اعتبر هلال أن كلام الفتاة من قبيل طيش الشباب، ورغم ذلك فقد ابتهج بهذه القارئة الفتيّة، وبادر بسؤالها عن رأيها في الرواية؟

أجابت الفتاة بعدم اكتراث:

لم أقدر على إكمالها، وأضافت بحماس: لا بأس بها! غرامي قليل بالروايات! أحب الشعر وأكتبه.

أنت شاعرة إذن؟

لا أدري! لا يعنيني أن أكون شاعرة أم لا. المهم أنّني أحبّ الشعر

وأكتبه!

قال عبّاس:

إنها مجنونة ومغرورة وتحبّ أن تتظاهر بالتعفّف!

مازال أمامها وقت طويل حتّى تجنّ حقا! إنها الآن صغيرة على كل ذلك! لا علينا... أي رياح قذفتكما على بابي! ما الذي جاء بكما إليّ؟

هي أمطار وليست رياحا (قالت الفتاة). الأمطار دفعت بنا قريبا من مكتبك فأحببنا أن نراك. عباس هو من اقترح ذلك!

أنا محظوظ! سارع عباس يقول، مضيفا: لم أكن أتوقّع وجودك في هذه الساعة. منذ أمس كنت أرغب في مراجعة الحوار الذي أجريته معك. أتممت تفريغه من الشريط وأنهيت الصياغة وأحبّ أن تطلّع عليه قبل النشر.

عباس صحفي متربص في جريدة يوميّة. يسعى للتقرّب من هلال وكسب صداقته. هلال كاتب معروف في الخمسين من عمره يدير مكتبا إعلاميّا عربيا. قال هلال:

لا بأس! شرط أن نقوم بذلك خارج المكتب. في مطعم مثلا. إنه وقت للأكل. أدعوكما للعشاء على حسابي! هيّا!

شعر هلال بعرضه السخي للعشاء أنه استعاد المبادرة. عندما خرج من مكتبه صار يمنّي نفسه بوليمة رفقة شاب وفتاة رائعين يفيضان حيويّة وتألّقا. لم يكن يطمع في شيء آخر غير ذلك. أن يكون محاطا بشباب هذين الشخصين اللطيفين الجميلين، المتناسبين تناسبا فنيّا،

حتّى إن الواحد منهما يشبه الأخر، ويحفّ بهما الحبور والنضارة وهما يتوثّبان وينطّان ويتناغيان. عصفوران بشريان يرفرفان في سماء بلا حدود، ويزقزقان لدنيا الورود واللذائذ. كانت لديه رغبة عارمة في الخروج من كآبته الستينيّة، التي أبعدته عن حبّ النساء، لتوقع به في غرام البلدان والمدن والخيالات والصور. كان يسلّي نفسه بأن مرحلة الشيخوخة، وهي على الأعتاب، تصلح للحب. الحبّ الواسع المتعالي غير المشخصن ولا المادي. حبّ يتمتّع باللّطافة والسيولة، ولا يتطلّب مجهودا بدنيّا أو حسّيا زائدا عن اللزوم. كان يعتقد أن لكلّ مرحلة من العمر نوعيّة الحبّ التي تناسبها. المهم أن يكون للمرء قلب أخضر ينبض على الدوام.

نبض قلب شهرزاد فتنفّست بعمق. عرف يوسف عبد الناصر أن المرأة تصغي إليه. بدأت تتابع معه الوقائع. لا بدّ من مزيد التفاصيل والأحداث ليحافظ على حالة انسجام زوجته مع الحكاية. عبّ يوسف جرعة ماء من كأس شهرزاد الملآن دوما والموضوع بجانبها على الكوميدينو طوع يدها.

واصل يقول:

في المطعم، جلس هلال قبالة صديقه الشاب عبّاس. جلس عبّاس إلى جانب صديقته زبيدة. كان هلال يراجع نص الحوار وأذناه تتابعان ما يدور بين الفتى والفتاة من حديث ناعم وضحك. تساءل هلال: "هل هذه الفتاة تصلح للشعر اللغوي أم للشعر اليومي؟ لجماليّة الكلمات أم لجماليّة الأنوثة ومفردات الفراش وتقديم الخدمات الجنسيّة

لمن يحتاجها؟ هذا الجسد الفتيّ المتوهّج بالقرب منه، ماذا يعرف عن الحياة حتّى يلمّ به الشعر؟ إن صاحبته نفسها قصيدة بشريّة مبتكرة. حالة جماليّة من لحم ودم، تختزن لذّة النص وروعة الأفكار، عند كل انعطافة وتكوير في جمالها المتفتّح المتألّق. إن حسنها البهيج وشبابها المشرق يحولان، لا محالة، بينها وبين الشعر اللّغوي. هي بنت الحياة وليست بنت اللغة. من أجل الانتساب إلى اللّغة عليها أن تقطع مسافة مضنية وتخوض الأهوال وقد لا تصل، أمّا إذا وصلت، فلن يكون ذلك إلاّ بعد أن تتساقط أوراقها الخضراء اليانعة، وتتغلغل فيها الخطيئة ويعمّرها الخراب، لينبثق من ثمّة الشعر من بين الحطام كغراب البين".

أنهى هلال مطالعة الحوار الصّحفي دون أن يتدخّل في تعديل شيء منه. شعر فقط بالامتعاض من الأسئلة المدرسيّة المنمّطة ومن أجوبته السّخيفة المستهلكة. كان عليه أن لا يدلي بهذا الحديث أصلا. ولكن ماذا يفعل لضعفه الشديد تجاه الشباب؟ هذا المحرّر شاب، مندفع وسطحي التفكير، وتلكما علامتان أساسيتان ليصير صحفيّا ناجحا. يعلم هلال من خلال معرفته بميدان الأدب والصّحافة أن الاندفاع والسّطحيّة، مع بعض الوقاحة، هما سرّان من أسرار النجاح والتفوّق، بل لعلّه بدونهما لا يمكن للحياة أن تحافظ على شبابها المتألق. يعشق هلال الاندفاع والسّطحيّة عشقه للشباب.

خلّصنا من هذا الأمر. تصرّف كما تشاء. ادفع به للنشر إن أردت.

لكن ما رأيك في الصياغة. هل وفّقت فيها. إنّني كنت وفيّا لكلامك... صغته بنفس العبارات التي قلتها لي!

الوفاء مسألة قاتلة! أنا من أنصار الخيانة لا الوفاء. قال هلال ذلك بازدراء تخالطه الحكمة وهو يتوجّه بنظره للفتاة.

لم افهم؟

نخون أو لا نكون. وإذا شئت نخون حتّى نكون... تلك هي المسألة!

لكن شكسبير يقول: "نكون أو لا نكون تلك هي المسألة؟". قالت زبيدة ذلك بسرعة وبطريقة استعراضيّة وتطوّعت بتلفّظ الجملة الانكليزيّة الشهيرة.

تلك طبعا حماقة من شكسبير يردّدها الآخرون ببلاهة... ما معنى "نكون أو لا نكون"؟ كيف لمن هو كائن أن يكون؟

أجابها هلال باستخفاف متعمّد تلقّته زبيدة على أنه تعجرف من قبله.

ردّت زبيدة، وهي متنمّرة، وقد اعتبرت بداية هذه الجلسة امتحانا للياقتها الفنيّة الأدبيّة الفتيّة:

لذلك فإن الشاعر الفلسطيني محمود درويش عدّل مقولة شكسبير وجعلها: "نكون أو نكون... تلك هي المسالة".

ـ ذلك أفضل قليلا! لكن يظلّ بلا معنى أيضا. هذا التعديل، إضافة إلى انه بلا معنى، ففيه قدر من ركاكة الإصرار. أقصد إصرار المقاومين. أو بالأحرى فيه لجاجة الأطفال ودلالهم. أو فيه بعض من طباع الأحمرة وعنادها عندما تحرن! شيء من هذا القبيل! لا ادري...

انبرت زبيدة مرّة أخرى باستبسال:

لكن حتّى شعارك هذا " نخون أو لا نكون " فيه سفاهة وتشريع للخداع والجريمة.

نعم، فيه كل ذلك! لكن مع الأسف فلا بديل عنه ولا خيار غيره!

إنها مغالاة منك!

ربّما...

كرّر عباس:

لم أفهم! هل ترغب في أن لا أكون وفيّا لما قلته في الحوار؟ هل تقبل أن أخونك واكتب غير ما قلت لي؟

الموضوع أكثر تعقيدا من ذلك. لو كنت قادرا على الخيانة لما أجريت معي حوارا صحفيّا! بل لعلّك ذهبت وكتبت لك كتابا. أقصد أن تخون نفسك بكتاب لتكون! أما أنا فلن اسمح لك بخيانتي! لن أسمح إلا حين تكون قادرا على ارتكابها وأنت في حلّ من حسابي وعقابي. وقتها يكون سماحي من عدمه موقفا بلا معنى، بلا فائدة! هل تفهمني؟

أفهمك! لكنك تشرّع، في النهاية، للخيانة، مثلما قالت زبيدة.

نعم! على أن تتمّ بشروط.

وما هي تلك الشروط؟ ـ تساءلت زبيدة في هزء مضمر وتطفّل معلن ـ

ليلة هلال الأحد

انتفضت شهرزاد ببطء على سريرها. تلك علامة على أنها تضيق بالحوارات المسهبة. يعرف يوسف أنها تنشد القصّ والأحداث. فما كان منه سوى تعليق الحوار ليعمل على التقدّم في سرد الحكاية، رغم أن لا حيلة له في موضوع الخيانة! إنه موضوع ليس من اختراعه.

قال يوسف:

ما يسوّغ لهلال الحديث عن الخيانة هو أن هلال نفسه ابن شرعي وصميم للخيانة. انتدب نفسه، طوعا، لمزاولتها والتنظير لها. إنه يدعو لاعتناق الخيانة! يعتبر الحياة سلسلة متّصلة من الخيانات. بل يعتبر أن الموت لا يجعل الجسد البشري يكفّ عن اقتراف الخيانة، من خلال تساقطه وتعفّنه وتحوّله إلى دود يلتهم بعضه البعض.

سمّته أمّه هلال ولقّبته بالأحد. هلال الأحد. ولد ليلة بزوغ هلال شهر رمضان. عندما سألت الممرّضة الأم عن الاسم الذي ستختاره لوليدها أجابت بذهول: "هلال" وكانت تتساءل في سريرة نفسها: "هل سيكون حقا وليدها؟" بعد أن دوّنت الاسم لسعت الممرّضة والدة

هلال بالسؤال عن اسم الأب واللّقب العائلي. تطلّعت الأم شاخصة إلى الممرّضة بعينين مجهدتين منتفختي الحدقتين. كانت في تلك اللّحظة بصدد ابتلاع اسم الأب الحقيقي ودفنه في عتمة جوفها: "سارج دي لا كروا". ما لبثت أن ارتجلت اسما جديدا لوالد ابنها: "عبد الرّحيم"، لعلّ الله يكون به رحيما في هذه الدّنيا. أضافت وهي ذاهلة أن اللقب العائلي:"لا أحد" قالت "لا" بصوت مخفّف شارد. سمعت الممرضة لفظة "الأحد" ولم تسمع "لا" فردّدت اسم "الأحد" وهي مستغربة. قالت أنها لم تسمع في حياتها بمثل هذا اللّقب. ردّت الأم بصوت فيه ضيق وتصميم: "حانت المناسبة لتسمعي به!".

حالما غادرت المستشفى بعد أربعة أيام من وضع حملها راحت أم هلال إلى مأوى أطفال بورقيبة بضاحية العاصمة. أودعت الرّضيع هناك. صار هلال الأحد من أطفال بورقيبة. بورقيبة أول رئيس دولة للجمهورية التونسية إثر استقلالها عن فرنسا جعل من نفسه أبا شخصيّا لجميع اللّقطاء، لجميع المشرّدين والذين لا آباء لهم. منحهم اسمه ورعاهم ووسّع لهم المجلس في عهده.

لم يعرف هلال طيلة حياته أباه و أمه الأصليين. انشغل بذلك كثيرا في بداية شبابه، ولكنّه حين اكتهل بدا يأخذ وضعه مأخذ القسمة والنصيب. انقطعت صلته بأمه يوم أودعته المأوى وطبعت على جبهته الصغيرة قبلة حارّة وطويلة. كانت لحظتها ثابتة النفس، رابطة الجأش، لم ترتجف ولم تبك، نفّذت القرار الذي فكّرت فيه منذ بداية تخلّق هذا الوليد في أحشائها. أنضجت قرارها مع عشيقها وسيّدها "سارج دي

لا كروا". كان هو من أرشدها إلى الإجراءات الإدارية التي تخوّل لها إنجاب الوليد وإيداعه المأوى دون أن تتعرّض لأية مساءلة قانونيّة أو اجتماعيّة ولا غيرها. قال لها إنّ ذلك من امتيازات دولة بورقيبة ومن فضائل الاستقلال.

كانت الأم تشتغل خادمة في منزل "مسيو سارج دي لا كروا" أستاذ اللّغة الفرنسيّة بمعهد التقنية بمدينة السوق الكبير. كان يقطن مع زوجته وأطفاله بمدينة المعصرة على شاطئ البحر، على بعد خمسة عشر كيلومترا من مكان عمله. أحبّت أم هلال مسيو سارج وأحبّها هو بدوره. حين خلا لهما المنزل في عطلة الصيف المدرسيّة، وسافرت زوجة سارج صحبة أطفالها إلى ليون، تعاشرا معاشرة كاملة، ممّا أثمر حملا لم يكن متوقّعا. حاولا في البداية إجهاضه ولكن الأم قرّرت بصورة مفاجئة إبقاء الجنين.

أرادت بذلك تأكيد حبّها لسارج وتعلّقها به. طلعت تلك الفكرة الرعناء في رأسها ولم تشأ مبارحتها. لم تجد أفضل من إبقاء بذرته وتثبيتها داخل جسدها لتعبّر عن عشقها وإعجابها بذلك الشخص المتمدّن الذي يقدّر النساء حقّ قدرهنّ. كانت أم هلال تقول عنه: "لقد تعلّم مع بورقيبة في نفس المدرسة ودرسا مع بعضهما على المقعد ذاته". كانت تشعر حين تكون معه أنها مع رئيس. لا فقط رئيس عمل وإنما رئيس يتمتع بوقار الرئاسة وهيبة الدولة، ومن موقعه ذلك كان مسيو سارج يعرف كيف يذلّها بعزّة وكرامة فتنقاد له ولا تبالي بشيء. كانت ترى فيه جانبا ساحرا متفوّقا يخلب الألباب، ممّا يجعله في نظرها من طبيعة

بشريّة أخرى، من جنس ممتاز وأكثر رقيّا. جنس رؤساء الدول والروم والمعمّرين!

أخفت أم هلال الحمل عن الجميع. ساعدها في ذلك أن أباها كان ضريرا. عندما انتفخ بطنها حاولت أن يكون الانتفاخ من جانبيها لا من مقدّمة بطنها ومظهرها الأمامي.

لأسابيع مضنية وممتعة في آن تعمّدت النوم على بطنها حتّى يعرف الجنين كيف يوسّع له الإقامة على مستوى الجنبين ولا ينتأ إلى قدّام ويفضحها. كان سارج يعرّي تلك البطن المضغوط الذي شدّ جلده بقوّة وبانت فيه ألياف الدماء تضفي احمرارا محبّبا على لون البشرة السمراء الخفيفة، كان يعرّي البطن العجيبة، مستودع السرّ، ويقبّلها قريبا من السرّة، ويترك يديه الناعمتين البيضاوين، بتلك الأصابع النحيلة البرّاقة التي تصلح للعزف، على بطنها وهو يقول لها إن هذا الجنين عندما يولد سيكون ابنا للحياة، ويتلو على مسمعها مقطعا من قصيدة "النبيّ" لجبران خليل جبران عن الأطفال لم تكن تفقه منها شيئا يذكر، لكن ما كانت تفقهه جيّدا أنّ الأب كان بصدد مخاطبة ابنه الجنين الموجود في أحشائها. كان يباركه ويبلغه توصيات قد تنفعه في الحياة.

كان سارج ينشد بخشوع وتأثر بالغ وهو يلمس برفق وحنان بطن دلندة: "أبناؤكم ليسوا أبناؤكم/ هم أولاد وبنات الحياة/ إذ لذاتها تتوق الحياة/ يأتون من خلالكم لكنّهم ما هم منكم/ معكم يعيشون لكنّهم إليكم لا ينتمون/ قد تمنحونهم حبّكم ولكن لا تمنحونهم أفكاركم/ فأفكارهم خاصّة بهم/ قد تؤوون أجسادهم ولن تؤووا أرواحهم/

فأرواحهم تقطن مرابع الزّمن القادم/ ولا سبيل لكم إليها، حتّى في أحلامكم/ قد تجاهدون كي تكونوا مثلهم ولكن حذار أن تجعلوهم مثلكم/ فالحياة لا تمضي في رجوع ولا تتشبّث بالأمس الفائت/ أنتم القوس سهاما حيّة منه يطلق أولادكم/ ويرى الرّامي على صراط المطلق العلامة، فيلوي بجبروته عودكم/ لتنطلق سهامه خاطفة إلى البعيد، فليكن انحناؤكم بيد الرّامي ابتهاجا/ فإنّه يحبّ السّهم المحلّق، كما يحبّ القوس الثابت..."

كان سارج يتكلّم معها بلهجة تونسيّة لها موسيقى خاصّة. كان يبقبق بالكلمات ويغصّ حلقه ببعض حروف اللّغة العربيّة الحلقيّة، المستقيمة والحادّة كنصل، ممّا يضفي على نطقه نوعا من هبهبة الكلاب، هبهبة يصطفق هواء اللّسان في أرجائها، فتخرج من فمه مصحوبة بالنسيم، وخالية من شراسة نباح كلاب الأرياف السائبة. هبهبة كلاب البيوت النظيفة الأنيقة المنحدرة من سلالات حيوانيّة نبيلة الأرومة. كان سارج يهبهب لها، عندما يقترب من وجهها ويندفع لتقبيلها، وهو يهذي كمحموم: نهبّك...نهبّك...نههبّك...

تخيّلت أم هلال بهاء سارج وبياضه الناصع، وشقرته الذهبيّة، وقامته الفارعة، وملامحه الوسيمة الرّاقية، وجسده الممشوق، وأرنبة انفه المحمرّة، كأن لونها استعير من الطّماطم، وشفتيه الرقيقتين المنقلبتين إلى الدّاخل ـ هل هما حقّا شفتان؟ هذا أمر لم تحسمه أم هلال. عند التقبيل تكون له شفتان وبدون تقبيل لم تلاحظ أن له شفتين. مع انّه من الواجب الإشارة إلى أنها لم تكن لتجرؤ على تفحّصه والنّظر إليه مباشرة

في غير الفراش ـ تخيّلت أم هلال أن خصال "دي لا كروا" وامتيازاته قد استقطرت جميعها وغدت رحيقا في أحشائها، يتكتّل بعضه على بعض وتتغلغل فيه دماء عربيّة فيّاضة، وينمو في بيئة جسدية دافئة ومعافاة، على أنغام نبضات القلب الشاب المتوثب عشقا.

ليلة مقتل عزوز عبد الناصر

تلاحقت أنفاس شهرزاد وهي تتابع أطوار حكاية هلال الاحد. كانت عيناها مفتوحتين في السديم المظلم وهي ترمش بين اللّحظة والأخرى. أمّا يوسف عبد الناصر فلم يبرح وضعه. ظلّ جاثيا على ركبتيه مستندا بمرفقيه على سرير الزوجيّة. كان مجيء هلال الذي تكتنفه الغرابة جعله يتذكّر طفولته ويتساءل بدوره عن أبويه الحقيقيين. كان تساؤله في قرار نفسه ولكن بصوت سمعته شهرزاد:

كلّنا بلا أباء ولا أمهات. هل كلّنا أيتام وخونة؟!

تذكّر يوسف يوم مقتل أبيه عزوز عبد الناصر. كان وقتها صبيّا لم يتجاوز العشر سنوات. كان جسد والده مدمّى وقفصه الصدري مهشّما. ملقى في بركة موحلة تحت نبات الصبّار الشوكي. تلوّث ودماء وأناس يتدافعون ويصخبون في حالة من الاستثارة القصوى. كان يوسف وسط معمعة الرجال الهائجة صامتا مخطوفا ومنفصلا عن الحشد، يحدّق في جثّة والده الدّامية بثبات، ينقل عينيه بتركيز بصري

شديد من عضو إلى آخر، وكأنه يقوم باستنساخ الجثة في ذهنه لتحفظ هناك إلى الأبد.

ركض يوسف قرابة العشرين كيلومترا بما أوتي من جهد. عندما وصل مدينة المعصرة كان مهدود القوى، وشعر بأنه ثقيل الحركة كما لو أنه حمل على ظهره جثّة والده وسار بها ركضا ليدفنها بعيدا عن عيون الناس، ليدفنها في ذات نفسه إلى الأبد، ليتحوّل هو قبرا لأبيه. تقطّعت أنفاسه. كان في حالة عطش وجوع، والأرض تدور به وتمور، بصورة شعر معها بأن معدته تعتصر وبأنّه سيتقيأ أو سيدوخ. حالة الإعياء تلك لم تكن لتساعده على البحث عن منزل عائلة أمّة دلندة الذي لا يعرف له موقعا. لم يسبق له أن زار أمه منذ تطليقها من قبل أبيه ولا مرّة واحدة. كان والده فظّا وقاطعا في هذا الشأن. "تلك المرأة، امرأة المعصرة، لا علاقة لنا بها، ولا علاقة لها بنا!" مثلما كان يردّد عزوز عبد الناصر في قسوة. كان يوسف يتقبّل ذلك بخنوع وعذاب. ماذا فعلت أمّه ليقوم والده بتطليقها وقطع العلاقة بها وحرمانه منها؟ لم يكن يعثر على إجابة لأسئلته الدّاخلية السّامة، فقط بعض التلميحات التي كانت زوجة أبيه تتعمّد الغمز بها. ذات يوم احتدّ معها يوسف وطلب منها الكفّ عن التلميح والدسّ في الكلام، حينها قالت له بشماتة "أمك امرأة فاسدة! انسها!".

وأضافت بنبرة شريرة فيها الكثير من البغض والتشفي: "كانت امرأة خضراء وفنّانة، ترفع عقيرتها بالغناء في كل الأوقات، لتثير الفتنة في قلوب الرجال وتهيّجهم. كانت حين تستغرق في عمل من

أعمال المنزل تطلق صوتا شهوانيّا وملتاعا. كان بعض الرّجال منطقتنا يستوقفهم صوت والدتك فيتسمّرون قرب الدار ولا يبرحون المكان إلاّ حين تكفّ عن الغناء، أو حين يلحق بهم أبوك فيطردهم وهو منسحق ومخزيٌّ من سلوك أمّك. في كل مرّة كان يوبّخها على صنيعها ويضاعف تهديداته لها. إنّها امرأة مضروبة على رأسها وممحونة ولم تكن ترتدع. إنها من بلاد معصرة الشراب التي يشتهر نساؤها بولعهن بالغناء والتفسّخ. لم يكن سي عزوز يضربها لأنه كان رجلا فاضلا وتقيّا يعتقد أن المرأة إذا ضُربت حَرُمَت. كان يقول: "عاشروهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف". فارقها بالمعروف. نادى بعض أهلها من المعصرة وقال لهم: "ابنتكم طالق".

تلك المعلومات الحقودة نفثتها زوجة والده على مسمعه. لم يكن يوسف يفقه شيئا عند طلاق والدته. طفل عمره عامان وتسعة أشهر. أخذه أبوه إلى منزل عمّته وأودعه هناك، ثم أعاده إلى بيت العائلة عند نفاس امرأته الجديدة بابنتها البكر.

كان عزوز عبد الناصر مؤدّب صبيان القرية. درس سنتين في جامع الزيتونة. انقطع عن الدراسة للإنخراط في النضال الوطني ضدّ الاستعمار الفرنسي. كان يعتبر صوت المرأة عورة لا ينبغي أن يسمعه سوى الزوج. أما إذا كان هذا الصوت غناء يصل إلى مسامع الرجال فهو فحش ودعارة والعياذ بالله! كان عزوز مناضلا يقاوم الاستعمار الفرنسي بمبدئية وشراسة وروح وطنية مفعمة بالتضحية، وكان يكنّ كرها شديدا وحقدا معتّقا " للفرنسيين الكفّار" كما كان يسميهم، ولا

يذكر اسمهم إلاّ مسبوقا بالبصاق واللّعنات.

مازال يوسف يتذكّر، بقوّة وحرارة، يوم تلقّى صفعة مدوية لاهبة على خدّه الطريّ، حين سمعه والده يلقي تحيّة الصباح على أترابه بالفرنسيّة (bonjour). سمع يوسف تلك الكلمة تروج بين أقرانه فشاء تقليدهم فكان جزاؤه صفعة خشنة جرحت خدّه واصمت أذنه وتقاطر، على إثرها، الدمع من عينيه والمخاط من أنفه.

قال له أبوه حانقا وهو يهتزّ من فرط الغضب: «إن سمعتك مرّة أخرى تنطق بهذه اللّغة الساقطة أذبحك. فهمت... أذبحك!»، أضاف وهو يبتعد بصوت مغمغم هادر: «نحن نقاتل الفرنسيين ونطردهم من ديارنا وأبناؤنا يتفرنسون من ورائنا! ما كل هذا العجب؟».

وقتها كان يوسف يدرس مبادئ اللّغة العربيّة في الكتّاب. وكان عليه أن يتمّ حفظ القرآن كاملا بأحزابه الستين عن ظهر قلب حتّى يتمكّن من الالتحاق بجامع الزيتونة المعمور بالعاصمة. لم يحفظ يوسف سوى ربع القرآن. كانت ذاكرته تخونه في كثير من الأحيان عند تلاوة الآيات والسور فيعامله أبوه مثل الصبيان الآخرين. بل كان في كثير من الأحيان يغالي في عقابه. يعاقبه كقدوة وموعظة وعبرة لمن يعتبر، لإرهاب الأطفال الآخرين ونشر الذعر في قلوبهم. يشدّ وثاق ساقيه إلى الفلقة ويجلده بعصا الرمّان الخطيرة ذات العقد، من أثر الشوك، عشر جلدات، وهي جلدات تجعله ينزف، وفي أفضل الأحوال تورّم باطن قدميه فلا يعود قادرا على المشي، إن نزف وإن تورّم. يختار عزوز عبد الناصر عصا الرمّان، دون غيرها من عصي الأشجار الأخرى، لأنها

تلحق بالمضروب أذى كبيرا. وإذا تلقّاها على غير باطن قدميه يتبوّل الدّم.

بعد خمس سنوات من ذلك تخلّص يوسف من الكتّاب وحفظ القرآن والفلقة والنزيف وتورّم القدمين بفضل مقتل والده، وبفضل مسيو سارج دي لا كروا، الذي حالما أعلمته خادمته دلندة بوضعيّة ابنها وبموت طليقها حتّى تولّى التحرّك من أجل تسجيل الولد في مدرسة عصريّة ابتدائيّة، من منجزات دولة الاستقلال. أشرف دي لا كروا بنفسه على تلقين يوسف مبادئ اللغة الفرنسيّة التي وجد صعوبة كبيرة في تعلّمها عند البداية، ولكنّه وبفضل بيداغوجيّة دي لا كروا راح ين سجم، شيئا فشيئا، مع لغة الفرنسيين واستوعب كل ما تلقّاه حتى غدا متفوّقا بين أقرانه الذين يصغرونه سنّا، إلى درجة دفعت مدير المدرسة إلى إجراء استثنائي رفّع يوسف من الفصل الثالث إلى الفصل السادس، قافزا بذلك ثلاثة فصول دفعة واحدة، ليجد نفسه في مواجهة الشهادة الابتدائيّة، وعلى أبواب التعليم الثانوي.

يتخيّل يوسف عبد الناصر ذلك اليوم البعيد من خريف سنة ١٩٥٧ عند وصوله مدينة المعصرة. كانت الطرقات مترية وغير معبّدة ولا تختلف ملامح المدينة كثيرا عن ملامح قريته. هناك ريف يخالط العمران كلّه. ثمّة بيوت أكثر تتلاصق، واطئة وذات أبواب قصيرة. لم يبق راسخا في ذهن يوسف سوى مشهد سيارة الحرس الوطني الخضراء الغامقة، نوع لاندروفر ألماني، وهي تهتزّ وتحدث أصواتا على الطّريق. كان أعوان الحرس يرتدون لباسا أخضر غامقا وخشنا مثل لباس الجنود. لم تكن قد

تشكّلت الشرطة المدنيّة بلباسها الرّمادي بعدُ. يتذكّر يوسف بوضوح مخبزة قديمة تفوح منها رائحة خبز الكوشة. لم تكن لهم في القرية لا سيارات ولا مخابز عامّة. كلّ البيوت لها أفرانها التقليديّة (الطابونة) والأهالي يصنعون خبزهم يوميّا بأيديهم، من القمح والشعير والذُره. يتبادل الأجوار الخبز الساخن على سبيل الدّين. كان الناس في بهجة عارمة بنيلهم الاستقلال وانبثاق الدولة التونسيّة وكانوا يطبخون الخبز الأبيض، المشتق من القمح الصلب الرفيع المخلوط بزيت الزيتون، ويطرحونه في الساحة العامة ليأكل منه العابرون والمحتفلون بالاستقلال. ظلّوا على ذلك الحال أكثر من أسبوع. كانت أجواء النصر والاستبشار تلوح في تصرّفات الناس وحديثهم عن المستقبل. تخرج البلاد زاهية من طور وتدخّل بتوثب ونشوة طورا جديدا. كان زعيم النصر والاستقلال يلقي على الناس عبر الإذاعة مبادئ تكوين الدولة وضرورة الإحساس بكرامة المواطنة والتحضّر ويدعو إلى تحرير المرأة وسفورها ومساواتها بالرجل رافعا شعار: «الجهاد الأكبر» الموجه إلى داخل البلاد وداخل الأفراد، بعد أن خاضت البلاد جهادها الأصغر في تحرير البلاد من المستعمر الخارجي. كان تحرير النفوس ومواجهة التخلّف والانغلاق هو الجهاد الأكبر للمجاهد الأكبر، كما كان بورقيبة يفضّل أن يسمّى مخططاته وإصلاحاته، وكان يحبّ مناداته بالمجاهد الأكبر.

كان أهل القرية مغرمين غراما شديدا بالإذاعة وتتنافس العائلات الثرية على اقتناء أجهزة الراديو للمشاركة في فرحة الحياة والمساهمة

في بناء الدولة الفتيّة. لكن عزوز عبد الناصر كان متجهما ومستاء من الزّعيم، ومن الحكومة، ومن الوضع كلّه، ويعتبر أن بورقيبة وجماعته قد خانوا القضيّة الوطنيّة وخذلوا المقاومة المسلّحة. وفي النهاية، عوض أن يسعى بورقيبة إلى أسلمة البلاد وتعريبها هاهو يتواصل مع فرنسا ليحقّق بسياسته التغريبيّة ما عجز المحتلّ عن تحقيقه بقوّة السلاح والاستعمار الطويل. اقتنع عزوز عبد الناصر بضرورة مواصلة الكفاح وضرب الاستعمار وأذنابه في الداخل والخارج. جاهر بمعاداته للنظام الوليد، وطفق يعمل بتصميم، في كل اجتماع شعبة دستوريّة، على خلق البلبلة في أذهان الناس وزرع بذور الشك والشقاق لدى أعضاء هيئة التسيير. بل وصل به الأمر، قبل مقتله بأسبوع، إلى الامتناع عن تسليم ما تجمّع لديه من أموال الشعبة الحزبيّة بصفته أمين مالها. كان يرى أن مال الشعب لا بد من إنفاقه في تخليص الشعب من العناصر الموالية لفرنسا. باغتيال عزوز تخلّص أعضاء الشعبة من مشاغب كبير، متطرّف، شديد المراس وعنيد، صار يهدّد الإجماع العام. رغم ذلك فإن أهل القرية حزنوا كثيرا لدى اكتشافهم جثته، واعتبروا طريقة موته لا تليق بمناضل وبشخص ورع مثله، ولم يتورّعوا عن إثارة الأقاويل والشائعات والشبهات، ولكنّهم ما لبثوا أن ثابوا إلى رشدهم وعادوا إلى ما هم فيه من وعود الاستقلال ونشوته.

في زحمة انشغاله بالقضيّة الوطنيّة نسي عزوز عبد الناصر ختان ابنه. في البداية، والطفل في سنواته الخمس الأولى، كان عزوز يقول لعائلته ورفاقه في الكفاح المسلّح انّه سيقوم بختان ولده يوسف في

القريب العاجل، في اليوم الذي يكون فيه الشعب التونسي كافة في حالة احتفال بالاستقلال الحقّ. لقد نذر ختان ابنه لاستقلال بلده الذي تلوح تباشيره في الأفق ولن يخيّب الله رجاء، ولن يرفض نذره. يدخل ولده للدّين الإسلامي عبر الختان، وتختن البلاد عندما تتطهّر من المستعمرين الكفّار وتعود إلى حضن العروبة والإسلام. خلاص، ختان الولد سيكون يوم النصر العظيم. لكن النصر كان يمرّ بفترات مخاض ومفاوضات مريرة وضحايا كثر ومآزق لا تحصى. وحين أعلن الزعيم عن تحقّق النصر، تطلّع عزوز متشوّقا إلى ذلك النصر، فبدا له سرابا خلّبا وهباء منثورا. أحسّ بالخديعة واشتمّ روائح مؤامرة كريهة. أعمل نظره مليا ثم هتف بأبناء قومه: «هذا النصر ليس حاسما ولا مقنعا، إن قبلنا به نخون دماء الشهداء، لنواصل حمل السلاح لإجلاء كل أثر للفرنسيين ولقطع دابر الاستعمار وعملائه المحليين ممن يتنكّرون في أزياء وطنيّة». لم يكن النصر عنده نصرا. لذلك ظلّت مسألة ختان ابنه معلّقة ومؤجّلة إلى أن يحلّ النصر الحقيقي. كان يُمنّي نفسه بأنه سيقوم، لا محالة، بختان يوسف مع أخويه الصغيرين، غير الشقيقين، اللذين مازالا يحبوان، مع أن يوسف قد تخطّى الثامنة من عمره. اعتقد عزوز أن الولد مادام لم يبلغ سن الاحتلام فإن موعد ختانه لم يفت. في الوقت متسع لتدارك الأمر، ولو بصورة متأخّرة نسبيّا. كان يتمنّى أن يختن طفله خلال سنواته الأولى اقتداءً بالسّنة النبويّة الشريفة. لكن ماذا يعمل؟ كان يعتقد أن غرضه نبيل ومقصده شرعي، ويتوجّب عليه أن يفي بنذره وأن يصعّد المقاومة ويوسّعها ليربح الوقت. لم يجد من يدفعه

للقيام بختان ابنه قبل حلول النصر الحقيقي، فحتّى زوجته الثانية كانت مستغرقة تماما في شؤون أولادها، ولم يخطر ختان يوسف على بالها ولو مرّة واحدة. مات عزوز عبد الناصر دون أن يظفر بنصره الحقيقي ودون أن يؤدّي تلك المهمّة الدينيّة في حقّ ابنه البكر.

كانت رائحة الخبز الساخن شهيّة تنفذ إلى أعماق يوسف الجائع وتزيد في بلبلة خاطره، تشعره أكثر فأكثر بثقل حمل جثّة والده المقتول. كان يحمل الجثّة بكل أعضائها وأطرافها ورأسها المهشّم ووحل بركتها. يحملها في عينيه الاثنتين ويجاهد في محاولة دفنها في مخيلته ومواراتها التراب في أظلم مكان من وعيه. في مكان قصيّ عصيّ على أن يرى. لكن رائحة الخبز الساخن تثير حتّى شهيّة الأموات وتجعل محاولة دفنهم متعذرة. إن الجوع لا يساعد على دفن احد. لا بدّ له أن يشبع لتنشط قواه ويقدر على دفن ميّته. هاهو في مواجهة الخبز حال وطأت قدماه بلدة المعصرة بلد أمّه التي يشتاق إلى لقياها بكل جوارحه. عليه أن ينتهي حالا من موت والده ليتفرّغ لمعرفة أمّه الحبيبة التي لا يذكر لها صورة ولا ملمحا في مخيلته. كانت دائما تأخذ في أعماقه شكلا تجريديا من الصفات الجميلة، شكلا موسيقيا تنبعث منه أصوات عذبة أخّاذة تسحر الألباب، شكلا راقصا ومشرقا في صبيحة يوم صحو قبالة البحر. كان دائما حين يحاول أن يتخيّل ملامحها يرد إلى ذهنه، فورا، وجهه الشخصي وقد انقلب إلى وجه أنثى صغيرة، حلوة ومزيّنة زينة شديدة، مبالغا فيها، ولكنّها رغم ذلك تفيض بالرقّة والعذوبة. كان يخجل من نفسه حين يرى وجهه قد انقلب إلى وجه أنثى، ويعتبر ذلك انتهاكا لوجه أمّه وتشويها له. لكن

ماذا يفعل؟ تلك كانت صيغته الوحيدة لاستعادتها وإبقائها حيّة في وجوده. كانت حياتها الرمزية مبعث فرح وضنى عنده. وفي ذلك لم يكن يعبأ بالآخرين. كانوا ينادونه، زوجة أبيه وبعض أترابه، بكنية: «ولد معصرة الشراب» على سبيل التحقير والتشنيع. نكاية به وبأمّه الخضراء الفنّانة. لم تكن تلك الكنية تنبزه. كان يعتقد أن الغيرة منه ومن أمّه هي التي تدفع الآخرين لمعايرته بها. كان يرى عكس ما يرون. إن حرمانه منها جعله يعتقد أن الأمّهات هن دوما مبعث افتخار ولا يمكن أبدا أن يجلبن لأبنائهن العار مهما فعلن حتى لو غنين بصوت يسمعه الرجال الأغراب، بل حتى لو رقصن سافرات غير متسفسرات.

مرّة واحدة، وهو في سنّ الرابعة من عمره، سمع والده عزوز عبد الناصر ينطق باسم أمّه: «دلندة». كان يذكرها لزوجته الجديدة بعد نفاسها الأول. قال أبوه وهو يمازح تلك الزوجة ولم يكن منتبها لوجود يوسف: «سمّوها هناك في المعصرة ب (دلندة) من اجل أن تكون طالع خير على أمّها فتنسل أطفالا ذكورا من بعدها. اسم دلندة في عرف بعض العائلات العريقة فأل حسن على الأمّهات». حدّث عزوز زوجته في نبرة بدت ليوسف أنّها تعبث باسم أمّه، ذلك الاسم الذي حفظه وهو طفل من سماع واحد وجعله راسخا في وجدانه ومعلّقا في أذنه ولسانه إلى الأبد. كان يجد في ذلك الاسم شيئا من قرقعة الطبول، ولم يكن يتبيّن هل هي طبول المعارك الحربية أم طبول الاحتفالات! كان يلذّ له في أغلب خلواته بنفسه ـ وهو كثير الخلوات مثل جميع الذين فقدوا في حياتهم، ذات مرّة، شيئا نفيسا لا يعوّض ـ أن يدندن بذلك الاسم محوّرا

إياه في كل مرّة مضيفا له ما شاء مزاجه من تنويعات ألحانه المرتجلة التي ترد إليه عفو الخاطر.

لكن عدا ذلك الاسم العزيز فهو لا يعرف عن أمّه شيئا آخر. لا يعرف لقبها! لا يعرف شيئا عن عنوان سكنها، عدا أنها في مدينة المعصرة. لا يعرف أدنى معلومة عن عائلتها ولا عن أصلها وفصلها! هاهو ابن امرأة معصرة الشراب يتيه الآن في مدينة المعصرة، بلا حيلة ولا رجاء، وجثة والده في عينيه تكاد تتعفّن ويأكل منها الدّود، وهي تغشى بصره كلّه، حتّى أنّه كان، بين الحين والآخر، يفرك عينيه ويلوّح بيديه في الهواء لطرد هلوسات وتشكّلات بصريّة تنغل في فضائه ولا يراها إلاّ هو.

مازال يوسف يستنشق بكامل جسده رائحة الخبز الحامي. لم يتذوّق في حياته خبزا عموميّا من مخابز المدن. كان أهل القرية يسخرون من خبز الأفران الحديثة ويعتبرون نصاعة بياض دقيقه يعود إلى انه مطحون من عظام الموتى لا من حبوب القمح. فجأة خرج رجل من المخبزة مغطّى بالدقيق الأبيض من شعر رأسه إلى أخمص قدميه. رجل أبيض، رموش عينه بيضاء وشاربه أبيض، عدا أسنانه فهي مسودّة من أثر التدخين. توجّه الرجل من فوره بالسؤال إلى يوسف:

ماذا تريد؟ هل تنتظر أحدا؟ لماذا لم تبرح المكان منذ مدّة؟

ارتعب يوسف من الأسئلة الموجّهة إليه. تماسك قليلا، ثم أجاب ورأسه منكّس إلى الأسفل وصوته ذليل مرتجف:

أنا جائع وابحث عن أمّي!

تفرّس فيه الخبّاز لثوان بدت له طويلة، ولكن بشبه عدم اكتراث، ثم عاد يسأله «من أي بلاد أنت؟».

من قرية الجدود... غير بعيد من هنا.

وماذا تفعل هنا؟

جئت أبحث عن أمي. أمي معصريّة!

ما اسمها؟

...

ألا تعرف اسمها؟

دلندة

ماذا؟

اسمها دلندة!

وأين تسكن؟

لا أعرف!

كيف لا تعرف ابنة من هي؟

لا أعرف!

لا أعرف، لا اعرف... وماذا تعرف إذن؟!

طلّقها أبي وأنا صغير. أعرف أن اسمها دلندة وهي من المعصرة.

عاود الخبّاز النظر إلى يوسف نظرة لامبالية، نظرة كليلة، مضبّبة وخالية من التعبير، كأن نار الفرن ذهبت بوهجها. مسك الخبّاز

يوسف من يده كما لو أنه يمسك خشبة ليلقمها للنار، بآلية وجفاف، وزجّ به في رحاب المخبزة. كانت المخبزة الدافئة تستعمل الحطب ونشارة الخشب في طهي الخبز. كان العجين يفرك بالأيدي. في جوف المخبزة كانت الحرارة لا تطاق. رفع الخبّاز شكارة يتكوم تحتها الخبز الحامي. التقط خبزة سمينة قسّمها نصفين بيده. أعطى شطرا منها ليوسف وقال: "كل"! ثم نادى زميلا له يعكف على إلقام الحطب للفرن، له وجه مصهود ولا يمكن تقدير سنّه من فرط تداخل ملامحه وعتمة المكان. تبادل الخبّازان الحديث على مبعدة من يوسف الذي كان يقضم خبزه بشراهة بلهاء ويحاول استراق السمع إلى حديث الخبازين وهما يستعرضان أسماء العائلات المعصريّة التي تصاهرت مع أناس من خارج المدينة. مازال يوسف يلوك خبزه الساخن الشهيّ ذا المذاق الخفيف، الهشّ، وكان يتمهّل في مضغه وابتلاعه عسى أن يحدّد الفرق بينه وبين خبز الطابونة. حين بدا يشبع تلاشت صورة مقتل والده وجثته الملقاة في البركة الموحلة. فكّر أن هذا الخبز العمومي الناعم يؤكل للتسلية لا للتخلّص من الجوع. افترق الخبّازان. عاد الخبّاز الأوّل إلى يوسف قائلا:

قد تكون أمّك، يا ولدي، هي ابنة حمدان الأعمى. أعتقد أن حمدان زوّج إحدى بناته إلى واحد من الريف، لعلّه ريف قرية الجدود. اذهب واسأل عن دار حمدان الأعمى الطبّال في حومة الدغرارة.

عندما أمسك يوسف المقبض الحديدي، الذي يطرق به الباب المدهون باللّون الأزرق المتقادم الباهت، كان حائرا في نوع الكلام الذي سينطق به، وفي الصّفة التي سينادي بها الآخرين. رغم حيرته تحرّكت

يده من تلقائها وأحدثت طرقات متتابعة خفيفة على الباب. لم يتلق أيّ إجابة من داخل الدار. عاود الطّرق بصورة أشدّ. كان لصوت ارتطام مقبض الحديد بالخشب وقعا مثيرا فيه ما يشبه الألم أو الفزع. ظلّت الطّرقات بدون إجابة. كان الباب متينا، من الخشب السميك، ولكنه بال ومخلخل بعض الشيء. بفعل الطرقات التي ازدادت ضراوة انفرج الباب إلى الدّاخل قليلا محدثا صريرا وأزيزا. زاد يوسف على ذلك بدفع فردة الباب. سمح له انفراجها بمدّ عنقه من مدخل السقيفة وصاح بأعلى صوته: "يا سي حمدان، يا سي حمدان... يا أهل الدار، يا أهل الدار..." رجع له صدى صوته متردّدا من الفناء عبر السقيفة. لا احد سمعه. لا أحد أجاب نداءه. تقدّم ودلف إلى الدّاخل. وجد نفسه وسط سقيفة رطبة شبه معتّمة وذات جدران سميكة مبنيّة بالتراب والحجر وعليها كلس حائل اللّون. تقدّم إلى فتحة مقوّسة تفضي إلى فناء الدار. كان يتحرّك بحذر ويرهف سمعه في تلصّص. الفناء واسع ومبلّط بالاسمنت وثمّة ثلاثة أبواب في الداخل ممّا يعني أن الدار تشتمل على ثلاثة غرف ورابعة مدخلها عليه ستارة. أعاد نداءه الأوّل وهو في فناء الدّار بصوت أقلّ ارتفاعا وقد تملكته قشعريرة الخلاء. قصد الغرف الثلاث وطرق أبوابها المقفلة. لا أحد يجيب. أزاح ستارة الغرفة الرابعة فانكشفت له حجرة واسعة خصّص جانب منها لتخزين شكائر القمح والشعير وبعض مؤن الطّعام. في جانب آخر من الحجرة، منحرف البناء ومدغور، لاحظ يوسف موقد فحم ضخما والكثير من الأواني المسودّة. كانت الغرفة دافئة وكان يوسف مجهدا كثيرا وشبعان. ارتمى على شكائر القمح الممتلئة بالحبوب ونام بعد أن حكّ بدنه مرات بفعل حشرات الأرضة المستوطنة في بيت الخزين. نام نوما عميقا، فالتعب فراش وثير للنعاس.

ليلة طلوع الجان

تعلم شهرزاد، علم اليقين، أن التفاصيل هي لحم الحكايات وسداها، وهي لبّ الرّوايات وجوهرها. إنها فنّانة من الطّراز الأوّل في هذا الشأن. التفاصيل والتأجيل هما أساس الحكاية وهما مبناها ومعناها، لذلك لم تشأ أن تفسد على يوسف عبد الناصر تداعي تفاصيل مشاهده وذكرياته. بقيت تترقّب الكيفيّة التي سيعود بها إلى الحكايات الأصل، مثل حكاية هلال الأحد مع الفتاة زبيدة والشاب عباس الصحفي المتربّص، وحكاية دلندة وعشيقها الفرنسي وابنها غير المختون، وحكاية يوسف مع الممثّلة شهرزاد ومقتل أخوتها البنات الإناث الثلاث وأبنائها الذكور الثلاثة أيضا، وما يحفّ بتلك الحكايات الأصل من قصص وأحداث مصاحبة. وقبل الوصول إلى ذلك فإن شهرزاد على يقين من أن يوسف سيفعل مثل جميع الرواة. سيقحم نفسه وتاريخه ومآسيه في صلب الحكايات، لأنها على ثقة في أنه من الذات تبدأ كل الحكايات، فشهرزاد التاريخية خبيرة بذلك. لكنها تعرف أن على الذّات أن تكون ذاتا أوّلا حتّى تُحقّق، فيما بعد، صياغة الحكايات عن نفسها وعن الآخرين. لأن الذات حين تستغرق في ذاتها فقط تصير

تروي حكايات فاسدة وهلاميّة. وحين تتعلّق بخارجها فحسب، عندئذ، تضيع عليها كل الحكايات. فهل يوسف هو ذات حقيقة حتى تكون له حكاياته الممتعة عند السماع، هذا ما ستعرفه، على كل حال، فيما لو تركت له نوافذ القول مشرعة.

ضوء غرفة شهرزاد الخافت ذكّر يوسف بضوء مصباح الليلة التي التقى فيها هلال بأمّه. لم تكن الكهرباء قد عُمّمت على كل بيوت المدينة، فنحن في الفترة الأولى من الاستقلال، خلال نهاية الخمسينات وبداية الستينات من القرن الماضي. كان بيت الجدّ حمدان يضاء بمصابيح الكاز. مع أن ذلك العجوز المتين البنية لم يكن بحاجة إلى أي نوع من الإضاءة، لأنه كان يعمه في ظلامه الأبدي ويستعين بيديه ليرى في اللّيل أو في النهار، ولم تكن حرفته في حاجة إلى عينين. كان يعمل طبّالا وبرّاحا. التطبيل في رمضان وفي الأعراس، والنداء في المناسبات والأسواق.

دخلت دلندة غرفة المؤونة. هذه الليلة عليها أن تطهو طعام والدها طالما أنّها لم تستطع أن تتدبّر له شيئا من فواضل مخدومها. هي لم تكن جائعة. ما أكلته بعد الظهر خلال عملها يكفيها ليوم غد. انتبذت لها مكانا قرب الموقد. بعد أن أولعت مصباح الكاز الذي لم يكن ضوؤه يسمح بإنارة كلّ فضاء الغرفة وزواياها. سكبت بعضا من سائل الكاز ذي الرائحة الحادّة النفّاذة على رأس البابور اليدوي وأشعلته بولاعة كحول من الرصاص. انهمكت في تقشير البطاطا ربحا للوقت حتى يسخن رأس البابور. انتشرت رائحة الكاز مرفوقة بالدخان في أرجاء حجرة المؤونة والطبخ التي تتلقى تهوئة جيّدة من مضوتين متقابلين

تعملان على طرد الهواء الفاسد حتّى لا يلحق ضررا بالخزين.

بدأت دلندة تعالج البابور بدفع الهواء في خزّانه. لا بدّ من ضغط هوائي كثيف بالمنفاخ في خزّان البابور ليعمل بدفع ذاتي. بعد خضّات ودفعات سريعة متعاقبة باليد اليمنى، وهي مقرفصة تمسك البابور من قاعدته بيدها اليسرى، توهّج رأس البابور وصار اللّهب الأحمر يتوّجه. انبعث منه صوت يرنّ ويزفر في هدير ثابت الإيقاع. رغم أن الغرفة غدت نابضة بالحركة ظلّ يوسف هامدا مستغرقا في النوم، هناك بعيدا فوق شكائر القمح. كانت تلمّ به أحلام هلاميّة وبلا معنى. كان سادرا في نوم عميق ومريح.

حين بدأت دلندة قلي الطماطم المجفّف والبصل في الزّيت وعملت على تحريك الخليط في القدر المسودّ من الخارج من أثر سخام بابور الكاز، انتشرت رائحة بداية الطبيخ الطيّبة والنفّاذة بفعل البصل الحار، هبّ يوسف من نومه مذعورا وهو يصرخ. تسرّبت رائحة البصل إلى خياشيمه في اللّحظة التي انقلب فيها نومه الهادئ إلى كابوس. رأى هراوة عظيمة تخترق جسد والده ثم تتحوّل الهراوة إلى رصاصة كبيرة تتوهّج وتقطر دما وتهجم صوب يوسف لتفلقه، في طريقها الطويل إليه تتحوّل إلى ضفدعة هائلة الجثّة وتنتشر على بدنه، ثمّ تتشبّث بصدره وتحضنه، ثم تخرج لسانا هائلا، أبيض وموحلا، وتهمّ بلعق وجه يوسف لتطمس ملامحه. انتفض وهبّ مذعورا صارخا. أطبق صراخ يوسف على دلندة فزعزعها فولولت وهي تبسمل وتحوقل وقفزت هاربة من الحجرة تصيح في فناء الدار: "... بابا... يا بابا... جِنّ، جنّ... طلع

لي جن...“

عندما سمع يوسف زعيق دلندة وذكرها للجان خاف من الجان، وعظم خوفه بفعل ضوء المصباح الخافت الذي كان يكثّف من الظلال التي تتّخذ هيئة أشباح. في ذعره رأى يوسف جانًا كبيرا طويلا جدّا، يرافقه جان نحيل أصغر منه وقميء، والاثنان يتمايلان ويتقدّمان باتجاهه. طار يوسف من فوره إلى فناء الدار في أثر دلندة يرتعد ويصرخ هو الآخر: ”... جن يا أمّيمتي جن... جن يا ناس جن...“ في تلك اللّحظة كانت دلندة قد تحصّنت بغرفة والدها التي دخلتها كعاصفة مدوّية وأطبقت بابها ثم ارتمت مرتجفة بين يدي والدها وهي تهذي بصوت عال محموم مستجير. كان العجوز الذي أفاق من نومه العميق يتخبّط بيديه في الظلام وهو يهتف: ”باسم الله. باسم الله... ما ثمّة شيء. لا بأس، لا بأس!“.

يوسف هو الآخر كان ينشد الهرب من الجان ولم يجد في الفناء المكشوف ملاذا فاقتفى أثر دلندة لكنها حالت، بإغلاق باب غرفة والدها، دونه والدخول، فظلّ يخبط على باب الغرفة بساعديه وقبضتيه وهو يردّد: ”الجنّ سيقتلني... الجان“. ذهب في ظنّ العجوز أن الجان هو الذي يقوم بخبط باب غرفته ويحاول اقتحامها عليه. اشتدّ فزعه وأطلق صوته القوي، الذي اشتهر به كبرّاح لا يُشقّ له غبار، كأن صوته كان يخرج من بوق لا من حنجرة، طويلا بلا نهاية وعاليا يبلغ عنان السماء. كان حين يستعمله في السوق للنداء على البضائع أو إشاعة أمر من الأمور يطغى به على جميع الأصوات وتظلّ نبراته متلاحقة ومعلّقة

يبلغ صداها أبعد المسافات. لذلك كان أعضاء حزب الدولة يستنجدون به في الملمّات، ليبلّغ التعليمات إلى جميع أهالي مدينة المعصرة مهما نأت مواطن سكناهم. ومن أجل صوته الجهير الشهير رافقه أعضاء الحزب الوطني إلى الجبل لينادي على المقاومين، غداة الاستقلال، لتسليم أسلحتهم. فعل بنداء واحد ما تعجز عنه مكبّرات الصوت.

" يا لطيف... يا لطيف...جن. جِنّ...الشفاعة يا رسول الله... اخلطوا يا ناس اخلطوا...اجريولنا...اجريولنا!"

على الصوت العظيم الذي شقّ المدينة تقاطر الجيران واقتحموا دار حمدان الأعمى الذي يسمّى حمدان الطبّال أيضا. بدخول الفوج الأول اطمأنّ الصبيّ يوسف. استقبل طلائع الجيران وقد عاد له بعض من رباطة الجأش. أحسّ بالحماية وهو في عالم الإنس لا عالم الجنّ. قفز أمام الطلائع يهتف مهتاجا يحرّض الجيران ليأخذوا الثأر ويقتصّوا من الجان: « الجنّ في هذه الحجرة...طلعوا من هنا...أنا رأيت منهم اثنين!».

ما لبثت صفوف الطلائع أن تعزّزت بأناس آخرين تلبية لنداء العجوز الذي طبق الآفاق. غدا الفناء مكتظّا بالكثير من الرجال وببعض النسوة من الجيران المباشرين لبيت حمدان الأعمى. تقدّم البعض في اتجاه حجرة المؤونة ولكنّهم عجزوا عن دخولها. احترق الطعام في القدر تماما وصار متفحما تنبعث منه رائحة غريبة يشوبها الدخان والشياط. ظنّ أولئك المتقدّمون أن تلك الرائحة الكريهة وذلك الدخان الكثيف هما من بخور الجان، بل ذلك محيطه المعتّم الذي يعيش فيه ويفرّخ. اتفق الجميع بصمت وقلوب واجفة، ودون أن ينبس أحدهم ببنت شفة، أن الجان

في مهرجان، ولا يمكن اقتحام المكان وإفساد محيط الجان وحفلته، حتى لا يكون الانتقام شرسا والأذى شنيعا.

شهرزاد مغرمة بعوالم الجان وهي تخلط دائما عوالم الإنس بعوالم الجان، لذلك فإنها كانت تتابع الحكاية وهي تلتمع من الداخل. نظر إليها يوسف وابتسم. ابتسم حين تذكّر كيف كان الناس جميعهم واقعين في تلك الليلة، الليلة الأولى التي رأى فيها أمّه، تحت سطوة الجان. كانوا مستعمرين استعمارا كليّا من قبل جنود لا يرونهم. كان كلّ من في الدار قد تواطأ ليلتها على احترام هؤلاء الجنيين وإفساح المجال لهم لإتمام مهرجانهم المدخّن دون شغب ودون مواجهتهم حتّى بتعويذة. على الجان أن يخلوا المكان، على راحتهم، متى أنهوا حفلتهم.

كان الجيران والأهالي في حالة شلل وهم يهمهمون بأصوات خفيضة ويبحلقون بعيون مذعورة، واسعة وبلهاء، ويلتفّ بعضهم حول البعض، ويتلفّتون بهلع خوفا من أن ينفرد بأحدهم أو يهجم عليهم جان من حيث لا يحتسبون.

عندما فتحت دلندة باب غرفة والدها ورأت هذا الخلق العظيم المفجوع الذي يحتشد في دارهم أحسّت بالأمان، ورغم الهلع السائد شمّت رائحة الدخان المنبعث من حجرة المؤونة. ركضت مباشرة إلى حجرة المؤونة وولجتها لتلتقط القدر من على نار البابور وهي تزعق محتجّة: "يا بهائم لقد احترق كل شيء. تفحّم العشاء!". كان الناس في حالة ذهول كبير من شجاعة دلندة المتهوّرة، وتوقّعوا جميعهم، بما في ذلك يوسف، للحظات، أن تتيبّس دلندة داخل الغرفة أو أنها ستتبخّر.

لكن حين سمعوا صوتها يلعن البهائم ويتحسّر على احتراق الطبيخ هدأ روعهم قليلا. ولمّا تيقّنوا أنّها لم تصب بمكروه تشجّعوا والتحقوا بها في الحجرة متآزرين يخطون بارتياب وحذر. حين غصّت بهم حجرة المؤونة صاروا يقولون: "لا باس. لا باس...انتهى كل شيء. رحل الجان والحمد لله. انتهى كل شيء..."

مثلما جاؤوا خرجوا، متحلّقين ومبعثرين، فرادى وجماعات، يسري بينهم الهمس واللغط والهمهمات. خلا منهم المنزل تماما. ظلّ الأعمى العجوز، الطويل العريض والمتهدل المنكبين، واقفا كعفريت يسدّ بقامته باب غرفته. كان قادرا بصوته الهادر في الجبل أن يجعل رجال المقاومة المسلّحة يلقون أسلحتهم ويسلّمونها للإدارة والحزب! ولكنه مع جنود الجان لم يعد قادرا على شيء سوى العويل كالثكالى والندّابات، ثم الوقوف على باب غرفته يدير عينيه المطموستين الفارغتين إلى تحت وإلى فوق في سديم ظلامه. أما دلندة فكانت تروح وتجيء خلال فناء الدار مهتاجة متوترة، وكان يوسف خانسا يلتصق بحائط مدخل السقيفة في الظلام. كان محتارا مبلبل الذهن، لا يعرف ماذا يقول وكيف يقول؟ وماذا يفعل للإعلان عن نفسه؟ كان يشعر بجفاف في حلقه وبأن عليه أن يبادر بحركة ما للإعلان عن نفسه قبل أن تفوت عليه الفرصة. أخيرا قال بصوت متقطّع مرتجف:

شريبة ماء...يعيّشك!

تسمّرت دلندة في مكانها. تطلّعت بكل جسدها إلى مصدر الصوت. حاولت أن تستجمع طاقتها البصريّة كلّها عسى أن تلمح صاحب

الطلب. كان الظلام مطبقا في فناء الدار الذي خلا من الناس. قالت دلندة بصوت مرتعب وهي تقدّم ساقا وتؤخّر الثانية والقشعريرة توقف شعر رأسها:

باسم الله...أشكون يحبّ على الماء؟!

أنا..!

من أنت؟ عد إلى داركم...أليس لكم ماء في داركم؟!

دارنا ليست هنا...

أين هي إذن؟

دارنا في ريف قرية الجدود...

تلقّت دلندة عبارة "ريف قرية الجدود" بارتجاج، حتى أنها أحسّت بأن الأرض صارت رخوة تحت قدميها. ترنّحت. انتفض قلبها وانقبض من فرط وقع اسم تلك القرية المنحوسة عندها، التي كاد فيها طليقها أن يقصّ لها لسانها حتى لا تعود لغنائها العفوي، الذي ينطلق منها رغما عنها كلّما استغرقها عمل من الأعمال. ريف قرية الجدود!! لعنة الله على هذا الاسم وعلى أولئك القوم الأجلاف. كم صارت تشمئزّ منهم. بل تشمئزّ من مجرّد التلفّظ باسمهم أو سماع ذكرهم: بل إنها كادت تنسى أن لها ولدا فيهم! وكانت تقاوم مشاعر عارمة أحاطت بها من كل جهة:

وما الذي جاء بك الى المعصرة؟!

جئت أبحث عن امّي!

ومن تكون امّك. سألته وهي تكاد يغشى عليها من هول ما تسمع.

امي دلندة، ثم اضاف، أمّي من مدينة معصرة الشراب كما يقول أهل قريتي!

دارت دلندة وتشبّثت بالحائط وهي تكاد تسقط. والدها مازال يُفرِع طوله على مدخل باب غرفته وكأنه في حالة ذهول ولا يسمع شيئا. ثابت دلندة إلى رشدها فهبّت إلى حجرة المؤونة وانتزعت مصباح الكاز المعلّق.

ركضت، والمصباح ينوس ضوءه ويكاد ينطفئ، تجاه مصدر الصوت لترى صاحبه. وقتها كان يوسف يتحرّك تجاهها. وقفت على مسافة خطوة منه ويدها ترفع المصباح وتلقي ضوءه المتراقص على وجه الصبي. هتفت متفاجئة ملتاعة: «يوسف!». هتفت مرة واحدة بالاسم واحتضنت الصبي. مازلت رائحة المقابلة الاولى عالقة بأنف يوسف. حين حضنته شمّ فيها رائحة الحرقوس ممزوجا برائحة البصل المقلي. كانت رائحة لطيفة تشمّ ولا توصف. ومازالت ذكرى صوتها تتردّد بين جوانح يوسف ومسمعه. صوت فيه هلع ونشوة ونكران. صوت جاف هاتف رفيع ومكلوم، مشدود بين البهجة والعذاب، بين الجفاء والوصال. يخفق قلب يوسف، الآن، حين يتذكّره، بل هو لا يتذكره، إنما مازال يسمعه بالرّنين نفسه الذي سمعه به أول مرة.

حين تردّد صدى اسم يوسف أدركت شهرزاد محنة هذا الرجل الجاثي على ركبتيه بين يديها يسند جذعه بسريرها الزوجي. انه ابن عذابه الخاص. ليس يسيرا عليه أن يولد في زمن ازدهار الخيانة الفردية والجماعية، ويترعرع فيها وينمو هناك، ويصل إلى موقع عليّ في المجتمع

وبين الناس، محفوفا بالخيانات التي ألّمت به من كل جهة.

خان يوسف تراث والده. خان وجود أبيه ولغته ومواقفه ودمه المسفوح ولم يسع لطلب الثأر. بل الأدهى من ذلك لقد اتخذ في كثير من المرات من والده موضوعا للّهو والسّخرية. قال لشهرزاد ذات مرة: «سمّاني أبي يوسف ليس انتصارا لليوسفيين من جماعة صالح بن يوسف، زعيم حركة المقاومة الضديد لبورقيبة، ولكن إعجابا منه وولها بيوسف ابن يعقوب. وبتلك التسمية لم يفعل سوى أن جعلني أنغمس في أجواء الخيانة الرحبة التي تهيمن على قصة يوسف». كان عزوز عبد الناصر يستخفّه الطرب بلا حدود وهو يتلو سورة يوسف مترنما يميل رأسه ذات اليمين وذات الشمال. كان يعتبر ذاك النبي مثالا للسموّ الإنساني، شكلا ومضمونا، وأن قصّته القرآنية هي مبلغ الإعجاز اللغوي. في حين أن يوسف أستاذ اللسانيات بالجامعة يُدرّس اللغة، اقتداء بسيّد أمه سارج دي لا كروا، كان معجبا بسورة يوسف، لكن من زاوية أخرى. فهو يرى أنها أكبر درس في الأدب لصياغة عمل روائي ينتفي فيه اليقين. إن قصّة يوسف في رأيه تقوم على هتك الثقة والوفاء خلال أحداث مترعة بأجواء الريبة والاحتيال. قصة تقدّم نماذج بشرية يتداخل في مسارها الشرّ بالخير ويقحمها السرد القصصي في صميم ما هو بشري، لا ملائكي ولا شيطاني. ويختلط في الواحدة منها المذنب بالبريء والصالح بالطالح والصادق بالكاذب والطهارة بالنجاسة ونقاء السريرة بتلوث الضمائر وخبثها، حتى لا يعود القارئ، أو المؤمن، يميّز الجاني من المجني عليه. وذلك في ظنّ يوسف هو قدرالعمل

الروائي إذا استطاع أن يتمثّل عمل الله ويتمتع بمشيئة الإبداع، لتجرى الأمور بين يديه دون شفقة ولا شماتة، بحيادية وبرودة ولا مبالاة، فتتحرّك شخوص رواياته بمفردها، بلا عون ولا شفاعة، بلا صدف ولا معجزات، عزلاء إلاّ من إرادتها الذاتية لتحقيق وجودها في الواقع اللغوي. فلا يتعاطف الراوي مع أحد ولا ينصر أحدا على أحد، ليترك الأمور تجري وفق منطقها الأعمى وعشوائيتها المحكمة الحكيمة.

إن قصّة يوسف الكنعاني في نظر يوسف عبد الناصر سجلّ حيّ لمكر الحياة بالناس واللهو بمصائرهم في لا عدالة حكيمة وفاتنة.

وكان أستاذ اللسانيات يتساءل: هل من العدل أن يحلّ يوسف بعائلة يسودها الوئام والتراحم ليحدث فتنة بين الأب الشيخ وأبنائه الذكور الأحد عشر كوكبا. مال قلب الشيخ العجوز لولده الأصغر الجميل الفاتن وآثره بعاطفته وحنانه دون إخوته الآخرين، والحقّ مع الشيخ في ذلك. فمن بمقدوره من الآباء أن يصمد أمام طفل صغير، يتحرّك ويناغي ويندسّ في حضن شيخ هرم، ويذكّره بحلاوة الحياة وبصلاحيّته لها، وبأنه مازال ينجب لها البنين، والذكور منهم تحديدا. والآخرون البالغون يذكّرونه بهيئاتهم الهائلة بأن عليه أن يرحل ويترك لهم المكان. غار الأخوة وامتلأت قلوبهم بالبغض وفاضت صدورهم بالكره والمقت لمسبّب الفتنة بينهم وبين أبيهم. طلبوا رأس يوسف لاقتلاع بذور الشقاق والبغضاء التي نبتت في العائلة وبين جدران الدار اليعقوبيّة، ومعهم الحق في ذلك. تواطأ الشيخ معهم وسلّم لهم أمره وأمر طفله الصغير الجميل. هل تواطأ أم أرغم؟ القصة القرآنية

تخبرنا أنه علم بما يبيّت الإخوة لأخيهم. ولكن الأب لم يفعل شيئا عمليّا للحيلولة دون ذلك سوى الابتهال. أفلا يُعتبر بذلك شريكا لأبنائه في جريمة الإعداد لقتل يوسف؟ أنقذ يوسف وصار إلى قصر عزيز مصر فأغرمت به امرأة العزيز لما حباه الله من نعمة الجمال الخطير. لم تكن امرأة زانية ولا فاسدة، ولكن جمال يوسف تسلّط عليها ففتنها عن نفسها وأغواها وأوقع بها في مهاوي الشهوة الحرام والرذيلة، ومعها الحق. امرأة محصّنة وزوجة كبير الوزراء تتمرّغ تحت قدمي يوسف لتفوز منه بالوصال، ويوسف لا يكترث في البداية ثم يتمنّع، ولكن ما لبث أن استجاب لمراودة امرأة ساحرة لا تقاوم، ومعه الحق. رجل جميل أعزب، في ريعان الشباب واندفاعاته، يقع تحت سطوة امرأة جميلة متزوجة تندفع باتجاهه، تحاصره محاصرة فردية بالليل وبالنهار، فماذا عساه أن يفعل بعد أن قاوم وقاوم إلى أن وهن منه العزم، وإلى أن همّ بها بعد أن هُمّت به. همّ بها وهو النبيّ المتخلّق بأخلاق أنبياء الرحمان، فما بالك بإنسان عادي، لا هو بنبيّ ولا هم يفرحون ولا يحزنون. وكان من فضل الله عليه أن بقي بمستطاعه أن يرى برهان ربّه وهو في اللحظة الحرجة، اللحظة التي عادة لا يُرى فيها شيء. ثم سجن ثم خرج من السجن ليصير وزيرا لدى كبير وزراء دولة مصر القديمة. يأتي إخوته في السنوات العجاف إلى أسواق مصر للتبضّع، فيكيد لهم يوسف وهو النبيّ، ويعمل على تحميلهم جرما لم يقترفوه، وله الحقّ في الثأر. دسّ لهم مكاييل السوق في بضاعتهم واعتبرهم لصوصا فاحتجز منهم عددا، وترك الباقين يعودون إلى والدهم الشيخ ومعهم ثوب يوسف ليلقوه

على وجه أبيهم، فيسترجع بصره الذي فقده بكاء على ضياع ابنه الصغير الحبيب يوسف!

كان يوسف عبد الناصر يقول: « ثم هناك بعض التفاصيل الأخرى تؤكّد كلّها على المعنى العميق للخيانة بصفتها المحرّك الأساسي للوجود البشري». ويضيف: «هل يمكن لواحد يتسمّى باسم يوسف ولا تلحقه منه بعض صفاته؟ فان لم تكن صفة الجمال أو النبوّة فلا أقل من الفتنة التي هي بذرة الجمال والنبوّة وجميع الخيانات. أن يُفتن المرء عن نفسه. أن يَنسى أكثر ممّا ينبغي. أن يتغيّر. أن يعمل على تغيير الآخرين. أن يتذكّر أكثر من اللّزوم. أن يتيه تيها شديدا. أن يستقرّ استقرار الذهول والتلاشي. أن ينهض المرء طفلا في الصباح ويعود شيخا في المساء لينام نومه الأبدي، ويجد أن الذي يفيق عوضا عنه، صباح اليوم التالي، ابنه أو حفيده. أن تنبت له رغبة جيّاشة. أن يقتطع تذكرة سيارة أجرة فلا تقف به إلا في أوّل محطّة في الآخرة. أن يصاب بالملل. أن تكون به محنة. أن يرزق ولدا عوضا عن بنت. أن يغسل وجهه بالماء وهو يعتقد أنه بصدد غسل وجه زميلته في العمل أو جارته في السكن. أن يقتل أحد الناس ليتقرّب به من الله... كل ذلك وغيره من تلاوين الخيانة المقدّسة، التي يتوجب إجادة اقترافها حتى تسعد بنا الحياة ونسعد بالحياة.

كانت شهرزاد تعلم أن مخطّط يوسف في سرد حكاية أطفال بورقيبة هو على غرار أسلوب سورة يوسف. كل شيء يتحرّك من المركز ومن الأطراف، يتقدّم وينقلب على عقبه، يتدافع من هنا وهناك ولا يستتبّ على حال، وذلك من أجل إعلاء شأن أبناء آدم جميعا، عيال الله، وتخليد ذكرهم في العالمين، ولتحقيق ذلك كله تهون جميع الخيانات.

ليلة البذاءة

ذكر يوسف عبد الناصر لزوجته شهرزاد أن العشاء الذي ضمّ الفتاة زبيدة والصحفي المتربّص عبّاس والكاتب المعروف هلال الأحد كان عشاء خيانة، لذلك فإن هلال الأحد عندما شرع ينظّر للخيانة بقوله: «نخون أو لا نكون» فقد كان يزرع بذور الخيانة في حقل هذا اللّقاء الثلاثي الغريب.

طلبت الفتاة زبيدة مشروبا غازيا مع صحن سباجيتي. (كم حصلت من خيانات للسلوك الغذائي لهؤلاء القوم كما لاحظ يوسف). أما هلال وعبّاس فبدآ يعاقران الخمر، كعادة أهل الثقافة المعاصرين، خصوصا منهم الكتّاب والشعراء والفنّانين. ظلّت زبيدة تلتهم ما في صحنها وهي تتابع، باهتمام غير معلن، هذين الرّجلين اللذين توحّد بينهما الذكورة ويفرّق بينهما العمر، ويتجلّى ذلك في كلّ التفاصيل التي تحفّ بهما. كان هلال يشرب بتأنٍ وفتور جرعات صغيرة. يبقي الكأس في يده حتّى يفرغ، ولا يكاد يتذوّق شيئا من الطّعام. في حين كان عبّاس يعبّ الكأس جرعة واحدة، ويحرّك يديه وفمه ورأسه باستمرار في كل

الاتجاهات.

لاحظت زبيدة أن هلال يتعمّد إظهار اللامبالاة بوجودها. خمّنت أن طريقته مفتعلة، ممّا يوحي بأنه يهتمّ بها بطريقة فائقة، ولأن ذلك حاله، فهو يريد أن يخفيه حتى لا يفتضح. لاحظت أن حديث هلال غير مركّز ويعتريه بعض الشرود. وشاءت أن تخزه بقولها:

روايتك «بحار الكائن الخائن» عديمة الحياء وفاحشة. إنك تتعمّد إيذاء القرّاء بألفاظ جنسيّة بذيئة؟

شفط هلال جرعة من كأسه. تطلّع إلى زبيدة. أبقى بصره معلّقا عليها لحظة. كانت نظرته متلاشية وآتية من بعيد. كأن صاحبها ليس هنا ويقيم في الفراغ. تكلّم هلال بصوت كأنه يبعثه عن طريق البريد البرقي من إقامته النائية. قال:

عديمة الحياء! (صمت) ربّما! (صمت) ولكن الله لم يستحي عندما خلق الأعضاء التناسليّة للرّجال والنساء (صمت) هل في صنيعه عدم الحياء؟ (صمت) ثم جعل لذّة الرجال في فروج النساء (صمت) ولذّة النساء في أيور الرّجال (صمت) فكيف نستحي نحن البشر من تسمية شيء خلقه الله؟

قال تلك الكلمات المتقطّعة وصمت أكثر. فكّر خلال هنيهة أن عليه أن يمنح الفتاة برهانا ملموسا على بذاءته. رغب في أن يجسّم لها بالبيّنة والدّليل ما يصدّق ملاحظتها. شاء أن يكرّر لها عبارة جاءت عن لسان إحدى شخصيّات روايته. العبارة التي ألبّت عليه الوسط الثقافي، وجعلت زملاءه الكتاب المداهنين يحتجّون بأن تلك العبارات تبرهن

على سقوط أخلاقي وتنافي مع الأدب، حتى أن الواحد منهم يستحيل عليه أن يترك تلك الرواية سائبة في البيت خشية وقوعها بين أيدي البنات أو الأولاد فتصيبهم قذارة الفحش. قال لهم هلال: «وكيف تفعلون مع أولادكم، خصوصا بناتكم، عندما تتركوهن منفردات مع الفضائيّات التلفزيونية حيث كل شيء بالمكشوف وبذيء حقّا!» وأضاف: «إنكم والله أقبح من سلطاتكم وأشدّ محافظة وقمعا». قال هلال لزبيدة مردّدا عبارة روايته:

قال البطل الثالث لجارته في رواية «بحّار الكائن الخائن» لإغاظتها: «ربّ الربوب خالق النساء بلا نبوب»، هل كان في ذلك فحش وبذاءة؟ ألم يكن ينطق بالحقيقة بما يتناسب مع مستواه اللّغوي، هذا مع أني أبدلت الزاي نونا في كلمة نبوب... أنظري الآن. إذا حوّلنا تلك العبارة إلى الفصحى فستكون: «رب الأرباب خلق النساء بلا قضبان أو بلا أيور»، وهنا فإن العبارة تفقد إيقاعها الذي يمنحها شحنتها التمجيديّة للربّ. المخلوقات تهلّل لربّها وتشكره بطريقتها، وإذا حرّفنا كلامها وجعلناه قاموسيّا ونحويّا فإنّنا نضرّ به ونهلك روحه ومعناه الذي في مبناه. هل علينا مثلا أن نرغم الحمار أو العصفور على تمجيد ربّه والتسبيح له بلغة الفقهاء الفصيحة، أم ماذا؟

كان عبّاس ملقيا سمعه إلى الحديث. اعتبر ما تفوّه به هلال الأحد اعتداء لفظيا ينال من صديقته، ولكنه لم يتمالك نفسه عن الابتسام من مسألة تسمية الأعضاء التناسليّة الجنسية، في حين أن زبيدة تشنّجت وهي تستمع إلى قول هلال وحاولت أن تتصدّى له:

حرام عليك! إني في عمر ابنتك! إنني في عمر ابنتك، بل في عمر حفيدتك! كيف تسمح لنفسك بتوجيه كلام لي على هذه الدرجة من الدعارة والقبح؟

اهدئي يا صغيرتي! ذلك كلام شريف وفاضل مقارنة بما تقترحه علينا الحياة من قبح ودعارة. يمكن أن يكون ذلك الكلام منحطّا إذا تنكّر الإنسان لنفسه وجسده ما ظهر منه وما خفي. اهدئي! أنا لست من أنصار البذاءة إطلاقا، ولكنّي لا أرغب في أن أكون مخدوعا ولا أن أمارس الخدع اللغويّة. هذا كل ما في الأمر...

قال هلال ذلك وفكّر في أنّه غير مقتنع بما يقول. إن اللّغة هي

خدعة كبيرة لا يمكن أن ينجو من فخاخها الأخطبوطية أحد، كائنا من كان. وبما أن هذين الشابين اللذين في مواجهته لا يدركان بَعْدُ حياة اللّغة وخداعها فليستعملا اللّغة مثلما يشاءَ ولتطاوعهما أو تنفلت منهما بالقدر الذي تشاء.

كانت زبيدة تبحلق في انزعاج. خشي عباس أن تفسد الجلسة بمثل هذه الملاسنات التي يعتبرها بلا معنى وخارجة عن الموضوع. سارع يقول: «اتركونا من الأدب ومن قلّة الأدب! لنتحدّث في مسائل أخرى أحسن!». أما هلال، وبحكم خبرته الطويلة بالناس والنساء والجلسات، فكان يُدرك أن هذه الفتاة الشابة هي بصدد القيام بقمع دعارة عظمى داخلها، وهي تجاهد لتتستّر على فحش نفسها بإبداء الامتعاض من الفحش. وَرَدَ على ذهن هلال قول الجاحظ: «بعض النّاس إذا انتهى إلى ذِكر الحِرّ والأير والنّيك ارتدعَ، وأظهر التقزّز،

واستعمل باب التورّع. وأكثر من تجده كذلك فإنما هو رجل ليس معه من العفاف والكرم، والنبل والوقار، إلاّ بقدر هذا الشكل من التصنّع. ولم يكشف قطّ صاحب رياء ونفاق إلاّ عن لؤم مستكمل، ونذالة متمكّنة». لا بأس قال في نفسه «هي التي تحرّكت باتجاهي من موضع غير صحيح، أو لعلّها تحرّكت من الموضع الصحيح وأنا لا أدري!». استأنف هلال الكلام بنبرة متودّدة وهو ينظر إلى الشفة العليا لزبيدة. رأى أنها شفة منقوصة، نوعا ما، ومشدودة إلى أنفها، بما يضفي على وجه الفتاة ابتسامة معلّقة ومؤجّلة دوما، وتخيّل أن هذه الفتاة ستعيش عمرها كلّه بهذه الابتسامة المؤجّلة. إنه مظهر مسلّ لا محالة. قال هلال:

هيّا! هل تلطّفت بمشاركتنا الشراب الطيّب؟ إنه لا يليق بالشعراء والشاعرات أن يعبّوا المشروبات الغازيّة. ذلك يصيب معدات قصائدهم بالرّيح ويجعلها تطلق غازات كريهة الرائحة!

أنا لا أشرب الخمر!.. قالت ذلك بحزم وأضافت: هل عليّ أن أكون سكّيرة لأكون شاعرة؟!

طبعا! وهل في ذلك شكّ؟ لا خيار لك! إن أردت الشعر فليس أمامك سوى طريق واحد وحيد: السّكر!

لا، لا هذا كلام غير معقول!

ولكن لا بديل عنه! هل الشعر شيء معقول؟ اسمعي، يا صغيرتي، السّكر لا يتم فقط بشرب الخمر. مسالك السّكر عديدة ولكن جوهرها واحد وكذلك نتائجها. لعلّ الخمر هو أقل تلك المسالك وعورة. المفيد أن تبلغي حالة من الترنّح واللاتوازن مع الوجود حتى يعطيك القليل

من شعره. الشعر لا يكون مع التماسك والاستقامة والقناعة. خذي رابعة العدويّة مثلا، وهي الناسكة الزاهدة والعاشقة الكبيرة لمعبودها، تلك المرأة التي أعدمت في القرن الرابع الهجري لتجديفها وهرطقتها، كانت سكرانة تماما بخمر معشوقها وبهائه، ومن فرط ما تعتعها السكر كتبت الشعر. هل فهمت شيئا مما أقول؟ لا يهمّ! هيّا جرّبي تذوّق الشراب ثم بعد ذلك اتخذي أي موقف تشائين!

قال هلال الأحد ذلك وسارع بتناول قارورة الخمر وسكب كأسا متلألئة وقدّمها إلى زبيدة تحت أنظار عباس. لم يخطر لعباس أن يدعو صديقته إلى الشراب معه! معرفته بها لم تكن وطيدة ولا طويلة. لا يعرف، تمام المعرفة، شخصيّتها وسلوكها وطريقة ردود فعلها. هذه أوّل ليلة يتعشّى معها، وأوّل مرّة يشرب الخمر في حضورها. إنه يعدّ نفسه في المرحلة الأولى من التعرّف عليها. التقى بها قبل شهرين في ندوة أدبيّة بدار الثقافة ابن خلدون بالعاصمة تونس. كانت برفقة شاعر عراقي كبير يقوم بزيارة البلاد. استضافت ذلك الشاعر على الغداء في مناسبتين في منزل والديها بمدينة السلالة، وغدت تصاحبه في جولاته ولقاءاته. كانت معجبة كثيرا بشعر ذلك العراقي وتطمح أن يكتب لها مقدمة ديوانها الأوّل. كان العراقي يجاملها ويعلن لها أنها شاعرة واعدة، تَعدُ بالشعر وبغير الشعر!. إثر تلك الندوة التي حضرها عبّاس من أجل الكتابة عنها في جريدته فاز بموعد مع الشاعر العراقي لإجراء حوار معه. من الغد، عندما وصل عباس إلى النزل الذي يقيم به الشاعر لقيه في قاعة الاستقبال الصغيرة ومعه زبيدة يجلسان على انفراد. كانت زبيدة

منفعلة تتكلّم بصوت مرتفع ولم تنتبه، لا هي ولا الشاعر العراقي، لحضور عباس المتلصّص الذي يتمتّع بسلوك مخبر. التصق عبّاس قرب باب قاعة الاستقبال حاجبا نفسه عنهما علّه يعلم سبب هذا الموقف الغريب، الذي تقوم فيه زبيدة بتوبيخ شاعرها المحبوب بصوت مرتفع. سمع عباس زبيدة تقول بلوعة للشاعر:

لا يحق لك ذلك. سببت لنا فضيحة!!

أنت تهوّلين الأمر، وكذلك أمّك!

أدخلتك بيتنا فلم تراع حرمة البيت ولا الماء والملح الذي اقتسمتهما مع العائلة وراودت والدتي عن نفسها بالتليفون وكان أبي يتصنّت. لقد هدّد بقتلك! لو لم تكن ضيفا من بلاد عربيّة عزيزة على قلبه لقام بقتلك. صدّقني، بلدك وحده شفع لك. صدّقني!

لم أكن أراودها. كنت أشكرها!

أبي كانت لديه سمّاعة. وعندما كنت تخاطب أمّي على الهاتف سمعك وأنت تقول لها: «جمالكِ يتطلّب شاعرا ليخلّده». ثم أبديت لها شوقا ورغبة للقيام بهذه المهمّة وطلبت منها موعدا. أن تخصّص لك بعض الوقت حتى تستوعب مواطن الجمال فيها... هذا غير معقول!! إنها مراودة معلنة وصريحة منك جعلت أبي يهتاج كثيرا ويخاصم والدتي ويأمرني بقطع علاقتي بك. أن لا أقابلك مرة أخرى مطلقا. بل هو منعني من كتابة الشعر وذكره في البيت وخارج البيت!

ولكن والدتك جميلة حقا! لقد أبديت لها إعجابي، هذا كل ما في الأمر، ومازلت أنوي تخليدها في قصيدة! تمنيت أن يكون أمامي متّسع

من الوقت لأتعرّف على منابع الجمال فيها. إن جمالها ليس فقط جسديا، ولكنّه ينبع من جهات أخرى، خارج الجسد، وعلى ذلك فهو مرئي وغير مرئي. أمّك درّة من الدرر، وحرام أن تندثر تلك الدرة الربّانيّة بين أربعة جدران مغلقة مثلها مثل آلاف الدّرر التي تقبع وراء الجدران لتقبر هناك للأبد، إنه مصير غير عادل، فيه ظلم وقسوة وإهدار للإبداع الربّاني. هذا ليس عدلا!

ثمّ أضاف على سبيل تهدئة خاطر زبيدة:

يكفي أنها أنجبت شاعرة عظيمة مثلك لتحوز على اهتمامي. أنا مغرم بالأصول التي أنجبت لنا الفروع. أمك شاعرة كبيرة وإلاّ ما اقترحت علينا هذه القصيدة الرائعة التي اسمها زبيدة!

شاعرة أم غير شاعرة لا يهمّ! المهم أنّك ألحقت بها وبي عذابا، يعلم الله كم من الوقت سنظلّ نعانيه حتى ينسى والدي هذه الحكاية المؤذية التي أنت سببها. حرام عليك. أنا أعطيتك رقم هاتف منزلنا لتتصل بي لا بأمّي!

لا تكوني لجوجة إذن! فسّرت لك الأمر وانتهى الموضوع. ليس بهذه الطريقة في التفكير نصبح شعراء! إنك تحاجّين بطريقة أخلاقيّة مبالغ فيها. الشعراء لا يحاجّون. إنهم يتطرّفون ويحبّون فقط. ذلك هو دورهم في الحياة...

كان عراكا لغويّا وأخلاقيّا يفتقد إلى الندّيّة. احتفظت منه زبيدة بعبارة الشاعر العراقي: «الشعراء لا يحاجّون، إنهم يتطرّفون ويحبّون فحسب!».

وهاهو هلال الأحد يقترح عليها مهمّة أخرى للشعراء: «السّكر». وهي مهمّة رأتها في تلك اللّحظة غير عسيرة، بل سخيفة، سخف كبار الكتّاب والشعراء حين نلتقي بهم وجها لوجه. مدّت يدها لتأخذ الكأس من عند هلال. لامست أصابعها أصابعه. تقزّزت قليلا من تلك الملامسة. وضعت الكأس أمامها دون أن تتذوّقه. سارع هلال بتشجيعها: «هيّا اشربي!». وضعت الكأس بين شفتها وتلمظت منه قليلا. قطّبت حاجبيها باشمئزار وقالت وهي تعيد الكأس على الطاولة وتغمغم بامتعاض: «انه شديد المرارة وكريه الرائحة! كيف تشربون هذا الشيء الذي لا يطاق؟!»

نعم انه مرّ وكريه إذا ارتشفناه بتلمظ كما نرتشف الشاي! ولكنّه حلو وعطر إذا عببناه في الحلق دفعة واحدة. وقتها يفعل بنا فعله العظيم. دائما تتخلّق الحلاوة من المرارة، إذا عرفنا كيف نتصرّف مع الأشياء المرّة والكريهة بابتلاعها ودفنها في عتمة الجوف، لا بالتأنّي معها والغرق فيها!

لا حاجة لي بهذه الطقوس و لا بهذه الشعوذة!

مثلما تشائين. خذي راحتك.

قال ذلك واستأذن الشابين للذهاب إلى التواليت. لقد صار هلال رجلا هرما ومثانته لا تقوى على الاحتفاظ طويلا بالسوائل رغم أنّه لم يشرب شيئا يذكر. حين عاد بعد برهة من الوقت وهو يغربل في مشيته وجد الشابين متلاصقين يميلان برأسيهما الواحد باتجاه الآخر ويضحكان. كانا سعيدين ومنسجمين وفائقي الحسن. ذلك المشهد الجميل، الذي يفيض عذوبة ويجلّله التوافق والانصهار، أطرب هلال

ووجده خلاّبا بصورة فائقة. تذكّر ما قاله كاتب يوناني: « وحده الذي يتخلّص من جحيم ذاته هو الذي يشعر بالجوع حين يرى أحد أبناء جنسه يتضوّر جوعا. ويقف فرحا حين يرى امرأة ورجلا من عشيرته يتبادلان الحب!». ولكن هلال يقفز فرحا سواء كانت المرأة والرجل من عشيرته أم من غير عشيرته، انه يمقت عنصرية بعض كتاب الغرب اللّذين لم يقدر الكثير منهم على التخلّص من جحيم مركزيّة ذواتهم!.

ابتسم هلال ابتسامة عريضة قنوعا وهو يتّخذ مجلسه مجدّدا إلى الطّاولة متجنّبا إزعاج الشابين اللّذين لاحا له في تقاربهما وعناقهما الخفيف يمثّلان الإنسان الكامل قبل أن ينشطر إلى ذكر وأنثى ليظلّ يعيش محنة وجوده المشطور نصفين شقيّين موزّعين بين جنسي الذكورة والأنوثة. إنه معهما يشعر بالامتنان ولا يطلب شيئا آخر أكثر من هذا. أن يكون رفقة شابين رائعين يتوادّان على طاولته وهو ثالثهما. شريك في المشهد العام، حتى إن كان ذلك بصورة غير فعليّة وبعيدة عن الواجهة. يكفيه ما أخذ من الدنيا التي طالما أوكلت له أدوارا أولى في مثل هذه المشاهد الناعمة، التي تعقبها مسارّات شبابيّة كثيرة. الآن يحقّ له أن يتّخذ مقعده في صفوف المتفرّجين. مقعد قاس وغير مريح بالمرّة، ولكن عليه أن يتسلّى عنه، أن لا يعير اهتماما للأمر، وأن يستغرق مع المستغرقين حتى لكأنه منهما، يتشبّث بتلابيبهما ولا ينفصل عنهما، وتصله بين الحين والآخر قطرات بهيجة من ندى فعليهما.

عندما أخذ هلال مجلسه والتفت إلى صحنه ليلتقط منه قطعة لحم انتبه إلى أن كأس الفتاة قد أفرغ. أدرك أن زبيدة هي التي شربته وقد

خلّف لمعانا في عينيها. كانت منشرحة وهي تسأل صديقها عبّاس:

أعد لي كيف تسمّي الرقص؟ تسميتك عجيبة والله!

تستك، تستك. أنا من هواة التستك! كل نهاية أسبوع أروح إلى مدينة الحمامات وأمارس التستك. اشتغلت أربع سنوات نادلا في فنادق مدينة الحمامات خلال فصل الصيف، في العطل المدرسية. إنه عمل ممتع ينتهي كل ليلة في المراقص برفقة الحسان الشقراوات من أهل أوروبا. أعتقد أن جمالهنّ ورشاقتهنّ يعودان إلى ممارستهنّ الرّقص منذ مولدهنّ. إنهنّ من أحسن خلق الله. مرحات ومنطلقات وبدون عقد. شعوب ترقص هي شعوب تعيش وتستمتع بالحياة جدّا. فتيات وكهلات وعجائز يعشن كلّهن شبابا دائما بتوثّب واندفاع ومتعة كاملة. إنهنّ يقدّرن الحياة حقّ قدرها. عمل وكفاح وتحصيل طيلة السنة، ورقص وغناء وشراب زمن العطل، خصوصا في فصل الصيف. أنا كنت محظوظا. والدي، رحمه الله، كان إنسانا خارقا للعادة منفتّحا وعصريّا، شربت معه البيرّة وعمري لا يتجاوز الخمسة عشر سنة. سافرت معه إلى باريس. كان مدعوّا من قبل الإدارة المركزية لشركة السيّارات التي يشتغل أجيرا في فرعها بتونس. دخلنا ذات مرّة مقهى في الدائرة التاسعة. طلب هو بيرّة وأنا طلبت قازوزة. لم يكن في المطعم لا قازوزة ولا عصير. كان ثمّة القهوة والبيرة. لم أتردّد وطلبت بيرة. ابتسم أبي المسلم والذي لم يكن متديّنا صارم التديّن وقال لي: «طلبتها وحدك فتحمّل مسؤوليّتك». شربنا مع بعضنا في ذلك اليوم ثماني بيرات. منذ ذلك الحين زاد حبّي له وأصبحنا أصدقاء.

أبوك كان مثقّفا؟ سألت زبيدة.

لم يكن مثقّفا! كان إنسانا عاديّا ولكنه خارق للعادة. كان يعشق الحياة وطيّباتها بقوّة. إنه من الجنوب. نزح إلى العاصمة منذ طفولته وترقّى بمجهوده الذاتيّ في العمل. كان شعاره الوحيد في الحياة: «شيخ في دين أمّ الدنيا». يوم وفاته قبل تخرّجي بحوالي سنة كدت أفقد عقلي. حصل لي انهيار عصبي نقلت على إثره للمستشفى. بقيت طريح الفراش أصارع المرض لمدّة نصف شهر. مات في اللّحظة التي كنت فيها محتاجا إليه احتياجا شديدا. كان أبي وصديقي.

دائما تحدث الأمور على هذا النحو، تدخّل هلال مقاطعا، حسنا فعل والدك بموته لحظة احتياجك الشديد إليه!

ماذا تقول!؟

ما سمعته.

ولكن لماذا؟، سأل عباس متفاجئا وبمزيد الاستغراب.

حتى لا تَفسد عاطفيّا ووجوديّا.

لم أفهم!

كان على والدك أن يخونك بموته لكي لا تبقى عالة عليه. لتنضج وحدك يا بني! لقد كنت متعلّقا به كثيرا وذلك كان سيعوق نموّك العاطفي والوجودي. اسمع، على الآباء أن يموتوا ليفسحوا المجال لأبنائهم حتّى يحقّقوا أنفسهم. والد يوسف، فقط، لم يكن يتعيّن عليه أن يموت لأنه لم يتمّ مهمته. سأروي ذلك، فيما بعد، لزبيدة.

ماذا ستروي لي؟!

فيما بعد... فيما بعد ستعرفين ذلك. كل شيء بأوان!

أوان ماذا، عمّ تتحدّث؟

لا تكوني عجولا!

قل لي الآن حالا.

الآن لا أقول شيئا! الآن، يوسف عبد الناصر هو الذي يحكي لشهرزاد عن قصّتنا. وسنغافله بين اللحظة والأخرى لنحكي بدورنا قصّته، مثلما فعلنا منذ حين دون أن تدري أنت بالأمر. هو يقصّ عنّا لشهرزاد. وأنا أقصّ عنهما لزبيدة. فلا تكوني عجولا إذن!!

تدخّل عباس، وهو في غفلة عن الأمر كلّه، كان يحتجّ على هلال، وكأن لهلال صفة تمثيل الموت:

أبي لم يكن مثل الآباء الآخرين. كان شخصا نادرا. كان أكثر من أب! كان صديقي الحبيب الذي لم أظفر بعده بصديق حبيب في مقامه!

تلك خطورة مضاعفة! لو بقي حيّا لكان حطّم حياتك والتهم عمرك لأنك ستكون مجرّد ظلّ له ولا شيئا آخر. والظلّ ينتفي بانتفاء عنصره. أب وصديق... يا للكارثة! معنى ذلك أنه كان يمارس عليك هيمنة مضاعفة تقتل جميع قدراتك. أب وصديق! الواحد منّا يحتمل بالكاد أباه، ويحتمل بصعوبة أصدقاءه. فكيف إذا توحّد الأب والصديق في شخص واحد؟ عندئذ سيشفطان كلّ الأكسجين المحيط بنا...

ليلة اللّقيط والنّذل

مرّ على يوسف نحو نصف الساعة وهو جاث على ركبتيه، مستند بمرفقيه على سرير شهرزاد. كانت شهرزاد قاعدة في صمت وشموخ الأوابد. ساكنة كلها، سكون أبي الهول، وسط هذه الغرفة المشبعة بالأنفاس ورائحة اللّحم البشري الحيّ، خافتة الإضاءة، والشحوب يحيط بالمكان كلّه. كان يوسف يشعر أن كلامه مكشوف من قبل أناس آخرين غير شهرزاد، وأنه يتعرّض للتلصّص من طرف جهة لا يعلمها، وإن كانت هي تعلم عنه الكثير، رغما عنه. جهة تستبيح أسراره وتلقي به عاريا للعيون النهمة والأسماع اللاّقطة والألسن النّمامة. التفت يوسف يمينا وشمالا. قال وهو يتنحنح ويدفع بالحكاية إلى تعرّجات أخرى لا يعلم إلى أين ستفضي به:

عندما تحدّث هلال في المطعم عن ضرورة موت والد عبّاس لم يكن يحاول أن يقنع الشاب بكلامه بقدر ما كان يعمل على إقناع نفسه. إن هلال الأحد مقبل غدا على الستين من عمره، ورغم تلك السنوات الطويلة التي عاشها فان مسألة الأبوّة لديه مازالت محلّ التباس.

كان يشعر باستمرار أنّه طفل. طفل لبورقيبة، آه بورقيبة! لأب غير محدّد لأنه أبو الجميع. الذين لا آباء لهم والذين لهم آباء. كلّهم تقريبا أطفال بورقيبة! كان الزعيم فعلا لا رمزا! أن يحيا ذلك الأب أو أن يموت فليس للأمر تأثير على عواطف الأفراد، وإنما تأثيره في سجلاّت الولادات والوفيّات، وهو متروك لعناية البلديّة وضابط تقييد النفوس فيها! فبورقيبة في منأى عن الموت مادام له أطفال كثر ينتمون إليه!

علم هلال بنسبه البورقيبي، وأنه من أطفاله، عندما صار شابا في العشرين من عمره. كان ذلك عن طريق « سالم النذل» الأخ غير الشقيق لسي صالح. منذ وعى هلال الوجود على هذه الأرض وفتح عينيه على الدنيا وجد نفسه يعيش في كفالة أب وأم رائعين أغدقا عليه الحبّ والحنان بلا حدود، حقّا بلا حدود. أبوه سي صالح وأمّه الحاجّة دليلة. كان هلال وحيد أبويه وهو درّة وجودهما ومركز الحياة عندهما. حين مات سي صالح جاء أخوه غير الشقيق سالم النذل مطالبا بنصيبه في ميراث أخيه المتوفّي. كان سالم شخصا سكيرا وكريها يعيش متشرّدا وينام حيثما اتفق. دمّره الشراب والقمار وخرّبا بيته وفصلاه عن أبنائه وزوجته. طيلة الأربع والعشرين ساعة في اليوم وعلى مدار العام، بما في ذلك شهر رمضان، وهو سكران. يسكر بالخمر الرخيص ويسكر بكحول الاشتعال ويسكر بمحلول العطور الشعبي، ويسوّل له السّكر اقتراف جميع أنواع الموبقات والحماقات التي لا تخطر على بال الإنس والجان والشياطين. كان سالم ذاك أسوا شخص يمكن مصادفته، فهو لا يتورّع عن القيام بأي عمل شائن للوصول إلى أغراضه الدنيئة. وبثمن

قارورة خمر يقبل أن ينتهك عرضه، إن كان له عِرض! لقد كان مأبونا يمارس اللّواط سلبا وإيجابا، وكان قوّادا على ابنته الصغرى. استوى عنده الحال وانتفت من وجوده معاني الخسّة والرفعة. لكنه في حياة سي صالح لم يكن يجرؤ على الاقتراب من البيت. كان سي صالح رئيس مركز للحرس، وكان مرهوب الجانب. كم من مرّة جلب أعوانه سالم النذل إلى المركز، بأمر من سي صالح، ليقوموا بجلده وضربه حتى يفقد وعيه وينخلع بدنه، وذلك جرّاء فعلة قبيحة من أفعاله الساقطة المتمادية. كان الجميع يطلقون عليه تسمية سالم النذل بسبب نذالته المعلنة التي يتفنّن في مزاولتها ويتباهى بمنجزاتها.

عندما علم النذل بموت أخيه غير الشقيق، قبل انقضاء أربعينية المتوفي، هرول باتجاه دار سي صالح. فتح له هلال الباب. أطلّ بوجهه المندوب وفمه الأدرد وعينيه الجاحظتين المحمرّتين الخبيثتين وجبهته الماكرة، تسبقه رائحته العطنة، رائحة مبولة خمّارة.

بقي في فتحة الباب لا يبرحها، وشرع يبحلق في هلال، دون أن ينبس بكلمة. في البداية ظنّ هلال أن أخا والده غير الشقيق ألّمت به صحوة ما فجاء للتعزية. عزم هلال على أن لا يعامله بجفاء وأن يتلطّف معه. بقي هلال واقفا قبالة سالم النذل وهو يترقّب أن ينطق بكلمات التعزية. خيّل إليه أن أخ أبيه واقع تحت تأثير صدمة الفقد، وأنه لا يعثر على الكلمات المناسبة، فوسّع له في فتحة الباب ودعاه للدخول. تردّد قليلا ثم دخل. عندما صار سالم النذل في ممشى الحديقة خاطبه هلال: «تفضّل!» فأجاب سالم النذل بصوته المتلجلج الذي يكاد ينخلع به فمه

عند الكلام:

هذه دار أخي سيدي صالح، لقد مات الآن. إذن صارت الدار لي!.. سأبيعها وأنقد زوجته ثُمْن السّعر نصيبها من الميراث، على شرع ربّي والنبي! وأنت، يا ولد الناس، لا مكان لك هنا بعد اليوم! لا حق لك في شيء...

ماذا تقول؟!

أقول ما سمعته منّي بالضبط... انتهت السّكرة وحضر الدائنون! يتوجّب عليك أن تفيق على روحك يا ابن الناس! يا مرحوم الوالدين! حان الوقت لتعلم أنّك لست منّا ولسنا منك. أنت من أطفال بورقيبة، هل تسمعني؟ من أطفال بورقيبة... أي نعم، أطفال بورقيبة! كبّول يعني، ملقوط يعني! سيدي صالح، عليه رحمة الله، وللاّ دليلة زوجته، عاقران، لم ينجبا أحدا في حياتهما، والحمد لله! هل تسمعني؟ أقول لم ينجبا أحدا أبدا.

همّ هلال بصفع النذل على وجهه، لكن يده خبطت على صدر هذا الذي صار غريمه في الحال، بعدما كان عمّه المشبوه المقرف. كمّش هلال بيديه قبضة ملابس سالم النذل في موقع الصدر وصار يخضّه من هناك بعنف. كان هلال محتقنا، يغلي الدم في عروقه، وهو يشتم بألفاظ غليظة وبذيئة، لم يسبق له أن تفوّه بها طول عمره، ويشدّد قبضته على النذل ويهزّه ويدفعه في حركات عاصفة موجعة ليزهق روحه. كان سالم يسعل والزبد يتناثر من بين شدقيه وهو يتموّج حسب توتّرات يدي هلال اللّتين شحنهما الانفعال بقوّة وصلابة طارئتين وفذّتين. بين

السعلة والأخرى ينبري سالم النذل طالبا النجدة وصارخا بكل ما فيه من تشبّث بالحياة: "سيقتلني. سيقتلني يا ناس..." . على وقع الضجّة في الحديقة فزعت الحاجّة دليلة مهرولة. حين رأت المشهد ارتمت على هلال متضرّعة: "أتركه يا ولدي. سيقضي نحبه بين يديك يا ولدي... ويكون بلاءه عليك. سيّب الكلب يا ولدي..."

هو كلب وموته خير من حياته!

توصّلت الحاجّة دليلة إلى فكّ الاشتباك وبعّدت هلال عن سالم النذل. كان هلال يُرغي ويُزبد وهو يعيد على مسامعها ما تفوّه به سالم النذل، شاتما إياه بعد كل كلمة. حين استوعبت الحاجّة دليلة الموقف اعتراها شحوب ودوَار. كانت فزعة تماما. لقد تسبّب أخو زوجها غير الشقيق في كارثة أدركت أنه لا أمل في إصلاحها. ورغم ما عُرف عن الحاجّة دليلة من تحفّظ وأخلاق مهذّبة وحشمة فإنها لم تتردّد في شتم سالم النذل: "تفوه على أصلك يا منتن يا ساقط... عملت عملتك يا كلب، يا اللّي ما تحياش!"

ما عملت شيء! قلت له الحقيقة. هل كذبت؟ أنت حاجة وتعرفين ربّي فقولي له الحقيقة أنت أيضا! أليس هو من أطفال بورقيبة، لقيط أعني! آش باش نعملوا؟ هذاك ربي آش عطاه. قلت له ذلك، وقلت له أنا وحدي من يحقّ له ميراث الدار. قولي له أنت الحقيقة، قولي له أنه من أطفال بورقيبة! قولي له أن ينظر إلى وجهه في المرآة فهل تراه يتعرّف على ملامحه في واحد من عائلتنا. ها الشبوبيّة متاعو ما عندناش! ميشي متاعنا! منين جتنا نحن ها العينين الزرق؟ تبارك الله عليه ما أحلاه! ـ

قال ذلك بتغزّل واشتهاء في مفارقة لتوترات الموقف ـ

اسكت، عليك اللعنة دنيا وآخرة، سأعرف كيف أؤدّبك يا ملعون.

التفتت الحاجة دليلة إلى هلال آمرة:

اجر إلى التلفون. كلّم مركز الحرس. ليجيء الأعوان ويأخذوا هذا النذل لتأديبه! استهان بنا الكلب، بموت سي صالح خلا له الجوّ. صار يحق له أن يترامى علينا، اجر هلال، اجرِ...

عوض أن يجري هلال إلى التلفون فإن سالم النذل هو الذي قفز إلى الباب الخارجي وهو يلهث ويلمّ أطرافه. أطبق الباب الحديدي وراءه باصطفاق وتبخّر في الطّريق. لحظتها ارتمت الحاجّة دليلة على هلال تحضنه وهي تنشج وتبتهل: «لا تصدّق، يا ولدي، حرفا مما قاله ذلك الساقط... أنت تعرف أن الخمر لحس دماغه فصار يخرّف ويهذي. لا تصدّق ذلك السكّير يا ولدي هلال. أنت ولدي، أليس كذلك؟ أنت ولدي الحبيب وفلذة كبدي أليس كذلك؟! لا أمّ لك غيري يا ولدي هلال...» ولكن هلال الذي كان يقتنع، فيما مضى، بأن ملامح وجهه المختلفة عن ملامح أهله هي مسالة وحم مثلما سبق لهم أن أخبروه، صار الآن يشكّ في الأمر كلّه. يشك في وجوده برمّته. كان محتارا وشفتاه ترتجفان من شدّة الغضب حين امسك الحاجّة دليلة من كتفيها وضغط عليهما وهو يقول بصوت بين التوسّل والأمر:

عليك أن تقولي الحقيقة يا نانا. لا شيء سوى الحقيقة. وإلاّ فإنّي خارج توّا للبحث عن ذلك النذل لأقوم بقتله. هل فهمت؟ قتله. والله إن لم أسمع منك الحقيقة فاني سأرتكب جريمة. نعم جريمة، هل

فهمت؟ جريمة!

كان هلال ينادي الحاجة دليلة بـ«نانا» شأن الكثير من أولاد عائلات البلْدية، وكان يراقب تحوّل نشيجها إلى نحيب ونواح. وفي النهاية لم تتوصّل إلى تمالك نفسها فانهارت وأغمي عليها. أخذها هلال في حضنه ومدّدها على فراشها داخل غرفتها. بحث عن فاشكة ماء الزّهر في خزانة المطبخ المرفّه الواسع. رشّها على وجهها رشّات متتابعة بماء الزّهر المسكوب بين راحتيه المقوّستين. استفاقت الحاجة دليلة رويدا رويدا. تحسّنت حالتها بعد أن ارتشفت جرعات صغيرة من ذلك الماء المعطّر الذي قطّرته بنفسها في فصل الربيع حين قطاف زهور البرتقال. مرّر هلال يده اليمنى على جبهتها الحارة في حنوّ وهو يقول لها متضرّعا:

أنت أمّي الحبيبة. لا اشكّ في ذلك أبدا. ولن استبدلك بأخرى كائنا من كانت. ولكن عليك أن تروي لي حقيقة أصلي وفصلي! هل كلام النذل صحيح؟ إنه صحيح، أحدس أنه صحيح! لقد أصبحت رجلا وعليّ أن أعرف منك الحقيقة. قولي لي الحقيقة كاملة، بجاه ربّي وسيدي محرز قولي لي. إذا لم تفعلي أرتكب جريمة أو أفقد عقلي! سأفقد عقلي إذا لم تعلميني بالمسألة كما هي، أرجوك يا نانا.

عادت الحاجة دليلة إلى البكاء وهي تنهنه: "اتق الله يا ولدي، لماذا تعذّبني، لماذا؟ تلك صفحات طويت، الذي فات مات. أبوك الحقيقي هو صالح الأحد وأمّك الوحيدة في الدنيا هي أنا! أنا الحاجّة دليلة وكفى، هل فهمت؟ وكفى! الولد يا ولدي هو ابن من ربّاه وليس ابن من أنجبه".

قال هلال فورا بصوت مستسلم كله رجاء:

أعرف ذلك، قلت لك أنا أيضا ذلك، صحيح ما تقولينه. لكن أنا من أنجبني، من أنجبني قولي؟!

أخيرا أجابته وهي متداعية والكلمات تخرج من بين شفتيها، المضمومتين الجافتين، متكسّرة وملتاعة:

هذا ما لا أعرفه، لم أسع للتعرّف عليه! من ولدتك محت كل أثر يدلّ عليها. وحتى بعد أن استعمل سي صالح نفوذه الأمني الكبير للتعرّف عليها، واتصل بالمستشفى الذي ولدت فيه، لم يعثر على شيء، استُقبلتْ هناك، أقصدُ أمّك التي أنجبتك، دون أن تدلي بأية وثيقة هويّة. صرّحت بأسماء عائليّة مختلقة أو منتحلة، لا أدري، والله لا أدري! لم يعثر سي صالح، رحمه الله، على عائلة تحمل لقب الأحد في تونس كلّها! لم يعثر على شيء... أنت أبننا وكل ما تركه أبوك سي صالح من إرث هو لك وحدك، فأنت ابننا الشرعي وتنتسب إلينا وفق السجلات الرسمية، ولا يحق لأحد أن يتقاسم معك شيئا.

لم تكن تعنيه مسألة الميراث... كان هلال وهو يستمع إلى كلمات الاعتراف الرّهيبة يشعر أنه يتلاشى. يضيع. يتحوّل إلى هباء منثور. يشعر أن وجوده الملموس في سبيله إلى الاندثار أمام سمعه وبصره. ثمّة شيء يتساقط من كيانه. هو لم يعد هو! أطبق عليه إحساس قاتل بالغربة شمله من كل الجهات وتغلغل عميقا في خلايا وجوده ومسامّ جسده. غربة عن نفسه أوّلا وعن ما يحيط به. كلّ المحيط به. مُحيطُه كلّه. ظنّ أن أعضاء جسده لن تعود تستجيب له من هنا فقادما، لأنها

ليست أعضاءه هو. هي أعضاء إنسان آخر لا يعرفه. لا يعرف عنه شيئا. لا عن أصله ولا عن فصله. يده ليست يده. إن طلب منها رشّ ماء الزّهر مرّة أخرى على وجه الحاجّة دليلة فستصفعه يده على وجهه وتقتلع بأظافرها عينيه. ورأسه، إن فكّر هو في الخروج فسيفكّر رأسه في المكوث. وإن فكّر في الدراسة سيفكّر رأسه في الانتحار. وقلبه. آه قلبه! قلبه غدا يخفق في قفص من البلاستيك ويضخّ الدم في شرايين أناس آخرين ولا يسعفه بنبض واحد ولا قطرة دم. اختلطت عليه الأمور تماما. قام فورا من على السّرير دون وعي منه ومشى دون وعي. ابتسم ابتسامة صفراء شاحبة دون وعي. تقدّم ثم تأخر ثم تقدّم في اتجاه غرفة ناناته دون وعي. نزع ملابسه في الممرّ. تقدّم إلى الدّش عاريا دون وعي. راح يتلقّى الماء البارد الصقيع دون وعي. كان الطّقس أواخر الشتاء والزّمهرير يجمّد الأطراف. كان هلال ينشد الجمود. أن يتحوّل إلى كتلة من الثّلج والبرودة ليصون نفسه هناك، ليحفظ هويّته طازجة، ليحفظها في مرحلة زمن ما قبل الدّعارة والخيانة، حتّى لا تفسد وتتعفّن كليّا خلال مرحلة إعلان لقاطته.

كان متخشّبا والماء يقطر منه عندما عاد حذو الحاجّة دليلة في غرفتها وهي على السرير. كان يلتحف بمنشفتين كبيرتين من القطن الرفيع الملوّن بتصاوير الواحات والشواطىء ويمشي على بلاط الغرفة حافي القدمين. قال للحاجة دليلة وهو داخل غرفتها بصوت فيه شرود كأنما كان يكلّم به نفسه لا غيره:

لقب الأحد هو لقب جميع أفراد العائلة ـ لم يقل عائلتي كما لاحظت

الحاجّة دليلة ـ هذا اللّقب، لقب الأحد هذا! هل هو لقب منحته لي المرأة التي أنجبتني؟ من أين جاء هذا اللّقب، لماذا تتلقّبون به جميعا؟!

فكّت عقدة لسان الحاجّة دليلة. تيقّنت أنه لم يعد لها من سبيل لإخفاء شيء. حصل الذي حصل والسّلام. قالت وهي مستسلمة وصوتها متهدّج:

سي صالح، عليه رحمة الله، وجدَك وأنت رضيع لم يكتمل عامك الثاني مسجّلا باسم هلال عبد الرحيم الأحد. كان اللّقب العائلي لسي صالح وقتها هو: "الكُسْكُسْ". كان سي صالح يكره لقبه العائلي لأنه موضع تندّر من قبل رفاقه من رجال الأمن، خصوصا المشارقة منهم. أمضى سي صالح فترة تربّصه المهني الأول في مصر وكان ذلك اللّقب عند أهل مصر له معنى داعر قبيح!.. عند بداية الاستقلال أصدر الرئيس بورقيبة قرارا يسمح للناس بتغيير ألقابهم العائليّة و أسمائهم. كان ثمّة الكثير من الألقاب العائليّة القبيحة والمؤذية، وأخرى تنتقص من الكرامة البشريّة. أغلب الناس كانوا يتلقّبون كيفما اتّفق. كانت ألقابهم وقحة وموحشة مثل وجوههم. غيّرت الكثير من العائلات ألقابها واتخذت ألقابا لطيفة ومتمدّنة. كان بورقيبة يغيّر بنفسه الألقاب خصوصا ألقاب البايات والشخصيات المعروفة، وكان يرغب في إدارة شؤون شعب من ذوي الألقاب المتحضّرة والأسماء الأنيقة المهذّبة. وكان أن شرّع التبنّي بحيث يصير الولد المتبني هو ولد شرعي لأهله المتبنين. سي صالح، أبوك! رحمة الله عليه، يوم جاء بك من هناك كان مبتهجا للغاية. كان يلفّك تحت برنسه ويحضنك إلى صدره. كان عمرك

أقلّ من سنتين، ربّما سنة ونصف. كنت جميلا جمالا باهرا. جميعنا وقعنا في غرامك. أبوك ذبح ثلاثة خرفان ووزّع لحمها في زاوية سيدي محرز يوم جاء بك. فعل الشيء نفسه، رحمه الله، يوم اتخذنا لقبك. لقد كنت النور الذي نرى به الدنيا. أنت لم تكن طفلنا فقط بل صرت والدنا. والدنا جميعا. والدنا الأكبر. أنت جدّنا وخالق سلالتنا. أعجب أبوك بلقب الأحد فرفع قضيّة مدنيّة لاستبدال لقب "الكسكس" بلقب "الأحد" لجميع أفراد عائلته الواسعة. لم يكن أحد يلوي العصا في يده. بارك الجميع لقبهم الجديد الذي صاروا يتباهون به، وشكروا سي صالح على صنيعه، بما في ذلك سالم النذل الذي هو الآخر صار يسمّى سالم الأحد، وهكذا انبثقت عائلة الأحد من خلالك.

صمتت الحاجّة دليلة هنيهة ثم كرّرت منهكة:

أنت لست ابنا لنا فحسب، أنت أبونا، أبو الجميع!

افترّت شفة هلال عن طيف ابتسامة ممتعضة وهو يقول في نفسه بسخريّة ومرارة: "أبو الجميع! من هو أبو الجميع؟ كلّنا، إذن، أطفال بورقيبة! إذ صحّ أنّي أبو الجميع، فأنتم جميعا لقطاء، من أطفال بورقيبة".

ليلة الأحد والجمعة

مرّت فترة زمنيّة طويلة على هلال وهو كاره نفسه، يتخبّط في أزمة هويّته القاتلة، وبلغ به الأمر أن كره يوم الأحد كرها شديدا، واعتبر يوم الأحد شخصه وقد تجسّد في هذا اليوم من زمن الأيّام. أمضى أسابيع عديدة يسعى بعزيمة واستبسال لمحو يوم الأحد من قائمة أيام الأسبوع. يسهر ليلة السبت إلى ما قبل منتصف الليل بدقائق ثم يبلع حبّتي منوّم من النوع الثقيل ويرقد رقاد الأموات إلى فجر يوم الاثنين، وذلك حتى لا يصحو يوم الأحد ولا يعيش في نهاره أبدا. كان مخاصما لذلك اليوم ويكنّ له العداوة والبغضاء ويعمل على عدم الاعتراف به وعلى إلغائه من الوجود. كان يوم الأحد هو يوم نكبته ونكسته وتفتّت هويّته وهزيمة وجوده في هذا الزمن الجائر. ذلك اليوم البغيض كان يوم عطلة نهاية الأسبوع في بلدان المغرب العربي الثلاثة التي استعمرها الفرنسيون. وهذه الحال كان تسمح لهلال أن ينام كامل ساعات ذلك اليوم، ولكنّه حين سافر إلى المشرق، وانخرط في المقاومة الفلسطينيّة لمحاربة إسرائيل وجد أن أيام الأسبوع لها أدوار أخرى،

وأن يوم الجمعة هو في المشرق بديل يوم الأحد. الجمعة يوم العطلة. وعند الجمعة تنتهي أيام الأسبوع. تبدأ الأيام من السبت فالأحد ثم ثقل أيام الاثنين فالثلاثاء فالأربعاء فالخميس، ويكون التتويج بالجمعة. يكون الختام. الجمعة المريحة خاتمة الأيام. جمعة تفرّغ الناس لأنفسهم، واجتماعهم، وتخفّفهم من أعباء العمل ومشقّة الكدّ والبحث عن لقمة الخبز واقتراف الخبائث من أجلها، ليتفرّغوا لعبادة الله. هذا الترتيب الجديد للأيام في زمن المشرق يلغي مركزيّة يوم الأحد ويحوّله إلى يوم عادي تمّحى خصوصياته وامتيازاته، فيعود يوما من أوائل بداية أيام الأعمال الضنكة والكدّ الطويل، طولا لا أمل معه في الأفق! وذلك ما يليق بيوم الأحد الحقير. أحد الاستعمار والاستقلال وتدهور الأخلاق! أحد الشناعات والخيانات وإنجاب أطفال السِفاح! أحد مكفهرّ، رسمه هلال في ذهنه، على تلك الهيأة الفظيعة.

كان على كل مقاتل أن يتّخذ لنفسه اسما حركيّا يُعْرف به. دون طول تفكير اختار هلال الأحد اسم: «بوجمعة «. أمضى بوجمعة فترة تدريبه الأول بين وهاد الأردن وأحراشها وجبال لبنان ضمن صفوف حركة فتح من منظّمة التحرير الفلسطينيّة. لم يظهر كفاءة في تدريبات القتال. كان هشّا ويفتقد إلى العزم والصّلابة. له شخصيّة انطوائيّة تدفعه للانكفاء على نفسه وتضرِّج وجهه الصبوح بدماء الخجل. أظهر بوجمعة في المقابل قدرات وكفاءة في كتابة الرّسائل واللوائح لرفاقه. إمكانياته التحريريّة جعلت قيادة الفوج الذي يعمل به توكل له مهمّة كتابة التقارير الصّحافيّة وألحقته بقسم الإعلام. إنطوائيّته وخجله

ساعداه على التفرّغ الجزئي لمطالعة الكتب والجرائد والمجلات اللبنانية النشيطة، وكذلك التفرّغ للحياة الداخليّة الخطرة. وحده الورق كان يسمح له بأن يعيش لحظات جريئة يتدرّب فيها على تمثّل هويّته الجديدة واسمه الحركي ووجوده المقنّع، بل وجوده المستعار أيضا. ما أعسر ذلك التدريب! إنه يُدمي القلب والروح فيتشقّق الجلد الآدمي وينزف. ينزف بلا حدود.

كتب هلال في تلك الفترة لنفسه وهو ينزف: «ماذا تفعل بنا أسماؤنا؟! أليس الإنسان ضحيّة اسمه في نهاية الأمر؟ سواء بسعيه للتطابق مع ذلك الاسم/ البصمة أو لتقويض أركانه ومعناه! وما الأسماء الأضداد حينئذ سوى نزاع قاتل ينشب بين الاسم والمسمّى. النّبيل حين لا يقدّر أن يرتفع إلى مرتبة نبل اسمه بعد محاولات شاقّة، مريرة ومضنية، يغيّر وجهته نحو الدناءة والنذالة والانحدار. والحسن حين يلقى نفسه خاليا من كل أسباب الحسن، بعينين جاحظتين وجبهة متكسّرة منحدرة إلى الوراء كغوريلاّ، فإنه يعمل على تنمية حسن داخلي فيه، متحايلا بذلك على الطّبيعة ليحقّق صدق اللّغة. ليت الناس يتركون الأسماء ويتحوّلون إلى اتخاذ الأرقام للتعريف بذواتهم، مثلهم مثل السجناء والجنود، حتّى يتخفّفوا من أعباء أسمائهم ومتطلّباتها، وينقذوا أنفسهم من أسر الهويّات اللّغويّة والعرقيّة ومن عبء التراث القومي. وإذا لم يتمكّنوا من ذلك، على أفضليّته المطلقة، فلا أقل من أن يسعوا لاتخاذ أسماء مفرغة من شحناتها المعنويّة وتخلو من الأوصاف والمرجعيات وتبتعد عن النماذج التاريخيّة».

كتب هلال تلك الفقرة وتذكّر والده الذي ربّاه. كان سي صالح صالحا بالفعل. كان شخصه مساويا لاسمه. ورغم كلّ الأوقات العصيبة التي أطبقت على هلال وطمرته في مستنقع هويّته مردوما بالوحل والقذارة، فإن حبّه وعرفانه لذلك الرّجل الصالح لم يتزعزع ولم يهتزّ. كان سي صالح رئيس مركز للحرس حازما ورائعا في عمله. كان حنونا يفيض رقّة في منزله، ورغم عقمه الجنسي إلا أنه كان ممتلئا بمشاعر الأبوّة. يعرف متى يكون سخيّا ومتى يمسك يده ويتبصّر في سلوكه وكلامه. لطالما رافقه هلال إلى مركز الأمن حيث مقرّ عمله. هناك كان هلال يُستقبل بودّ عارم من قبل أعوان الحرس. كان كلّ عون يتقرّب من الولد الصغير ويتزلّف له، ويشتري له حلويّات ولعبا، علّه بذلك ينال رضا رئيس المركز. وآخرون كانوا يفعلون ذلك دون نيّة تملّق أو رياء، بل لإعجابهم الحقيق بهلال. كان كل من يرى هلال يبادر بالصّلاة على النبيّ تحصينا للولد من العين والحسد. كان هلال وسيما وجميلا جمالا لا مثيل له بين أقرانه الصبيان. في ملامحه عذوبة وصرامة وحلاوة غريبة. كان شعر رأسه فاحما وحريريّا، يتهدّل نظيفا ومنسابا على حاجبين أسودين، وبشرة مشرقة ينازع بياضها احمرارها. له أنف أشمّ وشفتان رقيقتان مقلوبتان قليلا إلى الداخل ووجنتان متورّدتان دوما. كل ذلك متوّج بجبهة يشعّ منها رونق وذوق. كان جماله يحيّر الناس، فيشكّون في نسبته إلى سي صالح. طبعا لم يكن أحد ليجرأ على إبداء ملاحظات أو تقوّل في هذا الشأن الذي يبقى لا يخصّهم في كلّ الأحوال، رغم تطفّلهم وطبعهم الفضولي الذي يجعلهم يدسّون أنوفهم

في كلّ ثقبة نتنة، ويلوكون بألسنتهم الجارحة أعراض الخلق جميعا. لكنهم مع نفوذ سي صالح وسلطته فإنهم يخرسون وأنظارهم متّجهة صوب عصا الحرس الغليظة المهيّأة دوما للعمل على تأديبهم وردع خبثهم الأصيل.

كان هلال في صباه فتى منيرا يتوهّج منه ألق نبل الأصل. كان سي صالح يحبّ صحبته، ومعه كان يشعر بالزّهو والافتخار الأبوي. لم تمّحِ من ذكريات هلال المبكرة أيام المواسم والأعياد في تلك الفترة من عمره. خصوصا أيام أعياد الأضحى التي عاشها في كنف ذلك الرّجل الصالح. كان يصطحبه معه إلى سوق الأغنام، قبل يومين فقط من حلول العيد، ويشتري الخروف الذي يختاره هلال من بين مئات الخرفان. كان تجّار الأغنام وسماسرة السوق يعملون ما في وسعهم، وبإلحاح كبير، حتّى يكون الخروف المختار على سبيل الهديّة، ليبرهنوا على احترامهم وتبجيلهم لرئيس المركز، ولكن سي صالح لم يكن يقبل ذلك أبدا. وحين تشتدّ عليه الضغوط من الفلاّحين أو السماسرة يستعمل صوته المهني الوقور الحازم، فيذعن أهل السّوق لمشيئته ويتقبّلون منه ثمن الخروف على استحياء، مبالغين في التعبير عن حرجهم من الاضطرار لتسلّم مال من رمز من الرّموز المهيبة لدولة الاستقلال. لم يكن سي صالح يسمح لهلال بملاعبة الخروف والعبث به، أو حتى تزيينه بالأشرطة البيضاء والحمراء، والتجوال به في الحومة مباهيا أنداده من أطفال الجيران على غرار ما يفعلون بخرفان عيدهم. كان سي صالح يقول أن خروف العيد مخلوق لا ينطق ولكنّه يشعر ويحسّ، فلا ينبغي أن نؤذيه، حتى لا يصاب

لحمه بمذاق السوء، وحتى لا يلتحق بربّه محمّلا بالشكوى والغضب من سلوكنا معه. إن الله جعله فداءً لنا حتّى لا يقتل الإنسان ابنه الإنسان. كان سي صالح يحرص في يوم عيد الأضحى على أداء صلاة العيد في جامع الزيتونة، بعد أن يستحمّ فجرا ويلبس كسوة مناسبة، جبّته الحرير وبرنسه وشاشيّته الحمراء. وحين يعود من الصّلاة إلى داره يغيّر كسوته الاحتفالية بأخرى بالية تصلح لمهمّة الذبح، ويقوم بنفسه بذبح الخروف وهو يردّد بصوت مشفق: «بسم الله والله أكبر. سبحان من قدّر عليك هذا وهو الباري. اللّهم تقبّل منّا هذا الخروف تزكية لنفوسنا وتطهيرا لها. اللّهم إنّا نقيم شعائرك التي قررتها لنا، فتقبّل بجاهك ضحيّة عيدنا الذي شفعت فيه لإسماعيل ولد إبراهيم. تقبّل هذه الضحيّة من عبدك صالح الأحد ولد حلّومة ومن عند زوجته دليلة بنت خديجة ومن ولدنا هلال، واشملنا جميعا اللهم، يا إلهنا، برحمتك وواسع مغفرتك، يا أرحم الرّاحمين، يا ربّ العالمين. آمين». يتسارع دعاء سي صالح ويستغرق الوقت الذي يكون فيه عاكفا على رقبة الخروف يعمل فيها السكّين، حريصا كل الحرص على أن يكون الذّبح حلالا وذلك بان يرسم هلالا بسكّينه حول رقبة الخروف، حتّى يبلغ بذؤابة السكّين أوداج الذبيحة من الجهتين، ويقطع البلعوم في الأثناء ساحبا رأس الخروف إلى الخلف حتّى تكون عقدة بلعوم الذبيحة مفصولة من الرأس لا من الرّقبة. يمسح السكّين التي تقطر دما على صوف الخروف وينتظر دقائق معدودات في انتظار أن تنهي الذبيحة خبطها وارتعاشها، لتسلّم آخر أنفاسها وتهمد.

عندها يعمد سي صالح إلى إحدى قائمتي الخروف الخلفيّتين فيشقّها عند كوعها ليحدث فيها ثقبا بين الجلد واللحم يوسّع الثقب قليلا غارزا ذبابة السكين الرفيعة إلى الفخذ محافظا على ما اقتطعه من جلدها. إذا تيقّن أن الفتحة الغائرة صارت تسمح له بالنفخ يجثو على الذبيحة ويروح ينفخ، بكلّ ما أوتي من قوّة في صدره، خلال فتحة كوع الخروف. كان يفعل ذلك بهمّة كبيرة، خشية أن يبرد جسم الذّبيحة، فيتعذّر عليها الاستجابة للنّفخ، الذي يفصل بين الجلد واللّحم ليسهل السلخ. بعد أن تنتفخ الذبيحة بالهواء تماما وتغدو مرفوعة القوائم الأربع مشدودة الجلد كطبل، يكون سي صالح وقتها مجهدا، محتقن الوجه، والعرق يقطر منه. كان يقول إن النفخ والسّلخ هما أعسر مهمّتين في ذبح الخرفان والجديان. حين ينتهي من تقطيع اللّحم وقصّ المفاصل بمهارة الجزّارين المحترفين ـ أبو سي صالح كان جزّارا وهو الذي أورث مهارة الذبح لابنه ـ يقسّم الخروف إلى قسمين، قسم للاستهلاك العائلي والآخر يتصدّق به على المحتاجين من الأهالي الذين لا ذبائح لهم في العيد. يحمل أكياس اللّحم بنفسه إلى بيوت يعرف أصحابها. سواء من مساجين الحق العام أو من غيرهم. عرف هلال فيما بعد أن الدّين الإسلامي يحض على التصدّق بربع الضحيّة للمحتاجين، ولكن سي صالح كان يضاعف الربع إلى النصف، وأحيانا أكثر من النصف. كان يقول إن الخير كثير وأفراد العائلة قليلون واللّحم لا ينقطع عن البيت، في حين أن المحرومين والمشتاقين للّحم كثر، والمناسبة توجب التضامن والتراحم.

إذا كان هلال لا ينسى مباهج أيام الأعياد الدينيّة والوطنية الحافلة باللذائذ والولائم التي أمضاها في كنف ذلك الرجل الصالح، فهو لا ينسى، بالقدر نفسه من الحنين والأسى، جولات الصيد الرّائعة التي كان سي صالح يشترك فيها مع الزوّار الفرنسيين والألمان والطليان، الذين كانوا يأتون بسياراتهم الجيب الكبيرة، التي تشقّ البراري والجبال، ليشتركوا في طلعات لصيد الأرانب البريّة والطّيور المختلفة والغزلان والثعالب والذّئاب والخنازير وكل ما يدبّ على الأرض وما يطير في السماء. كانت ترافقهم كلاب الصّيد الأنيقة، المصقولة في رشاقة وأبهة. كانت الأرض التونسيّة في بداية الاستقلال تفيض بجميع أصناف الحيوانات الصالحة للصيد، وكان سي صالح خبيرا في الصيد ويتلقّى دائما دعوات رسميّة وخاصّة لمرافقة أعضاء الوفود الغربيين المولعين بالصيد. كان يلبس مثلهم كسوة الصيد المتينة ذات اللون الأخضر الزيتوني ويظل يتنافس مع الجميع في القنص. كان ماهرا مهارة كبيرة في القنص الفضائي ونادرا ما تخطئ طلقته طائرا في الفضاء. وأما على مستوى سطح الأرض فان تسديده يتشوّش وذلك منذ حادثة إصابته لكلبه السلوقي «جيم». حينما كان الكلب يطارد أرنبا بريّا ذا لون ترابي أشخم يزوغ ويتعرّج، أطلق سي صالح طلقة خاطئة ليست في محلّها، فهو كان يعلم أن الأرنب البريّ لا يمكن أن يصطاده اثنان: كلب وصيّاد. لا بدّ من أن يضطلع بالمهمّة واحد منهما فقط في اللحظة الحاسمة، وإلاّ تكون الكارثة. كان يعلم ذلك ولكن لكل علم غفلة مهما كان الاحتياط، وذلك ما حدث لكلب سي صالح، الذي كان يحبّه

ويعتبره في مقام عون من أعوان مركز الحرس. منذ مقتل «جيم» لم يعد سي صالح يحسن القنص المنخفض، فيعمل على تحاشيه، مع أن غنائمه من الصيد لم تتضرّر بمقتل ذلك الكلب، إذ كان يعود من كلّ طلعة بصيد وفير. يملأ سلّته العسكرية المشبّكة، ذات الخيوط البلاستيكيّة الخضراء الغامقة، بأصناف الطيور ويعلّق ما تبقّى في حزامه وفي الجراب. كلّما كان صيده وفيرا كان يعزو الأمر إلى حسن طالع هلال ووجهه المبارك. لم يكن يأوي إلى فراشه ليلا لينام إلا بعد أن يوزّع غنائمه على أعوان الحرس العاملين معه وعلى بعض الجيران. لا يحتفظ في بيته إلاّ بطيور الحجل، لأنه كان يستطيب لحمها مشويّا بنار الفحم.

كان سي صالح رجلا عصريّا مؤمنا بالله إيمانا شديدا ولكنّه لم يكن متديّنا يخضع لواجبات وتعاليم الدين.

لم يكن يصلّي إلا في المناسبات. كان يقول مبتهجا: «صلاة القيّاد جمعة وأعياد». كان يحبّ وظيفته في الحرس حبّا عظيما ويعتبرها أكبر من وظيفة، بل هي واجب مقدّس يساهم به في النهوض بأحوال البلاد وحفظ أمن العباد، وفي ذلك يقتدي برئيسه فخامة المجاهد الأكبر الحبيب بورقيبة، الذي يكنّ له إعجابا شديدا، ويعتبره زعيمه الشخصي ومعلّمه وملهمه في الحياة. كان يقول أن الزّعيم حوّل البلاد كلّها إلى مدرسة كبيرة لمحو أمية الشعب من أجل تمدينه وجعله متحضرا. إن ذلك المجاهد الأكبر هو من سلالة العباقرة، تجري في عروقه دماء النبوغ، ويَندر أن يُنجب العرب شخصا مثيلا له أو ندّا. كان المجاهد الأكبر، في نظر سي صالح، يشرف بنفسه على تعليم أبناء الشعب، ويتولّى ميدانيّا مهمّة التدريس من

خلال درسه الأسبوعي في التلفزة الذي يبسط فيه للناس القضايا والمهام المطروحة على المجتمع الفتيّ الذي لم يتعوّد على الاستقلال بنفسه بعدُ. كان الزّعيم يشخّص الأمراض والعوائق ويقترح الحلول على الناس. له أسلوب فريد في التدريس العمومي لا يضاهى. أسلوب فنّي يُمسرح الكلام ويتحرّك بين المرافعة والمحاضرة والبوح الذّاتي إلى حدّ أنه لا يستنكف من التطرّق إلى خصوصياته الحميمة في سبيل إقناع الشعب. أعلن للعموم من خلال خطاب تلفزيوني من خطاباته الأسبوعية أن له خصيّة واحدة فقط، لا خصيتين مثل الأغلبية العامة للذكور، ورغم ذلك تمكّن من إنجاب ابنه الوحيد من زوجته الفرنسية، والذي سمّاه الحبيب بورقيبة الابن. قال ذلك من أجل حثّ مواطنيه التونسيين على الاقتصاد في ممارسة الجنس وإنجاب الأطفال، مبيّنا لهم أن الخصوبة لا تكمن بالضرورة في كثرة الجماع والأبناء وسلامة الجهاز التناسلي. كان سي صالح يشيد بزعيمه في مركز عمله وفي البيت وبين الناس ويُبيّن لهم أن من أفضال بورقيبة أنه فكّ قيود المرأة وحرّرها و أنقذها من الغبن والمذلّة، وعمل على مساواتها بشقيقها الرّجل، وفتح أمامها المدارس والمؤسّسات الوظائف، ورفع عنها الحجاب والسفساري لتسفر عن وجهها وذاتها ومنزلتها الكبيرة في المجتمع داعيا إلى تجاوز مفهوم العذريّة والبكارة البالي ليلة الدخلة وتحطيم عقليّة الحريم وقوامة الرجال على النساء.

يذكر هلال أن سي صالح لم يبدِ حماسا لشيء في حياته قدر حماسه لتوجيهات بورقيبة وتطلّعه نحو الارتقاء بشعبه إلى مصاف الشعوب

المتقدّمة. وقد بدا سي صالح حازما للغاية مع هلال في سنته الأولى عند التحاقه بالجامعة. نبّه عليه تنبيها لا تأويل فيه ولا شبهة وهدّده بالقطيعة: «لا أنت ابني ولا أنا أعرفك إن أنت اتّبعت شراذم المفسدين اليساريين من مروّجي الفتنة ومثيري الشغب. الغوغائيّون الديماغوجيون، أبناء الحرام، أولائك يفسدون مصيرهم ومصير البلاد فلا تقترب منهم. إنهم مجموعة من المندسّين أو البلهاء تحرّكهم وتتلاعب بهم القوى الخارجيّة التي لا تريد خيرا أبدا للبلدان النامية، وتسعى للقضاء عليها من الداخل من خلال تلك العناصر الساذجة والمؤذية التي تتفوّه بكلام لا تفقه معناه، وتعمل، أدركت ذلك أو لم تدرك، على تخريب ما بناه بورقيبة ودولة الاستقلال، بورقيبة أبوهم الذي حرّر البلاد والعباد وفتح المدارس وعلّمهم فيها، وفي المقابل يتصرف معه أبناؤه الملحدون بعقوق. إن أولئك الأولاد الأوغاد عازمون على التفريط في هذا الوطن وهذه التربة التي سقيت بدماء الشهداء والأبرار وبالنفس والنفيس بلا انتظار لأي مقابل ولا ثمن على الإطلاق. لذلك فأنا أحذّرك من الاقتراب منهم و من الاختلاط بأي واحد منهم أصلا!».

قال له مرّة أخرى، حين اشترك سي صالح في ملاحقة مجموعة اليسار الأولى وقبض على عدّة أفراد منها، وحجز منشورات تتهجّم على بورقيبة: «ماذا يعرف أولئك الجرذان عن بورقيبة وجهاده من اجل تحويله لهذا الشعب البهيم، الذي مازال لا يفرّق بين قدميه ويديه؟ ماذا يعرفون عن هذا الرّجل العظيم الذي يعمل يوميّا، في طموحاته وقراراته وإجراءاته ومشاريعه، على مقاومة الجهل والتخلّف وتقاعس

الرّجال وانحطاط النساء والرجال معا؟ هذا الذي يحارب بلا هوادة ذهنيّة التزمّت والانغلاق الأحمق والتديّن المتزمّت؟ هل تراهم قادرون بتقدميّتهم المزيّفة على فعل جزء يسير ممّا فعله بورقيبة؟ هل تراهم مثلا قادرون على طرد بعوضة من البلد لا طرد الاستعمار مثلما فعل الزّعيم؟ هل هم قادرون على التجرّؤ على تراث الانحطاط مثله! هم فقط يتملّقون النّاس الذين لا يعترفون بهم! إن بورقيبة تصدّى للشريعة المحمّديّة نفسها وحاول أن يغيّر فيها. فسنّ قانون التبنّي وألغى تراتبيّة الأديان ومسألة الذميّة. هنا، في دولة الاستقلال التونسيّة، نحن في عهد محمدي جديد يقوده بورقيبة بحكمة من أجل أن يكون جميع الناس مواطنين أحرارا وإخوانا متآزرين يتساوون أمام القانون. هؤلاء اليساريون! هل تتصوّر أنهم أكثر يساريّة من بورقيبة الذي دعا شعبه للإفطار في رمضان، لأن حكمة الزعيم اقتضت أن المسلمين هم في معركة ضدّ التخلّف والجهل والتدنّي الحضاري، ومن كان محاربا على ارض المعركة، معركة البقاء والنماء والارتقاء، يحقّ له الإفطار فالواجب الدّيني يُرفع عنه، فهو مجاهد، والجهاد أكبر من الصوم، فلا حرج عليه عندئذ! فصحّة البلدان والأوطان قبل صحّة الأديان!».

نعم، يذكر هلال الأحد ما راج في البلاد من أن بورقيبة دعا الشعب إلى الإفطار في رمضان، ولمزيد تحريض الناس على الإفطار تناول الزّعيم كأسا في شهر رمضان وتجرّع سائله أمام الصائمين ليقتدوا به ويفطروا. كانت لتلك الدعوة ولذلك المشهد صدى مدوّ في الجمهوريّة التونسيّة الفتيّة وكادت دعوة إباحة الإفطار تحدث فتنة بين الناس. كما كان لتلك

الدعوة صخبها الكبير في مشرق البلاد العربية التي عملت ما في وسعها لتكفير الزعيم وإهدار دمه ودم شعبه الذي آمن بدعوته.

فيما يخصّ صالح الأحد فقد استجاب لدعوة رئيسه ولم يعد يصوم مطلقا، لا في رمضان ولا في غير رمضان إلى حين وفاته. وبنفس الحماس وافق زعيمه في دعوة العرب إلى الصلح مع اسرائيل وقبول تقسيم الأمم المتحدة لسنة ١٩٤٨ عندما زار بورقيبة المشرق العربي سنة ١٩٦٥، ولكن العرب وصفوه وقتها بالخائن والملحد والمتآمر على أمّة العرب. كان صالح الأحد يقول: « الحق مع الزّعيم العبقري الخبير لكن ماذا نفعل مع الحمير؟ إن المجاهد الأكبر يحتقر أغلب القادة العرب ويرى أنهم لا يفقهون شيئا في السياسة مثلهم مثل أطفال الجامعة الثوريّن الذين يتصوّرون أن الثورة هي مذكّر الثور. كان الزعيم يقول أن الكثرة الكاثرة من القادة العرب تولّوا السلطة معوّلين على القبيلة أو إثر انقلاب عسكري أو بدعم خارجي مشبوه، وهم لا يحسنون لغات أخرى غير لغة بدواتهم، ولا ينتمون أبدا لمنطق هذا العصر. إنهم آتون من عصور سحيقة غابرة أكل عليها الدهر وشرب ولم تعد صالحة لشيء. وحده الزّعيم المعجب بثورة كمال أتاتورك كان من بين قادة العرب دارسا دراسة حديثة تفوّق فيها وتخرّج قانونيا مرموقا، اشتغل بالمحاماة وفق أصولها الحديثة، ومارس التمثيل المسرحي والكتابة الصحفية، وكان محبا للشعر الفرنسي والعربي ويستظهر منهما قصائد طويلة عن ظهر قلب ودون تلعثم».

كان سي صالح يقف دائما الى جانب زعيمه جنديّا باسلا لا يتزحزح

من موقعه مهما اشتدّت الرياح واجتاحت العواصف، وحتى مع جيرانه فقد أبلى البلاء الحسن. إن هلال ليذكر كيف جلد سي صالح بكلتا يديه ثلاثة من جيرانه المقرّبين، ومن أعمار قريبة من عمره كانوا يروّجون عن بورقيبة أنه «طُورِنْ». وقد استعمل أولئك الجيران الثلاثة تلك اللّفظة ولم يكونوا يدركون معناها جيّدا. كانوا يستعملونها على سبيل القول إن بورقيبة كفر وخرج عن الملّة، ومن أجل ذلك فقد ضاعف لهم سي صالح الجلد عندما لم يقدروا على شرح الكلمة له مثلما طلب منهم. فظلّ يجلدهم بنفسه وهو يردّد على مسامعهم مع كل جلدة ينزل بها على أكتافهم ورؤوسهم المكشوفة بعدما عرّاهم من شاشيّاتهم. كان في تصرّفه كأنه مؤدّب في كتّاب: « تعلّموا أن تقولوا كلمات تعرفون معناها يا بقر... طُورن كلمة مشتقّة من طوران. هل فهمتم؟ هاكم على رؤوسكم يا بقر... الطورانيون هم جماعة الاتحاد والترقّي في تركيا العظيمة. هل فهمتم؟ هاكم على رؤوسكم يا بقر! الطورانيّون هم اللذين يسعون لعزّة تركيا ومجدها القادم. هم الأتراك الأقحاح، هل فهمتم؟ هاكم على رؤوسكم يا بقر! الزّعيم الكبير كمال أتاتورك هو من تركيا وهو طوراني. هل فهمتم؟ هاكم على رؤوسكم يا بقر! إذن، تطورن ليس معناها كفر ولا ألحد! إنما هو الذي يعمل لكي تتحوّلوا من بقر إلى بشر يا بقر... هيّا عاودوا درسكم لتحفظوا يا بقر! وإن لم تحفظوا درسكم يا بقر سأظلّ أجلدكم إلى أن يرث الله الأرض وما عليها... يا بقر!»

ليلة الأسماء

عندما تناهى إليه ضحك الصديقين المجلجل وصراخهما ضحك يوسف عبد الناصر بدوره وهو يردّد من بعيد " ناكونا...نعم! ناكونا!" انتهى من الترديد وقال لشهرزاد، وهو على وضعه منذ دخوله الغرفة: الحقّ مع هلال الأحد في مسألة الأسماء. إن مسألة الأسماء محيّرة، يمكن أن يكون الاسم قيدا أو انعتاقا أو لا شيء. وضرب لشهرزاد مثلا زميلهم الجامعي المسمّى فرج حبيبي الباهي. سمّاه والده فرجا تيمّنا بتفريج كربه بمقدم الطفل. ولكن الذي حدث أن "فرج" وقع أسير اسمه، المنطوق بتسكين الراء في بعض اللهجات التونسيّة، وتحوّل إلى لوطي، إلى مأبون! كان راضيا بقسمته في الحياة، ولا يحاول أن يتنكّر أو يتخفّى، رغم ما جلبه عليه ذلك من شدائد وأزمات، آخرها تلك الشبهة التي دارت حوله وأحد طلبته، فاستدعاه عميد الكليّة، وكان اسمه عبد العظيم، ووجّه له الكلام والتوبيخ على سلوكه غير السويّ، فما كان من فرج إلاّ أن ردّ قائلا: "أنا اسمي فرج. ربّي خلقني فرجا. أبي اعترف بمشيئة الله، والفرج له وظيفة معلومة! وحتّى إن كان اسمي عبد العظيم مثل اسمك فهل ثمّة ما هو أعظم من ذلك الشيء لأعبده!

وحرّك يده الممدودة ثمّ المثنيّة، ذات القبضة المضمومة، في وجه العميد: كلنا عباد هذا الشيء وعبيده... أليس كذلك!".

ضرب يوسف عبد الناصر مثلا آخر لشهرزاد بالشاعر العراقي بدر شاكر السيّاب. قال لها: "كان ذلك السيّاب اسمه بدر، في حين أن له وجه فزّاعة شتويّة نسيت في الفيافي. كم أضناه ذلك الوجه المتسيّب ضديد اسمه! حاول أن يكتب شعرا بدريّا مضيئا غير متسيّب لينتقم من شكله، ولكنّه في النهاية لم يعد قادرا على الاحتمال. كان التناقض بين اسمه ورسمه عميقا، ولا مجال للمصالحة بينهما، فخيّر الشاعر الموت شابّا، فقط، للتخلّص من ذلك الوجه الذي ليس وجهه، أو من ذلك الاسم الذي ليس اسمه! فكيف لذلك الإنسان المرهف الملهم، ذي الحساسيّة المفرطة حيال الجمال، أن يتعايش مع وجهه الغريب عن اسمه؟ وهو القائل: "عيناك غابتا نخيل ساعة السحر/ أو شرفتان راح ينأى عنهما القمر"، والقمر هو البدر، فخيّر الشاعر أن ينأى بحياته كلّها، هروبا من عينين ساحرتين، لا يقدر شكله عليهما!

وضرب لها مثلا ثالثا بالشاعر السوري " علي أحمد سعيد اسبر" المشهور باسم "أدونيس". أدونيس إله الخصب في الحضارات الشرقيّة القديمة. كان ذلك الشاعر السوري الحداثي لا يتحمّل اسم "علي" وتراثه الشيعي الثقيل المحمّل بالأحزان والمناحات والعذابات، ولا اسم "محمد" ومركزيّته الدينيّة وسيرته النبوية، ولا سعادة جدّه "سعيد"، وهو الذي يريد للشعر أن يرسخ في المأساة. كان الشاعر أدونيس قلقا في هويّته، وكان يرغب في أن يتحوّل إلى أسطورة، بالانتماء

إلى اسم أسطوري! ولكن لا أحد يغدو أسطورة إذا لم يكن له اسمه الخاص. الشاعر أدونيس لم يعثر بعد على اسمه، هذا أمر يحيّره جدّا، بدليل انه يقول: "إنّني أبحث عن اسم وعن شيء أسمّيه ولا شيء يُسمّى/ زمنٌ أعْمَى وتاريخ مُعمّى/ زمن طميٌ وتاريخ حُطامْ/ والذي يَمْلكُ مملوكٌ/ فسبحانك يا هذا الظلام"!

وضرب لها مثلا رابعا بالفيلسوف التونسي "أبو يعرب المرزوقي"، اسمه الحقيق هو حبيب المرزوقي، فسمّى ولده البكر "يعرب" وكنّى نفسه بأبي يعرب. يعرب، كما تعرفين، هو الجدّ الأسطوري الذي انبثقت منه العرب، والمرزوقي يرغب في أن يكون وريثا للجذر العربيّ الأوّل، استئنافا جديدا لوجود العرب وفاعليّتهم الكونيّة من جهة، ويسعى من جهة أخرى إلى التخلّص من اسم "الحبيب" المشحون بتاريخ الحبيب بورقيبة ودولة الاستقلال. فراح المرزوقي، إخلاصا منه لكنيته، يراجع فلاسفة اليونان وفلاسفة الغرب وفلاسفة العرب ليصوغ من ذلك ما يعزّز به كنيته ويعليها بفكر لم يخطر على بال المتأخّرين ولا المتقدّمين!

وضرب لها مثلا خامسا بصديقه، شاعر قصيدة النثر، باسط بن حسن، وكيف سمّاه والده عبد الباسط، افتتانا من الوالد بصوت المقرئ الشيخ عبد الباسط عبد الصمد، من أجل أن يكون ولده عبدا لإله يبسط عليه نعمه في كلّ حين وآن. عندما شبّ عبد الباسط عن الطوق، لم يعد يقنع بالعبادة والعبوديّة. حذف العبد من اسمه وتحوّل هو إلى باسط، وشاء أن يبسط هيمنته على القصيدة العربيّة بتخريب شكلها وسننها، ليتمكّن من القول فيها. تخلّص صديقه باسط من العبوديّة في اسمه

ورقّى نفسه إلى مرتبة الآلهة والبسط، وانتهى الأمر بباسط بن حسن إلى كتابة قصائد مبسوطة الكلمات ولكنّها مغلولة الأنغام ومتلعثمة المعاني.

وضرب يوسف لشهرزاد أمثلة عديدة اخرى، ولكن المرأة لم تكن معه. منذ سمعت شهرزاد تساؤل هلال: "ماذا تفعل بنا اسماؤنا؟" كفّت عن متابعة الحكاية والأمثال. استغرقها التساؤل وحوّل سمعها إلى الدّاخل. إنْ نحن إلاّ أسماء على صفحة البسيطة، وهويّتنا هي هويّة أسمائنا وذاكرتنا أيضا. ثمّة ذاكرات خرساء وذاكرات ثرثارة، هذا كلّ ما في الامر!

كانت شهرزاد تعلم أن الأسماء تحيل دوما على مذهب التناسخ. اسم محمد يبعث ملايين المرّات، كلّ يوم وكلّ دقيقة. أكثر الأسماء تداولا في هذا العالم. ولكن هؤلاء المحمّدون ماذا فيهم من محمّد؟ وكيف يتعاملون مع إرث ذلك الاسم؟ ومحمد نفسه يقول: " خير الأسماء ما عبّد أو حمّد"، من كان عبد الله وصفاته وأسمائه، أو من كان مشتقّا من الحمد ومن محمد. ولكنّ محمد لم يسمّ ولديه الذكرين ـ الذين توفّاهم الله سريعا ـ بخير الأسماء... أحدهما سمّاه قاسم والآخر سمّاه إبراهيم!

تساءلت شهرزاد بصوت قلبها: لماذا لا تصبح الأسماء مثل البصمات لا يشبه الواحد منها الآخر؟ هل ذلك مجرّد فقر في الخيال الإنساني؟ أم إن الإنسانيّة لا تحتمل أسماء بعدد أفرادها الذين لا حصر لهم! وهل إنجاب اسم من الأسماء هو أعسر من إنجاب ملايين الأفراد؟ أليس أصحاب الأسماء هم هويّات متفرّدة، والإنسانيّة لا تحبّ كثرة الهويّات المتفرّدة، لان ذلك يشتّت الدنيا وينذر بالهلاك! لو أن البشريّة كلّها أسماء

وعباقرة ومتفرّدون لحلّ الدّمار مباشرة بالخلق أجمعين! لذلك كان الحلّ بسيطا، ناجعا، ومتألّقا: دمج ملايين الأفراد تحت اسم واحد، حتّى يكون ذلك الاسم متسلّطا وحافزا في ذات الوقت! يمنح الشيء ويحرم منه بالقدر نفسه، ولا يترك فرصة للتسيّب!.. تذكّرت شهرزاد الحيوان: الحيوانات لا أسماء خاصّة بها. جميعها تندرج تحت اسم نوعها أو جنسها أو فصيلتها، وحين ضاقت الإنسانيّة ذرعا بوجودها، أنسنت الحيوان وأطلقت عليه اسما علما، لتأسره نهائيّا وتستحوذ عليه وتسلبه هويّته وتمحو خصوصيّة وجوده.

تسمّت الكلاب والقطط والخيول والأشجار والنباتات بأسماء الإنسان فجرح وجودها وقضي عليها!

تساءلت شهرزاد مرّة أخرى بصوت قلبها: سيّدنا محمد! لماذا حين حدّد خير الأسماء لم يتوجّه إلاّ للرّجال، وقصدهم وحدهم فقط دون النساء؟ ماذا عن النساء؟ أي الأسماء خير لهنّ؟

وبصوت قلبها قالت شهرزاد: اسم شهرزاد هذا! هل هو اسم خير أم اسم شرّ؟ هل هو اسم الدهاء والفداء والحيلة والإنقاذ أم هو اسم الخنوع وذلّ الحريم؟ أم انه اسم الدنيا السّاحرة التي ترفل في النعيم والبهجة؟ اسم الليالي والقصور والتقاء الأرض بالسماء، وتزاوج الواقع بالحلم، وتآخي الجنّ والإنس، وانفتاح الكون والخيال على الممكنات كافّة بدون وسائط؟! هل هو اسم آخر لمطلق الأنوثة، لمطلق حواء؟ أم وصف لها؟ أم استعارة مذهلة عن دورة حياة البشر، في انقطاعها واستئنافها وآمالها المؤجّلة وعودها الأبدي، في حكاية لا تنتهي، بلغة

لا تنتهي؟

ما تعلمه يقينا أن والدها ذا الأصل التركي حين سمّاها شهرزاد كان ينذرها للمجد، على غرار شهرزاد ألف ليلة وليلة. أن تعيش في قصر وأن تتزوّج ملكا أو رئيساً أو على الأقلّ وزيرا أو مستشارا. المهمّ، أن يكون زوجها شخصا مُسلما له قصر ومن كبار القوم.

كان والدها من عائلة كبيرة ذات نفوذ سياسي وذات ثروة وجاه. كل ذلك تبخّر في رمشة عين، كما في الحكايات، بعد صراع دموي على السلطة بين بايات تونس الحسينيين وكبار تجارها. كانت أسرة والدها هي الخاسرة في ذلك الصراع. أعدم الكثير من رموزها وأفرادها وصودرت ثروتهم كلّها، وجرّدت العائلة من النفوذ والجاه. لم يرث والدها عن عائلته سوى أوهام المجد والنفوذ، وكان التناقض واضحا بين حياته الفعليّة وحياته الذهنيّة، ممّا صيّره شبه مخبول.

كانت له ضيعة صغيرة في ضاحية أريانة، نصفها إسطبل اتخذه الوالد، الذي كان يدعى "الحصان"، لتربية الخيل والمتاجرة بها. ذلك كان مورد رزقه الوحيد، ولم يكن موردا سخيّا ولا ثابتا في كل الأحوال. كان والد شهرزاد يعشق الخيول عشقا بلا حدود وله قدرة غريبة على ترويضها وتربيتها والتفاهم معها. كان يعلن الحداد ويشرَع في البكاء كلّما باع مهرة أو جوادا، ويُلزم البيت كلّه على مشاركته الحداد وإطفاء أضواء القناديل. كانت عائلة شهرزاد تمضي الليل في الظلام تتحسّس طريقها على وقع نشيجه الحارق الذي يتردّد صداه في جميع أرجاء البيت. مع النشيج كان سبابه يتصاعد يلعن به الدنيا الخائنة ويشتم الظروف التي

أجبرته على التفريط في فلذات كبده. كان كل حصان عاش معه يوما هو فلذة كبده، وفراقه هو فراق ابن أو حبيب. صهيل الجياد يحدث له النشوة ويجعله جذلان يفتل شاربيه الأسودين العظيمين كتركي عتيد. كان يقول في زهو: العرب أصحاب نوق وجمال ومجالهم الصحراء. أمّا الإسلام فهو إسلام الخيل في النهار والليل، "والعاديات صبحا فالموريات قدحا فالمغيرات صبحا فأثرن به نفعا فوسطن به جمعا"، روّجته الخيول في كل أصقاع الدنيا وخطّت مجده، الذي لا يمّحي، بحوافرها المباركة، في مشارق الأرض ومغاربها. المسلمون خيول والعرب نوق وجمال. لم يرتبط دين في الدنيا بالخيل ارتباط الإسلام. دين الفروسيّة والنبالة والعدو وأجساد الخيول الأصيلة، الممشوقة المرشوقة في البهاء اللاّمع، لمحاربة المشركين ونشر دعوة توحيد خالق الأرض والسماء وما بينهما وما فيهما. اضطلعت الخيول، بعدما اصطفاها الله، بمهمّة تبليغ الرّسالة المحمّديّة، رسالة النور والحقّ المبين، للبشر كافّة، مهما نأت بهم البقاع والأصقاع، وعصفت بهم العقائد، ولوّنت الشمس جلودهم وأفكارهم. كانت الخيول من كل الأقوام والأمم والهمم، وكانت مهمّتها سامية ومقدّسة، حتى جاء حين من الدهر انحطّت فيه مهمّة الخيول فأصبحت ترعى البقر، بعدما كانت ترعى الحق وتنشر نور العقيدة بين الناس كافّة، بل لقد انحطّت مهمّة الخيل أكثر من هذا، غدت تخوض السباق لحساب المقامرين والبغاة وشواذ الخلق، وذلك كلّه من علامات الساعة.

كان والد شهرزاد يعتقد أن العرب لهم خصائص الجِمال في تخزين

الحقد والضغينة والصبر الرهيب على الشدائد وقوّة الإحتمال، لا يميتهم عطش ولا تبتلعهم رمال الصحارى، ولا تحرقهم المكائد ولا تفنيهم الحروب. كأن لا شيء يفنيهم. ما أقواهم! ويرى أن المسلمين هم جياد الله المطهّمة، مشرئبة الأعناق، تركض في كلّ الاتجاهات، ورنين صهيلها يسبقها مبشّرا بالسلام، ملقيا الطمأنينة، مطهّرا للنفوس. جياد تجتاز الصحارى وتشق البحار، بيضاء القلوب، ملساء وضامرة البطن، تصادق الإنسان وتموت معه على ارض المعركة، ويستحيل على الحصان أن يمكر بصاحبه أو يتنكّر له. إن الخيول نبيلة المحتدّ، رفيعة الشأن، طالما امتدحها ربّ العزّة وأعلى قدرها، حتّى أنه، جلّت قدرته، انتخب منها براقا بجناحين لإسراء النبيّ العربي ومعراجه نحو العرش الإلهي.

كان والد شهرزاد مجنون خيل يغار عليها أكثر من غيرته على نفسه. كان يقول إن الخيول هي آخر ما يذكّرنا بإله الرحمة، وحين تختفي الخيول من على وجه البسيطة ستقوم القيامة ويقبض الله أرواح جميع الخلق.

كان دائم الهذيان بكلام من هذا القبيل، بل إن خبله وهذيانه جعلاه يتصرّف مع بناته الأربع بطريقة شديدة الغرابة. أولى بناته كان اسمها "تركيّة"، والثانية اسمها "مديحة"، والثالثة "سرور"، والرابعة " شهرزاد".

كان يتمنّى أن يكون نسله من الذكور، جنودا للإسلام، لكن الله رزقه بالبنات فقط. بعد مجيء شهرزاد، محاولته الرابعة، يئس من إنجاب الذكور. اتّفق مع زوجته على إيقاف النّسل. قبل زواجه خطّط لإنجاب أطفال ذكور بعدد أنبياء التوحيد المشهورين. لكن حين جرّب الإنجاب

وتيقّن أن زرعه من جنس الإناث أوقف النسل، وسوّل له ذهنه الغريب أن ينادي بناته في البيت بأسماء رجال الرسالات. انتخب لتركية اسم "إبراهيم"، ولمديحة اسم "موسى"، ولسرور اسم "عيسى"، ولشهرزاد اسم "محمد". كان يشعر بالرضا لأنه أرضى كبار الأنبياء أصحاب الرسالات الإلهيّة. ونظرا إلى أن شهرزاد كانت صغرى البنات وآخر العنقود فقد اصطفاها لنفسه وأغدق عليها الحبّ بسخاء. سجّلها في مدرسة فرنسيّة لبعثة من الراهبات المسيحيّات، ودرّبها منذ يفاعتها على ركوب الخيل، حتى غدت فارسة صغيرة لا يشقّ لها غبار، مثلما يقولون! وبفضل شهرتها الفروسية في مدينة أريانة كلّها وقع اختيارها للتمثيل في فيلم تاريخي لمخرج ايطالي، صوّره في تونس قبل الاستقلال. كان عمرها في ذلك الزمن أربعة عشر سنة، في ريعان الشباب. كانت شهرزاد تفيض جمالا وسحرا. طويلة في اعتدال، ولها جسد قارورة الكوكاكولا، على بشرة خمريّة برّاقة وشفتين مليحتين. كانت هيأتها سينمائيّة بمقاييس سينما الخمسينات. كانت مشاركتها السينمائيّة الأولى صامتة. لم تنبس فيها بحرف واحد. استغرقت تلك المشاركة دقيقتين فقط في كل مشاهد الفيلم. قامت بدور فارسة بدويّة، ابنة شيخ قبيلة، أوكل لها الشيخ زعامة شرذمة من القراصنة. تلكما الدقيقتان تطلّبتا منها حضورا في عمليّة التصوير لأكثر من أسبوع. هناك افتتنت بعالم السينما وأصابها داء الفنّ فسافرت إلى ايطاليا لدراسة فن المسرح والتمثيل. أعانها المخرج الايطالي في تلك المهمّة، ويسّر لها الكثير من المصاعب، وكان يمنّي النفس بالتمتّع ببعض من جمالها البرعمي. ظلّت تماطله حتّى تقيم

علاقات بمفردها مع الأوساط الفنيّة بعدما صارت تتكلّم الايطاليّة بطلاقة ولم تعد في حاجة إلى معونة أحد. شعر المخرج بأنّها استغلّته واستفادت منه دون أن ينال منها أي مقابل. حقد عليها وعمل على تدبير مكيدة يقتصّ بها لنفسه من الممثلة التونسية المثيرة. نجح في جعل السلطات الايطاليّة تسارع بطرد شهرزاد وتعيدها إلى تونس مخفورة ومطرودة. استدعاها ذات عشيّة إلى متحف فنّي كبير في مدينة بلارمو يمنع فيه التصوير على الزوّار ولم تكن شهرزاد تدري بذلك. شجّعها على التقاط صور لمنحوتات ولوحات نادرة ومحروسة فاستجابت. لم تنتبه إلى المخرج عندما ازورّ عنها ووشى بها إلى إدارة المتحف بتهمة أنّها عضو في منظّمة دولية لتزوير الآثار والنفائس وتهريب التحف الفنيّة. احتجزت شهرزاد في التحقيق ستا وثلاثين ساعة، وعندما لم يستخلص منها البوليس شيئا تم ترحيلها إلى بلادها، مع حرمانها من زيارة ايطاليا مرّة ثانية.

عادت شهرزاد إلى تونس وقد استحكمت بها جرثومة الفنّ، وجعلتها تعتقد اعتقادا راسخا أنّها لم تخلق إلاّ للتمثيل. كبرت أحلامها في ايطاليا وصارت تتطلّع للمجد والانتشار العالمي. اندثرت أحلامها سريعا، وهاهي تعود إلى ساحة محليّة، متخلّفة وضيّقة، لتواجه رؤية اجتماعيّة تزدري العمل في قطاع الفنون، ولتواجه مكائد أهل الوسط البارعين في حبك المكائد، بعدما فقدوا القدرة على إظهار براعتهم الفنيّة. كانت الساحة الفنيّة التونسية ضيّقة جدّا ولا توفّر الفرصة لجميع الموهوبين في التمثيل، لذلك يشتدّ الصراع ويتفاقم وتتكاثر الضحايا، ويغدو للبقاء

ثمن باهظ يدفع من الكرامة. وسط تنتشر فيه الأقاويل والإشاعات ولا يكون النجاح المحلّي المستحيل إلا متى تلوّثت سمعة الفنّان بكل أصناف الأدران، ومع ذلك يظل النجاح مستحيلا. أدركت شهرزاد كلّ ذلك وعزمت على أن تحافظ على وجودها وتصونه من التلوّث، وأن تكون تجربتها نظيفة، لا تشوبها شائبة، خصوصا في مجتمع تقليدي، مازال يخطو خطواته الأولى على درب الاستقلال، ويعتبر الفنّ في حدّ ذاته ضربا من ضروب العهر والدعارة. وكانت بطبيعتها الحالمة المندفعة تنشد المستحيل.

ليلة الجنون والفناء

في الأسبوع الأوّل من عودتها من ايطاليا جنّت أختها الكبرى تركية. لم يطلبها أحد للزّواج وقد بلغت من العمر أكثر من ثلاثين سنة. كانت شهرزاد أوّل من تنبّه لجنونها. لم تعد تركيّة تنام. ليلتان متتاليتان هجرها فيهما النوم. كانت تركيّة تتفقّد، طيلة اللّيل وأثناء النهار، أعضاء بدنها وهي تواجه المرآة. في الليلة الثالثة قالت تركية لشهرزاد: "غدا، إن شاء الله، سينبت لي الشعر في وجهي وسيخرج لي قضيب من بين فخذي وسأتحوّل، بقدرة الله، إلى رجل! ما هو رأيك؟ سأصير إبراهيم كاملا في البيت وخارج البيت! وسأتزوّج صيف هذا العام بنت الجيران، بمشيئة الله..." بهتت شهرزاد وحاولت تهدئة أختها ومناقشة كلامها برصانة وتعقّل، فما كان إلاّ أن تلقّت صفعة مجنونة، شفعتها تركية بالقفز على شهرزاد لتنشب فيها اليدين والأظافر، ثم هجمت عليها تجرّدها من ملابسها وهي تصرخ في هستيريا: "سأبرهن لك على أنّي رجل ذكر! سأتزوّجك أنت في الحين!".

تلك الليلة الرّهيبة لن تنسى. لن تمّحى من ذاكرة شهرزاد أبدا. فرغم عماها مازالت ترى، رأي العين، أباها وأمّها وأختيها مديحه وسرور

يطوّقون تركية البارکة فوق شهرزاد، وترى كيف عمل والدها على شلّ حركة يدي تركية، ثم تعاون الجميع على انتشال شهرزاد، ثم حاصرت الأمّ وابنتاها تركية وانضمت لهن شهرزاد. لحظتها كان الوالد يعدو خارجا من الغرفة، وسرعان ما عاد وهو يلهث كثيرا وبيده حبل غليظ من الحلفاء المفتولة يدويّا. كانت تركية تنتفض وتتخبّط، وجهها مصفرّ، شديد الاصفرار، وعيناها اتسعتا كثيرا وانتشر بياضهما، وشفتاها ابيضّتا كذلك. والغريب، على ما تذكر شهرزاد، أن الزغب كان يعلو شفتي تركية، في ذلك المشهد ظهر ذلك الزغب كما لو أنه شارب غلام في مرحلة البلوغ!

كان صدر تركية عاريا وثيابها ممزّقة وهي ترفس برجلين انحسر عنهما الثوب. بانت عورتها غير المستورة إلاّ بغابة من الشعر الأسود الملتفّ بعضه على بعض. أظهرت تركية قوة شيطانيّة. تحوّلت جميعها إلى كتلة من الأعصاب المشدودة وغدا جسمها من الفولاذ. اشترك الجميع في تقييدها بالحبل. ولكنهم لم يقدروا على ذلك، لو لم يستعمل الوالد قدمه اليسرى في الوقت المناسب. داس بقدمه على رقبة تركية من الخلف، وسحق وجهها على الأرض، حينها قدروا على ربط يديها ورجليها وعنقها بالحبل. ليلتها أغلقوا عليها الغرفة وهي تخور وتطلق أصواتا غير بشريّة، وأمضى الجميع، بقيّة الليل مع بعضهم يرتجفون، محاطين بالخوف والتوقّعات والأطياف.

حقّا، صدق من قال: "المهبول يهبّل جماعة!"... لا يمكن للعاقل أن يعقّل الآخرين في حين يمكن للمهبول، وبسهولة ويسر، أن يهبّل

جماعة أو جماعات. المرض يُعدي والصحّة لا تعدي أبدا. الجنون مرض معدٍ مثله مثل الكوليرا والأيدز والأنفلونزا. يُعدي بدون جراثيم ولا فيروسات. ينتشر في المحيط ويحطّم المعنويّات. يذكّر الآخرين أن لهم قابليّة على الانفلات والتدهور واختلاط الأمور والعقول. العقل، تلك البوصلة الدقيقة، هي من الدقّة بحيث سرعان ما تصاب بالعطب والتعفّن. لها قبليّة عجيبة، لا يمكن توقّعها، للانزلاق والانقلاب إلى ضدّها لتلتهم نفسها بشماتة. ضع مجنونا بين جماعة من العقلاء، شرط أن يكونوا على صلة قربى به ويكنّون له نوعا من التعاطف ـ لأن القربى والتعاطف هما الفتحة التي تتسرّب منها العدوى لكنّ عدم الاكتراث هو صمّام الأمان ـ ضعه وسترى النتيجة بعد أيام قليلة!

إن الجنون ينتشر بسرعة وفاعليّة ويعرف كيف يستدعي المناخ المناسب لانتشاره. كما لو أن كلّ إنسان ينام فيه مجنون يستيقظ حالما يصله صوت الجنون القريب والمتسلّط. ما حدث شيء لا يصدّق! لم تغرب شمس اليوم التالي حتى تداعت مديحه، الأخت الثانية لشهرزاد. انزوت في ركن بغرفة نوم أبويها وراحت تتعرّق وتبكي بكاءً متواصلا بلا انقطاع. كانت تكرّر بصوتها الباكي أن الحصان الأشهب، الذي على غرّته هلال، غمز لها بعينيه وراودها عن نفسها، وأن ذلك الحصان هو أمير صقلبي مسخه الله على هيئة دابة. جيء بالحصان الأشهب إلى قدّام غرفة نوم الأبوين. كان أقبح حصان في الإسطبل. كانت ملامحه متهدّلة وعيناه تدمعان دوما. سحبه الوالد من الشكيمة حتى جعل عنقه ومقدمته داخل الغرفة. تضرّع الوالد لابنته: "يا مديحه يا بنيتي هل هذا

أمير؟ هل هذا أمير؟... والله حتى خادم كثير عليه، يا مديحة استعيذي بالله... يهديك يا بنيتي. كيف يمكن لهذا الحيوان لهذه الزائلة أن تؤذي أحدا؟!" اشتدّ عويل مديحه وهي تضع يديها على وجهها وتصرخ: "أخرجوه من هنا! أبعدوه عنّي. إنه يغمزني. يرمش لي بعينه. انه يهدّدني لأنّني أفشيت سرّه!".

كان جلب الحصان وإقحام مقدمة هيكله في باب غرفة النوم فكرة خرقاء بكل المقاييس. ذُعر الحصان وأجفل من الوضع الذي هو فيه ومن الجوّ المحيط به. حمحم في البداية ثم تململ وصهل واندفع بكامله إلى وسط الغرفة. في اندفاعه لطخ برأسه صدر الوالد فألقاه طريحا حذو الفراش. تساقط بعض الأثاث وزاد في هياج الدابة. صار الحصان يرتفع ويدور ويصهل بتوتر وتلاحق كأنه في ساحة وغى. لم تحاول مديحه التحرّك من مكانها. غطّت وجهها بيديها وانكمشت على نفسها وظلّت في الزاوية قرب الفراش. لم يصدر عنها صوت عندما دكّها الحصان في المرّة الأولى والثانية بحافريه وهو يصعد على قائمتيه الخلفيّتين وينزل بالأماميتين القاضيتين. تدفّق الدم من رأس مديحه وساح في أرجاء الغرفة. اللّطخة التي تلقاها الوالد من الحصان وطرحته أرضا سدّت أنفاسه فصار يشهق لالتقاط القليل من الهواء وهو يكاد يختنق. في اللحظة التي كان فيها الحصان يرفس رأس مديحه هبّت سرور، الأخت الثالثة، قفزا إلى والدها، وأخذته من كتفيه وأنهضته نصف نهوض. كان الوالد ينهنه وهو يبعدها بيديه ويحاول اللّحاق بكلماته المتساقطة: "أخرجي. سرور. أخرجي. ابعدي، أنت ابعدي..." تلفّظ بذلك

وسحب جسده يجرجره إلى تحت الدكّانة. ولولت سرور وهي ترى أختها مديحه مرفوسة تماما. قفزت سرور ثانية محاولة الهروب. كان الحصان من جهة باب الغرفة. حال دونها والخروج. أطلّ الوالد، زاحفا على بطنه، يتحرّك بمنكبيه، ويشهر بين يديه بندقيّة حربيّة، من مخلّفات جيش الألمان، في الحرب العالميّة الثالثة. بندقيّة بست رصاصات. أطلق الرصاصة الأولى صوب رأس الحصان. استوى الحصان على قائمتيه الخلفيّتين مواصلا اهتياجه. استقرّت الرّصاصة على الجدار. على صوت الرصاصة اندفع الحصان مخلّيا جهة باب الغرفة. تحرّكت سرور وثبا لتعترض طريق الرصاصة الثانية وتخرّ صريعة تتخبّط في دمها النازف من جهة الحلق. أصابتها الرّصاصة في عنقها ولم تمت. كانت تحشرج حين استدار الحصان وسقط عليها بعد أن انهمرت عليه الرّصاصات الأربع الباقية. تحوّلت غرفة نوم الأبوين إلى مجزرة، واختلطت فيها دماء الفتاتين بدم الحيوان. كانت شهرزاد تراقب كل ذلك وهي ذاهلة ومشلولة الإدراك من فرط تتابع الأحداث واكتساحها الدموي. أصابها نوع من التخشّب. فزعت والدتها على صوت الرّصاص. كانت تحدّق بالكارثة التي حلّت بعائلتها. لم تذرف دمعا ولم تتفوّه بحرف. لمّت الأمّ أطرافها واختفت. ليلتها، حين شاع الخبر وتجمهر الناس ووصلت الشرطة لمعاينة الأحداث الغريبة كانت شهرزاد في غيبوبة. تعيش أوّل حالة من حالات الصرع تشهدها في شبابها بعد أن كانت تلمّ بها بعض النوبات الخفيفة وقت الطفولة. حين أفاقت صبيحة اليوم التالي أعلمها الجيران، بترفق وابتهال لله أن لا يعيد مصائبه، بعاصفة

الفناء التي اجتاحت بيتهم. أعلموها كذلك كيف وجدت الشرطة أمّها وأختها تركية جثتين متعانقتين بعد أن شربتا رطلا من مبيد الحشرات (د.د.ت) محلولا في الماء، ذوّبته الأمّ وسقت به ابنتها المجنونة وتجرّعت ما تبقّى منه. تساءلت شهرزاد: "هل أرادت والدتها بصنيعها أن توسّع من معنى المأساة وأن تبلغ بها إلى ذرى عالية من الفجيعة والدّمار؟".

ليلة الجنون والفناء، كما تسميها شهرزاد، هي أوّل درس حقيقي تعلّمته من الدنيا: المصائب، لأنها جبانة، لا تأتي فرادى وإنّما تأتي جماعات وفي عجلة من أمرها ككلّ اللّصوص، تأتي من كلّ الجهات، من حيث نتوقّع ومن حيث لا نتوقّع، وتجتاح اجتياحا عارما بلا منطق ولا حكمة. ولكن المصائب، بعد انقضائها، تخلّف نوعا من السّلام والفراغ واللا اكتراث. تبلّد طفيف في الذهن والحسّ. نوع من الخدر اللا مبالي. تيقّنت شهرزاد أنه لا من مصيبة كبيرة وشاملة إلاّ يعقبها فراغ عميق وبلا قرار إلى درجة الاطمئنان والسكينة. يصل المرء إلى القاع ويهجع هناك، ويظلّ يبحلق بعينيه في اللاّشيء واللاّمعنى. في القاع يدرك أن حقيقة هذه الدنيا العمى والتخبّط ولا شيء سواهما. كلّ شيء يمكن حدوثه أو حدوث عكسه، بقدر متساو من الأهميّة واللاّمعنى! مطلق السعادة ومطلق التعاسة يعملان طردا وعكسا في اتجاه الحضيض، ويوصلان المرء إلى قاع مشترك حيث ينتفي المعنى!

في لحظة من الزّمان كان بيت عائلة الحصان عامرا ينبض بالحياة، وفجأة تحوّل البيت كلّه إلى خراب وسكون لا تسمع فيه حركة أو نأمة. تخلّص الوالد من كلّ خيوله. باع الإسطبل بما فيه وأطلق لحيته وهام على

وجهه. صار درويشا يسعى بلا وجهة. ينتقل أحيانا بين المساجد والزّوايا والمقابر زاهدا في الدّنيا معرضا عن كلّ حديث. حاولت شهرزاد خلال عدّة ليال استدراجه للحديث ولكنّه كان كمن أقفل بمفتاح وألقى بالمفتاح في البحر. كان لا يزيد عن التفوّه بتمتمته المعهودة: "يا لطيف أنت اللطيف. ألطف بعبدك الضعيف!" ولا شيء عدا ذلك. كان يعود إلى البيت بعد صلاة العشاء من كلّ ليلة. يدخل مباشرة إلى غرفة شهرزاد المنفردة، يجدها متكوّرة في فراشها تطالع المجلاّت والكتب فيأخذ رأسها بين يديه ويقبّل شعرها، ثم ينسلّ عائدا، بصمت وهدوء، كأنّه شبح، إلى حيث ينام دون عشاء. كان يكتفي بوجبة صباحيّة في البيت، ولا تعلم شهرزاد إن كان يأكل غيرها في الخارج أم لا؟

ليلة فيلم الحركة الوطنيّة

بعد ثلاثة فصول من حلول الكارثة ببيتهم كان الصيف يطلق آخر زفراته الحارّة ويتلفّت ملقيا ببعض جمرات هجيره المتقطّع، كأنه أسد ينسحب من حلبة صراع مغتاظا، يتلفّت ويزأر ويكشّر عن أنيابه المسنونة. في صبيحة قيظ ليوم خميس من شهر سبتمبر تعاظم الطّرق على باب دار الحصان. كان ساعي البريد الضخم على درّاجته يحمل رسالة مضمونة الوصول على عنوان شهرزاد باسمها، مرسلة من دار الإذاعة والتلفزة التونسيّة. لم يبرح ساعي البريد الباب إلاّ حين خرجت له شهرزاد وأمضت على سجلّ الاستلام ثم أغلقت الباب وبيدها الرّسالة. في الممرّ فضّت الرّسالة واطّلعت على فحواها. كانت دعوة للمشاركة بدور في فيلم عن الحركة الوطنيّة. مازالوا يتذكّرونها وهاهم يطلبونها! انفعلت كثيرا بذلك حتى سقطت ضحيّة نوبة الصرع في الممرّ المفضي إلى البيت. تلك كانت نوبتها المرضيّة التي تذكرها بالتفصيل. بقيت ملقاة في الممرّ في غيبوبة وقتا طويلا لم تشعر به، ولم يَهُبّ أحد لنجدتها وإسعافها. أفاقت عند الظهر وبقيت طيلة الأيّام الثلاث التالية لوصول الرّسالة تعاني من المرض والتوتّر. عملت جاهدة على كبح

جماح نفسها والسيطرة على مرضها لعلّها تحقّق حالة مظهريّة مقبولة عند الالتقاء بمخرج الفيلم. تفاجأ المخرج، الذي سمع عنها كثيرا دون أن يتعرّف عليها مباشرة، بمظهرها. كانت عجفاء، شاحبة الوجه ونحيلة جدّا، كأنّها قادمة للتوّ من مجاعة إفريقية. لم تقدر شهرزاد على إخفاء هزالها. كانت تجاعيد ما حاقّ بها تنتشر على ملامحها وشكلها. قال لها المخرج وهو قانط: "أهذه أنت! من فعل بك هذا؟ لا أصدّق! يستحيل عليّ أن أوكِل لك الدّور وأنت على هذه الحالة! مستحيل! لقد خدعوني! سامحيني إنّني مخطىء! إن الدّور يتطلّب فتاة حيّة. تفهمين ما أقصد؟ فتاتة حيّة في كامل عافيتها. فتاة أخرى. عليّ أن أبحث عن ممثّلة بديلة! ثقي أنّني سأفكّر فيك حين يكون لديّ دور يناسبك. اعذريني..."

قال ذلك من أجل التخلّص والتّسويف بعدما خيّب مظهر شهرزاد ظنّه. فهمت الوضع الذي هي فيه. سارعت تقول قبل أن تجد نفسها خلف الباب "اسمح لي. بإمكاني أن أعود إليك في أقلّ من شهر على هيئة الممثّلة التي تبحث عنها! ثق أنّني سأبدّل نفسي خلال أسبوعين لا غير. سأعود لك بالممثّلة التي في خيالك. صدّقني!" من الطّبيعي أن لا يصدّقها المخرج. لم يكن يرغب في مواصلة الكلام، ولكنّه اضطرّ لمجاملتها مكرها: "لا يمكن. لا يمكن ذلك. عليّ أن أحسم الأمر حالا. في هذه اللحظة! إن الأسماء والعقود جميعها تكون عشيّة هذا اليوم بين يدي المنتج... في مرّة قادمة، إن شاء الله، في مرّة قادمة!". قالت شهرزاد متوسّلة وهي في سبيلها للمغادرة: "أرجوك لا تغلق الباب في وجهي نهائيّا. كانت ظروفي قاسية. أرجوك أترك الباب مواربا على الأقلّ.

بصيص من الأمل، على الأقلّ لأجلي يبارك به ربّي صحتك!". أجاب المخرج بنفاذ صبر: "ربّي يعمل دليل!" ونهض مودّعا شهرزاد وهو في حالة استياء قصوى من اختياره الفاشل وخيبته، وكان محتارا في البديل المناسب، فالنساء اللواتي يمثّلن في هذه البلاد التي مازالت مندهشة من استقلالها هنّ على عدد أصابع اليد الواحد، لذلك يضطرّ بعض المخرجين المسرحيين والتلفزيونين والسينمائيين إلى الاستنجاد بالرّجال لتقمّص أدوار النّساء.

كانت شهرزاد تدرك أن العثور على ممثّلة تونسيّة بالمواصفات التي في ذهن المخرج مسألة صعبة. وهذا يسمح لها بمحاولة تدارك نفسها علّها تفوز بالدّور. كان عليها أن تطبّق التعليمات التي تلقّتها في المدرسة الايطاليّة، وكان ملخّصها: "الجسد هو ملك صاحبه يشكّله على أي هيئة يشاء وفي ظرف وجيز للغاية. ومن أجل التغيير من حالة الجسد على المرء أن يدخل في حالة جديدة. وقتها لا مناص للجسد من إتباعنا والتشكّل وفق ما نطلبه منه". تذكّرت شهرزاد أن مدرّب معهدهم الايطالي كان يشدّد على أن الجسد هو الرّصيد الوحيد للممثّل، ويتوجّب أن لا يكون هذا الرّصيد ثابتا بل سائلا ومنقولا، مثل الأرصدة الماليّة في البنوك التي تكون تحت الطلب الفوري. كان المدرّب يحاول إقناعهم بأن وزن الممثّل ولحمه وشحمه لا شيء، عليه أن يكونوا لا شيء، فقيمته هي بالضبط مثل قيمة اللباس الذي نرتديه متى نشاء! مجرّد متمّمات للحضور الحقيقي. على الممثل أن يرتدي الوزن المناسب والرّشاقة المطلوبة كلّما تطلّب الدّور ذلك، وأن يخلعهما متى ما انتهت حاجته

لهما. الممثّل لا جسد له، فالجسد ملك للدّور الذي يقوم به، وحسب مواصفات ذلك الدّور تكون هيئة الجسد.

تصوّرت شهرزاد أنّها أفلحت في إبقاء الباب مواربا مع المخرج وما عليها إلاّ أن تنتفخ، أن تصبح ريّانة ونضرة في أيّام معدودات. كان في ذهنها أن اللّحم البشري مثله مثل عجين القمح ينتفخ بالخميرة. شيء من الأجبان الحامضة والمخلّلات والمعجّنات والكثير من الماء، مع مناخ سليم وإرادة قويّة يتحقّق المطلوب! كان وزنها يوم قابلت المخرج واحدا وأربعين كيلو غراما فتحوّل إلى ثمانية وخمسين كيلوغراما خلال أسبوعين. مسالة مذهلة ولا شكّ! كانت شهرزاد تنمو بمعدّل كيلوغرام في اليوم الواحد. وصلت إلى وزن لم تبلغه من قبل إلى درجة لم تجد معها ما تلبس. كلّ ثيابها صارت ضيّقة عليها. اضطرّت يومها إلى الالتحاف بسفساري المرحومة والدتها لتستر جسدها الفائض وهي تخرج للسوق لاقتناء بدلة جديدة لمقاسها الجديد. صارت بين عشيّة وضحاها مكتنزة في اعتدال، وبشرتها الخمريّة تخلّصت نهائيّا من التجاعيد، وارتوت وامتلأت مشبعة بالحمرة والندى، وأشرقت دوائرها وتألّقت تكويراتها العليا والسفلى، واستقامت على عودها فتنة للناظرين. كانت شهرزاد، خلال أسبوعين، كأنّها نحّات يقوم بنحت نفسه، لا مادّة أخرى، على أفضل هيئة خلاّبة تتيحها له عبقريّته. كانت شهرزاد أوّل من أعجب بما وصلت إليه من صحّة وحلاوة! وفي غمرة نشوتها قرّرت أن تحقّق كمالا أنثويّا تامّا الشروط بحلاقة شعرها وتصفيفه تصفيفا عصريّا على شكل قرنفلة، وتنقية الشعر من على وجهها وزنديها وساقيها فقط. أمّا

مواطن الشعر المستور فلم يحن أوانه بعد. استعانت على ذلك بالمزيّنة المالطيّة "الخالة روزا" حتّى لا تثير حفيظة العائلات التونسيّة، فالزينة في عرفهنّ للنساء المتزوّجات وليست للصبايا الأبكار، وبذلك خرقت شهرزاد المألوف، وحين نظرت إلى وجهها في المرآة افتتنت بجمالها، وتصوّرت أن فيه مبالغة ما، وأنّها لن تقدر على الخروج سافرة بهذا الوجه الرائع الحُسن، الذي زادته التنقية صقلا وألقا. دارت شهرزاد حول نفسها في خلاء وتيه وتمنّت أن تقيم في هذا الجسد إلى أبد الآبدين، وأن تُفنى روحها فيه عشقا وغراما. تملّكتها فتنة الإعجاب بالذّات، فوردت إلى خاطرها كلمات الشاعرة الأندلسيّة ولاّدة حبيبة الشاعر ابن زيدون، فردّدتها بصوت مرتفع وهي تنظر إلى مظهرها في المرآة: "أنا والله أصلح للمعالي وأمشي مشيتي وأتيه تيهًا..." تيقّنت شهرزاد أن شكلها المليح الذي عاملته منذ ليلة الفناء بظلم وإهمال هو آية من آيات الرّحمان خلقه من أجل متعة الخلق أجمعين وتخيّلت المجد الذي ينتظرها وأدوار البطولة والأضواء الساطعة المحيطة بها لترفعها إلى أعلى عليّين، إلى أقرب مكان من الله، لكي تجزل له الشكر والحمد، وتذوب في ملكوته، تسبيحا له على أفضاله عليها.

أدركت شهرزاد، في الوقت المناسب، أنّه ينبغي أن تتحفّظ على جمالها قليلا، وأن تتجنّب المساحيق والماكياج عند ذهابها لمقابلة المخرج. إنّها تعوّل على حسّ الفنّان لديها: "أن لا يحجب جمالها الأنثوي موهبتها الفنيّة، وأن يكون تأثيرها على المخرج محسوبا، بدون زيادة ولا نقصان، حتّى لا تختلّ النتيجة المرجوّة!".

خطت شهرزاد خطوتها الأولى بنجاح وتألّق. اقتلعت الدّور بتصميم وتفوّقت فيه. لم يصدّق المخرج أن شهرزاد، التي تقابل معها قبل نحو نصف شهر، هي نفسها شهرزاد التي تقف أمامه ثانية. داخ حقيقة. رغم خبرته وتمرّسه بفنّ التمثيل وبهيئة الممثّلين وسلوكهم فإنّه لم يقوَ على استيعاب كيفيّة تحوّل المرء من شكل إلى آخر، في فترة زمنيّة وجيزة، وبشكل جذري. عدّ ذلك معجزة وضربا من السّحر، وفي النهاية رأى في الأمر فألا حسنا لشريطه. كان المخرج يخشى طيلة مدّة التصوير أن تنطفىء شهرزاد وتنفشّ، فيبطل مفعول السحر الذي اتّخذته، فتعود إلى صورتها الهزيلة التي شاهدها عليها في المرّة الأولى، كان يوم إنهاء التصوير الذي استمرّ ثلاثة أشهر في غاية الحبور. أفضى ضاحكا بمخاوفه لشهرزاد عندما كان يثني على أدائها الممتاز معرّبا لها بشكل صريح على أن قدراتها الفنيّة أكبر ممّا تتحمّله البلاد.

قبل ترويج الفيلم في القاعات العموميّة إثر الانتهاء من مختلف العمليّات الفنيّة بلغ نبأ إتمام الفيلم إلى السلطات العليا. صدرت الأوامر العاجلة بضرورة عرض النسخة الأولى من الفيلم على فخامة رئيس الدولة الزعيم الحبيب بورقيبة، ليحكم على جودته الفنيّة ومدى إخلاص الشريط لوقائع الحركة الوطنيّة. كانت شهرزاد تعلم مبلغ حرص الزعيم وشغفه بوسائل الإعلام والفنون المشهديّة والدراميّة، فضلا عن اعتباره أن تاريخ الحركة الوطنيّة هو تاريخه الشخصي. كان العاملون في دار الإذاعة والتلفزة يتندّرون ويقولون أن رئيس الدولة هو زميلهم الذي يشتغل معهم في الإنتاج الإذاعي والتنشيط التلفزيوني.

كانت للزعيم حصّة أسبوعيّة يلقي فيها دروسه الموسّعة للتونسيّن. تستغرق حصّته حوالي الساعة من الزّمن. كان الرّئيس يحرص صبيحة كل أربعاء على الانتقال من قصر قرطاج بالضاحية الشماليّة للعاصمة تونس الى شارع الحريّة بوسط العاصمة حيث مقرّ دار الإذاعة والتلفزة. يكون استوديو التّصوير في انتظاره، ومصالح الدار وكل أجهزتها في حالة طوارئ. يقوم الرّئيس بتسجيل حصّته الذي يكون قد خطّط مراحلها الأساسية في ذهنه ويلقيها بارتجال متقن. وعند الانتهاء يشرف شخصيّا على المشاهدة والمونتاج والحذف والنسخ واللصق وحركة الكاميرا والإيقاع العام للحصّة. يفعل كلّ ذلك من أجل تحقيق التأثير المطلوب في المشاهدين، بصوت وصورة يؤدّيان بدقّة محتوى عروضه ورسائله إلى جمهوره الابن. كان الرّئيس بارعا في الوقوف أمام الكاميرا واستعمالها لأغراضه ونواياه. كانت موهبته المسرحيّة تسعفه بحركات من يديه وملامح وجهه وبكلام مرتجل بحسبان يحوّل حصّته التلفزيّة إلى حصّة ناجحة نجاحا جماهيريّا كاسحا ومبهرا. كان المشاهدون ينتظرون تلك الحصّة أسبوعيّا بفارغ الصّبر ويظلّون مشدوهين بقدرة الزّعيم الخارقة في البرهنة الموفّقة دوما، على أنّه الزّعيم والمجاهد الأكبر، وفخامة الرّئيس الحبيب بورقيبة، عميد الرّؤساء والملوك العرب والأفارقة، معمّما التعليم الإلزامي ومحرّر المرأة وباني الاستقلال، ومشيّد مجد تونس الحديثة. كان بورقيبة يعرف كيف يجعل أنفاس المتفرّجين تتلاحق. كيف يفرحهم وكيف يبكيهم ليكونوا تحت سيطرة جاذبية نفوذه الذي لا يقاوم. كان يضع في أغلب الأحيان مخطّطا مكتوبا

لشكل خطبه، يراعي فيه لحظات الصّمت، ورفع اليدين، والتحديق بالآخرين والابتسام والإجهاش بالبكاء. كان ينتقل من الكبرياء إلى الذلّ ومن الخيلاء إلى المسكنة، بكلّ يسر وراحة. كان يعرف، في حصّته، متى يشمخ ويزهو ويتباهى ومتى ينكسر ويشكو، متى يضحك ومتى يبكي، وكان يأمر فريق إنتاج حصّته التلفزيّة أن يقتطفوا لحظات توهّجه في الأداء لبرمجتها على شكل ومضات ومداخلات قصيرة تبث يوميّا في وقت ذروة المشاهدة تحت عنوان: "من توجيهات الرّئيس".

كانت مواهب الرّئيس المسرحيّة تثير هلع الممثّلين المحترفين وتجعل أهل الفنّ يتوخّون الحذر والجدّية في أعمالهم. تيقّنت شهرزاد أن الفيلم الذي شاركت فيه مقبل على امتحان عسير سيحدّد مصير كلّ العاملين فيه، فالرّئيس متفرّج من نوع خاصّ ولا يمكنه أن يتساهل مع عمل فنّي فيه تمثيل ويخصّ الحركة الوطنيّة. كان المخرج متوتّرا إلى درجة أصيب معها بالمرض ولازم الفراش. وضع الجميع أيديهم على قلوبهم في انتظار تفرّغ الرّئيس لمشاهدة الفيلم. صادف في تلك الأيّام أن قام الرّئيس بتحوير وزاري في طاقم حكومته. انشغل فترة بترتيب بيت الحكم فطال الترقّب والتشويق ووضع الأيادي على القلوب. أخيرا، ظُهْر يوم الاثنين، تسرّب خبر مشاهدة الرّئيس للفيلم صحبة زوجته ووزيره للثقافة. شاع النّبأ لدى جميع العاملين في دار الإذاعة والتلفزة. كان الخبر جافّا، لا طائل من ورائه، نشّط التكهّنات والإشاعات فقط. لكن لم ينقض يوم الاثنين حتى استدعى مدير التلفزة المخرج ليلا وأبلغه رضا رئيس الدّولة عن الفيلم، وأنّه يأمر فقط بحذف مشهد

واحد من الشريط. المشهد الذي يَحْرُق فيه مجموعة من الطلبة الزيتونيين علم فرنسا عند اندلاع المظاهرات. قال الرّئيس إن ذلك المشهد لا يليق بالنّاس المتحضّرين ولا يرتكبه سوى برابرة. فالأعلام هي رمز لسيادة الأوطان، وهي شارة الشعوب والأمم الحديثة، تتمتّع لديها بنفس قداسة رموزها الوطنيّة والدينيّة والحضاريّة. وحرق الرّموز لا يعدّ عملا نضاليّا بل هو دليل التهوّر والبشاعة والهمجيّة. قال الزّعيم إنّنا نربأ بمجتمعنا أن يسقط في ذلك، لأنّنا حين قاومنا الاستعمار الفرنسي لم يكن ذلك للقضاء على فرنسا، ولكن لأننا نحبّ الاستقلال والسيادة لنا ولغيرنا. قال المخرج لمدير التلفزة، وهو مغتبط برضى الرّئيس عن الفيلم، وفي الوقت نفسه مشفق على تلك اللّقطة من الحذف، التي بذل في تصويرها مجهودا جبّارا: "شكرا للسيّد الرّئيس. ولكن فرنسا غزتنا تحت راية العلم الفرنسي. ذلك العالم اتّخذ دلالة استعماريّة لدى الشعب وفي مخيّلة الناس. وحين يقوم المتظاهرون بحرقه فهم يحرقون تلك الدّلالات بالذّات!" أجابه المدير بحزم، وكان من رجالات بورقيبة الخلّص: " المسالة لم تعد للنقاش. الفرنسيّون لم يحرقوا علمنا فلماذا نحرق علمهم في الفيلم؟ اعتقد، شخصيّا، أن رأي بورقيبة صائب، وهو محق فيما أبداه. ينبغي أن تحذف تلك اللّقطة! حذفها لن يؤثّر على شيء من سياق الفيلم وأحداثه. ثمّ علينا أن لا نساهم في تهييج الناس بالإصرار على تأبيد الدّلالات! لم نعد في حرب مع فرنسا. هذا واضح، لقد ولّى عهد الاستعمار. أصبح الفرنسيّون يحترمون مشاعرنا فلنحترم مشاعرهم نحن أيضا! وأن لا نهينهم في رمز سيادتهم بحرق علمهم،

حتّى وإن كان في فيلم يستعيد الوقائع التاريخيّة ويستلهم بعضها. نحن لا يمكن أن نستعيد التاريخ كلّه. هذا محال! إذن، فنحن مجبرون على أن نستعيد من وقائعه تلك التي تدفع بنا إلى الأمام، وتحرّرنا من العقد والأحقاد، لا تلك التي تكبّلنا وتؤجّج الأحقاد من الجانبين".

كانت فرحة عارمة لدى جميع العاملين في الفيلم. أقامت دار الإذاعة والتلفزة على شرفهم مأدبة عشاء فاخرة في نهاية الأسبوع. كانت شهرزاد نجمة السّهرة الأولى، رغم أنّها لم تكن النجمة الأولى في الفيلم. حضورها أدار أعناق الرّجال، وجعلت الجميع يفكّرون في الحبّ وفتنة الجسد الباهرة. وما أضفى على شهرزاد رونقا خاصا هو تلك الكياسة وذلك التحفّظ اللذان أبدتهما في التعامل مع المحتفلين، مع مسحة من الأسى الشفيف كانت تجلل ملامحها وتجعل عينيها شبه زائغتين بفعل الكوارث المتلاحقة التي رأتها تلكما العينان الواسعتان الجميلتان. كان الجميع يمرحون ويصخبون ويشربون ويتقرّبون إليها ويتودّدون، في حين أنها كانت تشعر في داخلها شعورا مُمِضًّا باعتباطية كل شيء، وبلا معنى كل هذا الذي تعيشه ويحيط بها. فرح الآخرين أثار فيها الكآبة والإحساس بالغربة. خالط وعيها إدراك فظيع بأن هذا المطعم البهيج ليس سوى مقبرة يتجمّع فيها بعض الأموات الميّتين موتا مؤجّلا! أو هم أموات ماتوا وأحيوا إلى حين، ليتلهّوا قليلا، ويأكلوا ويشربوا ويمرحوا ما طاب لهم، ثم لن يلبثوا طويلا حتى يعودوا إلى الأجداث والسكون الأبدي الفارغ!

أحسّت شهرزاد بجفاف في حلقها. مدّت يدها لتبلّل ريقها بجرعة

ماء. اضطربت يدها وسفحت ما في الكأس. ألّمت بها في تلك اللحظة نوبة صرع. راحت تتخبّط بجسد متصلّب يسيل من بين شفتيها زبد ورغوة. كانت النوبة عنيفة وكاسحة إلى درجة بلّلت شهرزاد معها سروالها الداخلي. احتشد أهل السهر حولها، وتحلّق الجميع يحيطون بها، وهي ملقاة على الأرض. كانوا يشاهدون، في حيرة وارتباك، التواء التمثال الفاتن وانهياره، وفظاعة تقلّصاته وتصلّباته وتشنّجه وما انقلب إليه من شحوب واصفرار، وسقوطه المدوّي في البشاعة والتحلّل. الجسد نفسه، الذي كان، توّا، مثال الكمال والفتنة، ينقلب إلى حطام، إلى شيء كريه، يلوّث نفسه بزبد البصاق والبول، ويثير الاشمئزاز والغثيان.

قال المخرج وهو يوسّع له طريقا بين الحشد ويدفع المتحلّقين بكلتا يديه: "ما اشمتكم! تتفرّجون ولا أحد يتحرّك! هل هذه فرجة؟ لعنة الله عليكم! الشماتة في دمكم! تحرّكوا من هنا يا أولاد الكلب. تحرّكوا..!" قرفص المخرج حذو شهرزاد الملقاة المدمّاة. أسْعِف بقارورة عطر من بين الحشد المتحلّق. رشّ منها على وجه شهرزاد ومسح بيده الزبد الأبيض السائل من فمها. قرفصت بجانبه ممثلة ثانويّة، عظيمة المؤخّرة، وشدّت يد شهرزاد اليمنى، وفتحت أصابع اليد، ثم أغلقتها على مفتاح حديدي طويل. أنشأت تدير المفتاح في اليد المتيبّسة المضمومة لتفتح عقدة الصرع وتخلّص شهرزاد من أقفال مرضها.

ليلة امرأة القطط

كان يوسف عبد الناصر صديقا للمخرج. تعرّف عليه منذ أيام الدراسة الجامعية. توطّدت العلاقة بينهما بمرور الوقت رغم اختلاف طبعهما. كان يوسف مدعوّا لحضور مأدبة العشاء على نخب إجازة الرئيس لعرض الفيلم. حدّثه صديقه المخرج عن الممثلة الجديدة شهرزاد التي تكبرهما ببضع سنوات. روى له، وهو فاغر الفم، كيف تحوّلت الممثلة من هزيلة عجفاء إلى شابة تفيض صحة وحيوية وبهجة، خلال بضعة أيام فيما يشبه المعجزة. لم يهتم يوسف بالمسألة. إنه يحتقر هذا النوع من الحكايات ومن النساء. حين شاهد يوسف شهرزاد عند بداية الحفلة، وهي في كامل أناقتها وروعة جمالها الساحر، وكيف كان الحاضرون يحومون حولها كالذباب، شعر بالبُغض تجاهها ونفر منها، متجنبا منذ البداية، إيلاءها أي اهتمام. كان يوسف بطبعه يرتعب من النساء عموما، والجميلات خصوصا. كان ينوي أن يُمضي حياته أعزب. منذ أن بلغ ربع قرن من عمره أغلق هذا الملف وحسم الموضوع. كان يقول لمن يفاتحه في أمر الزواج إنه قرّر أن يتزوج المعرفة، وأن ينجب بحوثا لسانية رائدة في اللغة، فذلك أنفع لدولة الاستقلال! كان بذلك

الردّ يرغب في إخفاء مأساة عمره، ويتستّر على جرحه النازف كلما فكّر في النساء. لقد تغلغلت في صميم كيانه قناعة أنه ليس مثل الرجال، وبلغ به الاعتقاد أن بإمكانه أن يفعل أي شيء في هذا الوجود إلاّ أن يلج امرأة، فذلك مستحيله الشخصي. أية طاقة جبّارة يحتاجها حتى يرفع وتده ويجعله منتصبا، صلبا وقاسيا، يشقّ اللحم نصفين دون أن ينكسر الوتد أو يرتخي. كان يعجب من ذلك الفعل ويعدّه من الخوارق: كيف يدخل في جسد إنسان آخر، بأي مفتاح منتصب سيدير القفل ويتغلغل في الأعماق؟ أية طاقة جبّارة يمتلكها الناس للدخول والخروج في بعضهم البعض بلا مبالاة؟!

دائما كانت تعوزه تلك الطاقة في مواجهة النساء. ويشتدُّ به الضمور والذبول فيلوذ بالعادة السريّة يَجلد بها نفسه ويتعذّب لوحده برائحة سائله النفّاذة. سائله المهرق على كفّه. منذ صباه لازمه اعتقاد بأن له قضيبا مختوما، مُلَثّمًا ومحتجبا، لا يصلح للاستعمال الجنسي، وإنما للتبوّل والعادة السريّة فقط. لن ينسى صباح ذلك اليوم، بعد شهر من وصوله إلى مدينة المعصرة ملتحقا بأمه دلندة وجثة والده مازالت بين عينيه لم توارَ التراب بعدُ، يومها تحلّق صبية الحيّ وأقاموا مباريات تبوّل. كانت قاعدة المباراة تشترط أن يفوز الصبيّ الذي بمقدوره أن يرشّ بوله لأطول مدّة ولأبعد مسافة من الآخرين. كان الصبيان يضغطون على مقدمة عمّاراتهم الرشاشة، ويتفنّنون في ذلك، حتّى يتجمّع السائل المضغوط، ويسلك مجرى مشدودا بالأصابع، فيندفع نحيلا إلى أبعد مدى. كان جميع الصبيان مختونين، وقضبانهم الصغيرة ذات رؤوس

وردية أو قرمزية لامعة ومتحررة من الجلد المسحوب إلى الوراء. كانوا يتبولون دون حاجة إلى كشط جلدة القضيب إلى الخلف، وننزع قِلْفَتِها من مقدمة الرأس، مثلما الشأن عند يوسف. لقد ختنهم آباؤهم ليصيروا رجالا مكتملي الرجولة. أما هو، يوسف عبد الناصر، فقد قُتل أبوه عزوز عبد الناصر، قبل أن يؤدي تلك المهمة. قتلوه وهو الذي ينوي إقامة حفلة ختان عامة تتزامن مع احتفالات الشعب بالانتصار على الاستعمار. نذر ختان ابنه ليوم النّصر العظيم. طهارة ولده مع طهارة البلاد. كان يوسف حين قابل والدته، مثلما جاء ذلك في ليلة طلوع الجان، استحى أن يحدّثها عن شيئه السفلي المستور، عن لثامه الجلدي الذي لم يُنتزع، حتّى يتمكّن من المرور من الطفولة إلى الرجولة. دعاه الصبيان لمشاركتهم في مباراة التبوّل. هَمَّ بفتح سرواله. في مقدوره أن يبول مثل الآخرين. حين دسّ يده اليمنى في فتحة السروال وأمسك عمّارته سرت قشعريرة حادة في بدنه. أسرع بسحب يده وركض مبتعدا عن الصبية. كان يسمع من خلفه الضحك الشامت والهتاف الشرير: "موش راجل. يوسف ولد دلندة موش رجل. هرب، موش راجل!"، من يومها هجر صبيان الحي، وعمل بهمّة ليأخذ ثأره منهم، بإثبات رجولته في الدراسة. نال أعلى المراتب في التّعليم، وعُيّن أستاذا مُبرّزا في الجامعة ولم يتجاوز سنّه منتصف العقد الثالث حين كان أساتذة الجامعة أندر من مطر الصيف، ولكنه ظلّ يشعر بنقص رجولته، وبأنها مطعونة ومعطوبة. تيقّن يوسف أن لا شيء يعوّض شيئا. وأن المعرفة لا تعوّض شيئا سلبته منّا الطبيعة، أو طمسته فينا الثقافة وأفسده المجتمع.

في بداية التحاقه بالجامعة طالبا خاض يوسف عبد الناصر تجربتين جنسيتين متواليتين ومجهضتين، انكسر على إثرهما تماما. في ذلك المساء الشتوي، بعد أن تناول العشاء في المطعم الجامعي بدار المعلمين العليا ببوشوشة، لم يشأ أن يلتحق بغرفة المبيت ليذاكر دروسه. قرّر القيام بجولة ليلية يتمشى فيها قليلا، ليساعد معدته على هضم وجبة العشاء ذات اللّحم القاسي الذي تستورده البلاد مجمّدا، أو يوهب لها من قبل الدول المانحة، وقد مضى على ذبحه سنوات طويلة. كان الطقس باردا وصحوا. كفّت المطر عن الهطول مخلفة بركا من الماء في شارع ٢٠ مارس الطويل. كان يوسف، صبيحة ذلك اليوم، قد استلم مبلغ المنحة الجامعية. فكّر في أن يطيل جولته الليلية ويرتاد قاعة سينما للتفرّج على فيلم. عدل عن تنفيذ فكرته، لأن العرض الليلي ينتهي في حدود منتصف الليل، وعليه العودة إلى المبيت قبل الساعة العاشرة، حتّى لا تقع له مشاكل ليلية. كان شارع ٢٠ مارس، شارع الاستقلال، خاليا وشبه مظلم. بعض الفوانيس الكهربائية المتباعدة تشتعل وينبعث منها ضوء شحيح. رأى يوسف من بعيد شبحا أبيض يخرج من زقاق فرعي في اتجاه وسط مدينة باردو. لم يكترث للأمر. مشى قُدما. تقلصت المسافة بينه وبين الشبح. امرأة تلتحف السفساري وتمشي ببطء. كأنها تفعل ذلك متعمّدة. خاف يوسف منها ولكنه أرغم نفسه على متابعة السيْر. قبل أن يلتحق بها تلفّتت له ثلاث مرات متتاليات بخفر المحترفات. زادت تلك الحركات من خوفه وأثارت لديه التوقعات. حاذاها مرغما. كان يقصد المرور وتجاوزها. لم ينظر إليها. ضايقته عند مروره بها.

نظرت إليه وهو مندفع وباغته بصوتها: "خويا عندكش وقت؟ قدّاش الوقت يعيّشك؟" كان صوتا متكسّرا، اقتحاميا، متلاعبا وسافلا، يُنذر بالتهديد. حاول يوسف، وهو منخلع الأوصال ومهزوز المعنويات، أن ينظر إلى الساعة على معصم يده اليسرى. كان الضوء شحيحا فلم يميّز بدقة مواقع عقارب الساعة. كانت حركته خرقاء وبلا نتيجة.

باغته صوتها مجددا: "آش بيك تفجعت؟!"

بدت عليه بالمكشوف أمارات الفجع.

سؤالها وطريقة تلفظها أحدثا فيه الفجع، ولم يعرف كيف يجيبها.

قالت له وهي تساير خطواته المتعثرة، التي يحاول بها أن يتماسك: "بيتي قريب من هنا. خطوتان من هنا. هل معك فلوس؟".

لم يعثر على جواب وظلّ صامتا. لم يعرف كيف أومأ لها برأسه علامة إيجاب. هل هو من فَعل ذلك؟ لا يدري!

قالت له: "اتبعني". وأخذته من يده. فسحب يده بتمنّع هيّن.

أسرعت فأسرع في إثرها كأنه مسرنم. دارت دورة أولى فثانية فثالثة فرابعة. بعد بضعة أمتار دفعت على يمينها بابا خشبيا قديما بكتفها. أحدث الباب دويّا وصريرا مكتوما. في البهو الصغير واجهته رائحة الرطوبة وبلل الجدران. دلفت إلى غرفة واطئة وسحبته من يده. طوت لحاف السفساري وأشعلت ضوء الكهرباء بحركة واحدة من إصبعها السبّابة. كانت غرفة ضيّقة وخالية من الأثاث. فقط حصير عليه حشيّة صوف. في الضوء المبهر بانت المرأة قصيرة ممتلئة، بوجه أسمر مكتنز، وشعر مجعّد. لمّة من اللحم المتحرك. خطر له أن هذه المرأة لها فروج كثيرة

لا فرجا واحدا. فكّر في الهرب. ولكنه لم يهرب. بقي متسمّرا ببلاهة وقد ازداد ارتباكه. حوّل بصره عنها وركّزه على المفتاح الكهربائي. تمنّى أن يكون مثل الكهرباء له زرّ يُفتح منه فيَشتعِل.

قالت: "أنت حاشم؟ آش بيك حاشم؟ ما تحشمشي؟"

لم يعثر على جواب، مرّة أخرى، ظلّ صامتا يبحلق بعينيه. لم يعد يدري أين يعلّق بصره.

قالت له مبتسمة: "مازِلْتَ عذراء، مازلت مشمّعا مقفلا؟ لا عليك! ستفتض بكارتك الليلة وتتكسّر لتصير مثلي، فقط هات دينارين وسأفتح في وجهك الأبواب للدخول إلى جنّة الرجال..."

نقدها ورقتين من فئة الدينار. حين أخرج الورقتين النقديتين وطواهما، ظلّ وجهة بورقيبة بارزا على شطر الورقتين المطويتين. تذكّر أن الرئيس قال في التلفزة أن له خصية واحدة مكّنته من الإنجاب. كان الرئيس يلمّح إلى أنه ليس من الضروري أن تكون للمرء خصيتان ليكون رجلا. خصية واحدة فيها الكفاية والبركة، فلا تأبهوا للأمر! ما تذكره شجعه قليلا. هو ليس مثل الرئيس. إن له خصيتين كاملتين. المشكلة في القضيب، الذي مازال مختوما ومتسربلا بجلدته، كأنه عمّارة طفل لا تصلح للتعمير. أخذت المرأة الدينارين وطوتهما بشكل مضاعف، ودسّتهما بين نهديها المشدودتين بالسوتيان. نزعت كيلوتا أحمر صليبيا ورمته، بقيت في ملابسها الأخرى.

قالت له: "هيّا انزع!"

أدار لها ظهره ونزع بنطلونه والكيلوت. بانت لها مؤخرته ضامرة

ومصقولة وليس عليها شعر كثيف. حين واجهها كان قضيبه مجعّدا وخانسا، يزداد انكماشا كلّما شارفت لحظة الطعن، ينسحب أكثر لائذا بشعر العانة ليختبئ.

قالت له: "اقترب، سأعاونك!"

كانت عانته مهتاجة الشعر تكاد تخفي ذلك الشيء الخانس. مدّت يدها. مدّت يدها ومسحت على الخصيتين فاستجابتا وتدلتا قليلا. ارتقت متأنية بأصابعها، وكانت مغمضة العينين، وكان يوسف واجف القلب. تلمست الشيء المنكمش بخفّة، ثم أحاطت به وقبضت عليه براحتها. كانت كمن لدغ. فتحت عينها فزعة وسحبت يدها في ذعر وهي تقول: "اللّطف، يا لطيف! لست مطهّرا! لست مختونا! لست عربيا! لست مسلما!.."، ثم هدأت قليلا ويوسف يبحلق فيها ولا يقول شيئا. قالت: "اذهب يا ابن الناس في حال سبيلك. هذه فلوسك. خذها! لن أفعلها مع إنسان غير مطهّر! غير مسلم! أنا ما نيشي كافرة يا ولد النّاس! حرام في ديننا! أنت لست مثل رجالنا! حرام أن يدخلني متاع غير مطهّر! ووه... أنا أعرف ربّي! هاك. خذ فلوسك، ابحث بها عن نساء من ملّتك!.."

في الخارج عاد المطر ينثال. كان يوسف يعفس بلا رويّة على أرضية النهج المبلّطة ولا يحاول اتقاء نثيث المطر. لم تكن بين عينيه سوى صورة والده المقتول، ملقى بإهمال في بركة ماء موحلة. كان المشهد بكل تفاصيله بين عينيه، رغم مرور سنوات طويلة على الحادث. تكرّر في نفس يوسف الحديث ذاته. كان على ذلك الوالد أن يعطي الأولوية

لتحرير ابنه من لثام جلدته قبل التفكير في تحرير البلاد. أن يدخله إلى دين الإسلام قبل مواجهته الموت على أيدي رفاق التحرير. أن يدخله إلى ذلك الدين الذي لا يدخله إلاّ المطهّرون الذين ختنهم آباؤهم. ذلك الدين الذي لا يدخله إلاّ من سال دمه وقدّم قطعة صغيرة من جلده برهانا على إسلامه، على نصف دينه، في انتظار النصف الثاني الذي يتحقّق بالزواج. كان يوسف يمشي، يحرّك رجليه ويحسّ أن شيأه يتقلص أكثر ويوجعه. جثة بلا رأس محاطة بنبات شوكي مدفونة بين فخذيه. جلدة صغيرة، مجعّدة وتافهة تنكمش وتشقيه، وتحول بينه وبين الانتماء لدين هذا المجتمع ولرجاله. كانت رائحة الرطوبة والجدران المبلولة تتوحّد في أنف يوسف مع رائحة تلك المرأة التي لم يقدر على الاقتراب منها ولم يقدر على شمّها، ومع ذلك فهو يعرف رائحتها، رائحتها التي توحّدت لديه برائحة الجدران الرطبة المبلولة. كانت الرائحة تملأ خشمه وتملأ صدره وتضيّق لديه التنفّس.

كانت القطط السائبة تملأ النهج مثلما تملأ رائحة المرأة المبلولة أنفه. يعلو زعيق القطط ومواؤها الشرس في هذا الوقت من شهر يناير (آي النّار)، موسم اللقاح لديها والفتك. قطط كثيرة تتقافز وتكشّر عن أنيابها ومخالبها، غير عابئة بالمطر ولا بالبرودة ولا بحالة يوسف ولا بشيء آخر. تتنافس كلّها في إطلاق أصوات جارحة، قاسية وطويلة، استعدادا لخوض صراع قاتل من أجل متعة النكاح. تتسافد بصخب ودموية، وتتحوّل أصواتها الشديدة الفظيعة إلى أصوات بشرية تصرخ بغلظة وتباريح. هذه القطط الهائجة المدفوعة بغرائز الحيوان البدائي

وبالسعار الجنسي، هل هي مختونة أو مختومة؟! هل يجري لها ما يجري للبشر؟ هل لها دين وآباء قتلى وأوطان وانتماءات قاتلة ومقتولة؟ هل ثمة قطط مسلمة وأخرى غير مسلمة؟ ولماذا يُسمح للحيوانات، أو تسمح لنفسها، أن تكون بلا هوية ولا دين؟ لماذا لا يكون هناك حمار مسلم وآخر مسيحي، واحد مختون وآخر مختوم، لا يلتقيان ولا يتبادلان المواقع، مع أن جميع الحمير لهم قضبان فائقة الطول، فائقة الانتصاب، هل ذلك لأنهم حمير؟ وهل للقطط إناث عفيفات محافظات وأخريات عاهرات ملوثات؟ هل لها ذكور متأزمون يعانون الخصاء ولا يرعوون؟!

تمنّى يوسف أن يكون قطّا أسود وسط هذه القطط الرهيبة. وأن يتمرّغ مثلها في الوحل، ويثب ويقفز ببسالة، وينشب مخالبه، ويتحاشى ذيل القطة ويدكّ متاعه فيها. شرع يوسف يطلق عواء ومواء طويلين، يحاكي أصوات القطط الهائجة. كان الشارع خاليا. انتبه إلى حالته التي أشرفت على الجنون، وواصل إطلاق صوته المتوحش. اختلط صوته مع أصوات القطط، امتزج بها واختلط معها وتلاشى فيها. انحنى يوسف يحاول أن يمشي على أربع، وهو يطلق صوته. لا ذيل له من أمام ولا ذيل له من خلف. ذعرت القطط من الصوت البشري ومن صاحبه يتتبّعها. كان حالما يمرّ بمجموعة قطط يشتّت شملها بسلوكه الممسوخ، فتتفرّق في كل الاتجاهات، ولا يقدر على اللّحاق بها، لتعود من جديد حين يجتازها إلى أخرى.

عاودته فكرة ختن نفسه بيديه!

وعاوده الاعتراض نفسه: «ما علاقة الختان بالانتصاب في حضور

امرأة؟».

إن متاعه ينتصب بشكل فولاذي فقط عندما تنشط المخيّلة ويحتضن شيأه بيده. حين ينتصب ذلك الشيء تنقشع جلدته وتغدو مشدودة وقاسية، تحتقن تحتها العروق المتوتّرة المليئة بالدماء الحارة، فيسفر شيؤه عن لثامه، ويظهر رأسه الأملس الرطب المهيب. يظهر شامخا وعتيدا. شكله من فوق يشبه نبات الفقاع ولكن بمظهر متورّد، أقلّ استدارة من الفقاع، ومخروط في مقدمته واسطواني في طوله. يستقيم راسخ التجذّر في العانة. عظيم الشأن في تمدّده. يتطلع بقامته المستقيمة الصلبة، وهيئته المتمدّدة نحو السرّة، إلى سماء المتعة المظلمة. حين يكون على تلك الهيئة لا يمكن تمييزه إن كان مختونا أو مختوما. حين تنتصب القضبان وتتهيأ للفعل والاقتحام تصبح لها جميعا نفس الملامح والخصائص، ولا يمكن الفرز، وقتئذ، بين قضيب مسيحي وقضيب مسلم. لكنها حين تنكسر وتنكمش تَبرز هويتها من جلدتها. مَثلها في ذلك مَثل الحضارات الذابلة والأخرى المنتصبة.

حضارات الانكماش والاستمناء وحضارات التمدّد والفعل الجنسي المخصب... وجلدة يوسف التي لم تقصّ في طفولته غدت عائقا ذهنيا يتغذّى من الهلوسات والتوقعات، وجعلته يخاف من أن لا يستطيع تحقيق الولوج في (امرأة ليلة القطط) ـ كما سمّاها فيما بعد ـ فتحوّل خوفه إلى حقيقة. حقيقة كان يؤجلها ويتفادى مواجهتها. كان يعرف أنه حين يكون منفردا مع نفسه يشعر بالارتياح وبرجولته التي لا بأس بها. ولكن حين يفكر في الآخر، في النساء، في الحوار الجسدي المباشر،

يصاب بالعنّة والضمور.

لم يخطر على بال يوسف الاستسلام. كان مطعونا محطما يشعر بالفراغ وببؤسه. مع ذلك لم تفاجئه كثيرا النتيجة المؤسفة التي حصلت مع امرأة ليلة القطط. كان ينتظر تلك النتيجة منذ زمن بعيد. لكن الذي لم ينتظره هو كيفية وقوعها والمرأة التي حصل معها ما حصل. فكّر: إنها امرأة لا يعرفها ولا تعرفه، وهذه نقطة إيجابية تحسب له. فتلك المجهولة لن تتمكن من إشاعة أي شيء عنه وإفشاء سرّه لأحد. سرّه في بئر مجهولة.

كان يوسف يعتقد أن الأقسى من الإصابة هو رواجها، وإتاحتها للخلق للولوج فيها وتعميقها حتّى تتعفّن أكثر بلعاب ألسنة السوء، وتصير لا يرجى لها شفاء. ثم إن تلك المرأة قد نبّهته، من حيث لا تدري، إلى مسألة مهمة: «أن يبحث عن نساء من ملّته». حسبته مسيحيا أو كافرا. من بقايا الاستعمار الفرنسي، «فليكن!» قال يوسف. ليس المهم أن يكون الواحد مسلما أو مسيحيا أو وثنيا أو هندوسيا أو ملحدا، المهم أن يتوصل إلى التغلغل في امرأة وأن ينبعث فيها من جديد. أن يكون معها قطّ مع قطة. امرأة تقبله وتتفهمه وتعينه على ما هو فيه. لا تتحدّاه ولا تواجهه. تتيح له فرصة الدخول والخروج بسلام، مهما كان الوقت الذي تتطلبه المهمة.

خطر على بال يوسف ليلتها ماخور سيدي عبد الله قش في مدينة تونس العتيقة. سمع ذات مرّة زملاءه الطلبة يتحدثون عن أجنبيات من غير العربيات يعملن في الماخور. بات ليلتها يفكّر بالأجنبيات، من غير العربيات ومن غير المسلمات، العاملات في سيدي عبد الله قش. لعلّ

حظه معهن يكون أفضل. خصوصا وهن قادمات من بلدان يحتفظ فيها الرجال بجلدة قضبانهم ولا يتعرّضون للختان. تفقّد متاعه المختوم وجنح خياله إلى ملامح الأجنبيات وأجسادهن ولغاتهن. اطمأن إلى أن سلاحه لم يتضرّر كثيرا من تلك الواقعة الساقطة مع امرأة ليلة القطط.

كان لدى يوسف أمل كبير، إذا مشت الأمور مع الأجنبيات على خير ما يرام، أن يترك قومه المختونين ويلتحق بأقوام أخرى مختومة، حيث لا يضطر الرجال إلى دفع قطعة من جلد متاعهم لينتموا إلى دين وإلى مجتمع. المهم أن تنجح التجربة.

في بداية الليل جفاه النوم. استعاد ملامح امرأة ليلة القطط. تذكّر أن نظرته الأولى، التي ألقاها عليها عندما أشعِل الضوء، وقعت على حاجبيها الرفيعين جدّا والعاليين، وأن مساحة اللحم بين الحاجبين والعينين مساحة واسعة مقببة ومنتوفة الشعر، بما يضفي عليها شيئا من التكوير المثير. تكوير يذكّر بالعانة وبقباب أولياء الله الصالحين. اشتهاها يوسف الآن بقوّة. ثم تعجّب كيف أعادت له الدينارين! ثم ما علاقة هذه القحبة، بالذات، بالمسلمين وبغير المسلمين؟ بالمختونين وبغير المختونين؟ وتساءل يوسف وهو مهتاج: «هل فرجها مسجد تتعبّد فيه الأيور حتّى تشترط عليّ الختان؟!».

ليلتها لم يعثر على أجوبة عن تساؤلاته تشفي غليله وتبدّد حيرته. لكنه، بعد فترة طويلة من ليلة امرأة القطط، التي بقيت وقائعها عالقة بذهنه، وجد أجوبة غير مباشرة عن أسئلته المباشرة.

كان ساهرا مع كتاب هلال الأحد العائد لتوّه من بلاد الشام. شرع

كتاب «بحار الكائن الخائن» يحدّثه عن الطوائف والأديان في لبنان وسوريا وفلسطين والعراق. روى الكتاب كيف يمنع المسيحيون، المتديّنون وغير المتديّنين، بناتهم عن المسلمين. وكيف يمنع المسلمون بناتهم عن المسيحيين، وكيف يمنع المسلمون السنّة عن المسلمين الشيعة بناتهم والعكس. وقرأ كيف أن الزواج بين الديانات المختلفة والمذاهب والطوائف المختلفة متعذر ومنبوذ من قبل الجميع. مع أن المسلمين يحلّون لأنفسهم نكاح المسيحيات واليهوديات ويحرّمون على الذكور الأغراب عن دينهم مضاجعة النساء المسلمات. قال له الكتاب أن أمة الإسلام أمّة ذكورية تحبّ أن تفعل بالآخرين ولا تحبّ أن يُفعل بها. وفي فقرة أخرى كتب هلال: «من الأفضل لهذه الأمّة أن تتحوّل إلى أمّة أنثوية حتّى لا تنقرض. فهي الآن متجذّرة في ذكوريتها، ومع ذلك فهي تخضع عنوة لشعار علقمة (ناكونا أو ناكونا). فالذكر حين يُنكح فلا رحم لديه ولا أمل منه وفيه. لا يمكن له أن يحضن البذرة ويهيء لها مناخ الخصوبة. إن الأمم الذكورية المحضة مآلها إلى زوال».

قصّ هلال في كتابه: «بحر الكائن الخائن» حكاية الكاتب الفلسطيني الذي عاش في العراق وكيف كان مسيحيا وحين رغب في الزواج من سيدة عراقية من عائلة مسلمة مرموقة في المجتمع العراقي اضطرّ لإعلان إسلامه حتّى يتمكّن من الزواج. استمرّ الزواج إلى حين وفاة الكاتب الفلسطيني المسيحي. جيء بالغسّال لتغسيل الجثمان وتطهيره وفق معهود المجتمعات الإسلامية، حتى يدفن الجثمان طاهرا غير مدنّس. عندما تناول الغسّال الجسد المسجّى اكتشف أن صاحبه

غير مختون فامتنع عن إتمام طقوس الغسل وبالتالي الدفن وفق الطقوس الإسلامية. كادت أن تحدث فتنة اجتماعية ودينية لولا تدخّل القيادة البعثية العليا في العراق. أمرت بغسل جثة الكاتب ودفنها في مقابر المسلمين وأنذرت من يثير القلاقل بأنه سيدفن قبل دفن جثمان الكاتب الفلسطيني، الذي عدّته مسلما بما أنه عاش بهوية إسلامية تفوقت على هويّة قضيبه المختوم».

وأورد أيضا قصة ذلك المثقف المصري ذي الديانة القبطية، الذي يشاع أنه تقرّب من قائد إحدى الدول العربية. كان ذلك القائد متحمّسا للإسلام البدوي. طلب القائد من المثقف المسنّ أن يعلن إسلامه وأن يخضع للختان وهو في سنّه المتقدمة. قبل المثقف التقدمي العرض لقاء بعض الأموال. كان ذلك القائد مغرما بختان الذين يتقرّبون منه من غير المسلمين، ويُبْقي إلى جانبه دوما طبيبا ختّانا معه مقصّ جاهز للقصّ. كان يقايض قادة أفارقة سودا بالأموال السخيّة حتى يعتنقوا الإسلام. من ذلك أنه استطاع أن يختن دكتاتورا إفريقيا مشهورا بالزواج من الفتيات اللواتي لا يتجاوز عمرهن الستة عشر سنة، ومشهورا بأكل لحم الأطفال الصغار مطبوخا في المرق. ذلك الدكتاتور أعلن إسلامه واستلقى بنياشينه الإمبراطورية على ظهره، ورفع ركبتيه وباعد ما بينهما، فاختطف الطبيب بمقصه لثام هراوة الإمبراطور الذي ظلّ لعدّة أيام لا يقدر على لباس سرواله، ويباعد ما بين فخذيه كلما حاول المشي. وحين عودته إلى بلاده ارتدّ عن الإسلام، ولم يردّ المال.

وروى هلال حادثة ذلك المسيحي الذي تساءل: «كيف يمكن

الدخول إلى الإسلام؟»

قيل له: «تُقصّ مقدمة جلدة قضيبك. وتختن وتتخلص من قلفتك». فقال لهم: «إذا دخلت هل يمكنني الخروج؟». فقيل له: «وقتها تعتبر مرتدّا ويُقصّ رأسك!» فقال لهم: «لن أدخل إلى دين يعمّد بالدم عند الدخول وعند الخروج! فالدخول يتطلب اللعب الدموي برأسي السفلي، والخروج يتطلب اللعب، الذي ما بعده لعب، برأسي العلوي! إن دخلت فذلك والله حمق منّي، استحق عليه ذلك وأكثر...»

وتضمن كتاب هلال «بحار الكائن الخائن» فصلا عن الشاعر السينغالي ليبولد سيدار سنغور الذي ولد في عائلة مسلمة قامت بختانه، ولكن هذا الشاعر عندما أمّ المدارس التبشيرية المسيحية تم تنصيره فتحوّل عن الإسلام إلى المسيحية، وظل يعيش مسيحيا مختونا بسلام مع عائلته المسلمة. هذا الشاعر تولّى رئاسة دولة بلده لفترة طويلة، حتى سئم من الحكم والصولجان والهيلمان، فقرر التخلّي سلميا عن السلطة لغيره. كان سنغور صديقا لبورقيبة، وكتب عنه قصيدة غزل طويلة، يمتدحه فيها ويسميه الأسد الإفريقي ذا العينين الزرقاوين اللتين يرى بهما ما لا يراه الآخرون من ذوي العيون الزرقاء وغير الزرقاء.

عندما تخلّى سنغور عن السلطة، بمحض إرادته، بلغ نبأ ذلك إلى الرئيس بورقيبة، فاستاء من تصرّف صديقه الشاعر، وقال قولته المشهورة: «هذا سلوك لا يقترفه سوى زنجي»، أي شخص خفيف العقل وتنقصه الحكمة، ونسي أنه يتكلم بعنصرية عن شاعر فرنكفوني من طبقة الكبار، كان يُبدي له التقدير والاعتزاز.

كان بورقيبة يعرّض بلون الرئيس الشاعر الذي سبق أن امتدحه. فبورقيبة كان يعتقد أن شروط الرئاسة في إفريقيا الدوام مدى الحياة لمن يتولاّها أو يستولى عليها، فسفّه سنغور اعتقاد بورقيبة الذي أزيح عن الحكم بشهادة طبية تثبت طول شيخوخته وخرفه، ولم يتول الرئاسة مدى الحياة كما وقع التنصيص على ذلك في دستور البلاد التونسية كثير التنقيح، وعن ذلك يقول الشاعر التونسي المعاصر أولاد أحمد: لقد كذب علينا بورقيبة ولم يحقّق وعده للشعب التونسي ببقائه في الحكم مدى الحياة، إذ تم خلعه بشهادة طبية تعلن وفاته كرئيس لن يظلّ في الحكم مدى حياته، وذلك قبل أن تنتهي مدّة حياته بفترة تجاوزت العشر سنوات أمضاها يتخبّط في عزلته عن رئاسة البلاد. وحين كان الخدم الذين وضعهم الرئيس زين العابدين بن علي على ذمّة سلفه يسألون الزعيم الخالد عن أحواله الصحية، كان يجيبهم أنها على غير ما يرام بدليل أنه صار يتبوّل في سرواله، فكان الخدم يعقّبون مشفقين على زعيمهم، لا بأس عليك يا سيادة الرئيس فأنت دوما بخير، فيغضب بورقيبة ويقول لهم: «أنا أعرفكم جيّدا. أنتم تحبّون من يبول عليكم لا من يبول في سرواله...»

وضع هلال هامشا في خاتمة كتابه «بحار الكائن الخائن» يقول فيه إن القائد العربي الذي كان مولعا بختان ضيوفه كان يعتقد أن القضيب هو قلم رصاص مشذّب ومبريٌ جيّدا، وذلك هو بالضبط معنى الختان عنده. أن لا يكون القلم مختوماً بل مكشوفا، حاسر الرأس، ليبدع في كل حين نصوصا أو أطفالا يعمّرون الكون.

سأل يوسف نفسه: «القلم واللسان، أية علاقة محكمة تجمع بينهما؟».

قالت له دانيال باللغة الفرنسية:

ـ لا شيء... اللسان يغنيك عن القلم!

كانت قد سألته قبل ذلك: «ما هي مهنتك؟»

أجاب يوسف:

ـ أدرس بالجامعة. أدْرسُ اللغة. اختصاص لسانيات.

ـ آه، لسانيات... أنت من جماعة اللسانيات؟ لك وضع جيّد!

ـ مثلما قلت لكِ. لساني.

ـ اللساني لا خوف عليه مادام بمقدوره أن يلحس!

في صبيحة اليوم التالي لحادثة ليلة امرأة القطط قصد يوسف منطقة سيدي عبد الله قش بوسط المدينة العربي بالعاصمة تونس. في الطريق كان يدعو الله أن يشدّ من أزره ويوفّقه في مهمته. مرّت عليه فترة طويلة لم يدعُ فيها الله لطلب العون. لكن مهمة المضاجعة الأولى في حياته تستحق أن يطلب لها العون السماوي. كان ذاهبا ليبرأ، كما لو أنه يقصد مستشفى. كان يفكّر أن هذه المواخير هي رحمة من عند الله. تذكّر أن المجتمع التونسي رحيم بنساء المواخير حين يسمّيهن «الصابرات» ويتولى رعايتهم الصحية دوريا ليكنّ على أفضل حال لتعاطي مهنتهن الشاقة. من جهته، سوّل له ذهنه تشبيه المومسات بالممرضات أو الطبيبات. وتخيّلهن يرفلن في أردية بيضاء، نظيفة ومعقّمة، ويوزعن المتعة والهوى على الزبائن في أطباق من فضّة بسخاء. ما أكرمهن! يداوين الناس نفسيا

وعضويا، فمن يقوم بمداواتهن لا مجرد رعايتهن الصحية ليستمررن في الخدمة المرهقة؟

قبل ذهابه أعلن لبعض زملائه في الطابق الثاني من المبيت، في مباهاة، أنه عازم على الذهاب، اليوم، إلى سيدي عبد الله قش، وأنه لن يحضر حصص الدروس. إعلانه ذلك تمّ من أجل إشعار الآخرين أنه رجل مثلهم، بل هو رجل أكثر من البعض منهم، مادام يتجرّأ على نساء المواخير. كان في حاجة إلى صفة داعر وفاسد تخلع عليه من قبل الزملاء. ليت له قضيبا مختونا، على سنّة الله ورسوله محمد، ليُفسد به في الأرض! نصحه أحد الزملاء، من ذوي الخبرة في ارتياد مثل تلك الأماكن، أن يبكّر في الذهاب إلى تلك البيوت، حتّى يأخذ نصيبه من إحدى النساء، حال نهوضها من النوم. وقتها تكون مازالت منتعشة ونظيفة، قبل أن تُنْتَهك من قبل الآخرين، فيملأونها سوائل. شدّد ذلك الطالب على يوسف كي يحرص على اختيار «دانيال» أو «جوليات» الفرنسيتين المعروفتين، لأنهما مخلصتان في شغلهما، خلافا للعربيات المتقاعسات دوما حتّى وهن يَقْحُبن.

دانيال وجوليات مشهورتان بأسعارهما المناسبة وشغلهما المتقن الذي يُشبع حاجة الحريف ونزواته، وهما يمنحان وقتا كافيا للزبائن. كان يوسف عازما على الدخول لغير المسلمات حتّى بدون توصية زميله، وذلك لأسباب تتعلق بتجربته الفاشلة مع امرأة ليلة القطط.

كان الوقت مبكّرا جدّا على هذه مثل هذه المهمات الداعرة، الثامنة صباحا. تجوّل يوسف على غير هدى في بعض أنهج المدينة العتيقة.

خطر له أن يحلق شعر رأسه. عقد مقارنة بين رأسه العلوي ورأسه السفلي. انطبع لديه أن الحلاقة نوع تعويضي للختان. وصل إلى نهج سيدي عبد الله قش محلوق الرأس. بدأت الحركة تدبُّ في النهج. كانت بعض النسوة يقفن على أبواب البيوت المفتوحة لابسات أثواب شفافة وصدورهن مكشوفة، رغم أن الطقس لم يكن يشجّع على العُرِي، لكن مقتضيات الشغل تحتّم ذلك. كان ثمة سعال، وكان البعض من «الصابرات» يدخنّ سجائرهن الصباحية الأولى بشفاه ملطخة بالأحمر، ممسكات بفناجين القهوة المتصاعد بخارها.

عدّة أنفار يتسكّعون جيئة وذهابا في أزقة الماخور، تنتشر على ملامحهم علامات السُقم. فكّر يوسف بأن هؤلاء جميعا يلوذون بالدعارة منذ الصباح الباكر ليخففوا عن أنفسهم شيئا يؤرّقهم.

مشاهدة النساء العاريات لم تثر يوسف، بل عمّقت ارتباكه وبلبلت خاطره، فوجف قلبه بشدّة. تذكّر دعاء جدّه حمدان الأعمى وقت الملامّات فدعا به: «اللّهم ارحمنا وانصرنا ولا تكلنا لغيرك يا أرحم الرّاحمين». لم يكن يدري هل تذكّر الدعاء كما هو أم حرّفه.

مرّ يوسف أمام كل الغرف المفتوحة والتي مازالت مغلقة. تلقى ثلاث دعوات من قبل العاريات بالدخول ولم يدخل. استحى أن يسأل عن موقع غرفة دانيال أو جوليات. لعلّ الصدفة تحالفه من تلقاء نفسها فيتعرّف على إحداهما بمفرده. إن السؤال في مثل هذه الأماكن يثير الشبهة حول السائل وقد يعرّضه لمكروه. ظلّ يتنقّل من زقاق إلى زقاق في هذا النهج العنكبوتي. فُتح باب على بعد خطوات منه. انطلق منه

رجل بطريقة توحي أنه يرغب في التخفّي حتى لا يتعرّف عليه أحد. تطلّع يوسف إلى وسط الغرفة التي انطلق منها الرجل. كان الباب مواربا قليلا، دفعه يوسف بيده اليمنى برفق لينفرج أكثر. مدّ عنقه في الفتحة المتاحة. داخل الغرفة ينتشر ضوء أحمر شاحب، ويُسمع نغم موسيقي منخفض، وصوت جاك برال يشدو بأغنيته الفرنسية الشهيرة «لا تهجرني». تقدم يوسف وحشر جسده في مدخل الغرفة ليستطلع من بالداخل. استقبله صوت من عمق الغرفة: «تفدّل!». بانت له المرأة الشقراء في الضوء الأحمر كأنها غاطسة في الدم. رأى أنها تبتسم متودّدة مسفرة عن أسنانها البيضاء التي انعكس بريق الضوء الأحمر عليها فبدت حمراء.

فهم من لهجة عرضها بالتفضل إنها إحدى الفرنسيتين دون شكّ!

كانت عارية إلاّ من قطعتين على صدرها وبين فخذيها، وكانت متكئة على السرير. اجتاز عتبة الغرفة فوجد نفسه في الداخل. كانت الغرفة ضيّقة. مترا ن على ثلاثة أمتار ونصف، حسب ما حدّد يوسف مقاسها الهندسي في ذهنه، وتساءل حينها هل أن هذه الغرفة هي مقرّ عمل ومقرّ سكنى لصاحبتها؟

نهضت المرأة وتقدّمت منه واجتازته لتغلق باب غرفتها. أغلقت الباب فأطبق عليه الضوء الأحمر. على يمينه شاهد بضبابية حمراء مغسلا واطئا ومرحاضا مغطى وكانونا صغير يشتعل جمره للتدفئة، ثم آلة تسجيل وسريرا عليه مخدّة كبيرة وليس ثمة ألحفة. كان ما يزال واقفا في مكانه حين ربّتت المرأة على ظهره. استدار لها فرفعت يدها اليُمنى

إلى مستوى صدره وحرّكت أصابعها في إشارة لطلب الفلوس. نقدها ورقتين من فئة الدينار، طلبت المزيد. أضاف لها ورقة بنصف دينار. وضعت الورقات في درج تحت آلة التسجيل. نزعت القطعة السفلى وأبقت العليا وتمدّدت على السرير. مدّت يدها إلى تحت والتقطت قارورة صغيرة، دهنت بسائل منها سبابتها اليمنى، ومرّرت مقدمة السبابة في فتحة فرجها.

قالت له بالعربية: «هيّا».

نزع ملابسه وألقى بها فوق كرسي بجانب السرير تفطن إلى وجوده. أبقى على قميصه الداخلي وعلى الكيلوت. اقترب منها. كرّرت كلمة «هيّا»، وأشارت له بالإصبع ذاته الذي مررته في فتحة فرجها إلى كيلوته. تردّد وهو ينزعه. وقف عاريا حذو حافة السرير. أخذته من يديه، برفق، وجعلته محشورا بين ساقيها. لم يتحرّك فيه شيء! أخذت تفرك بلين وتهزّ تلك الجلدة المنكمشة هزّات خفيفة. كانت يدها باردة. نظر إلى بطنها ولاحظ اللحم المجعّد به أخاديد. لم تيأس المرأة. قبضت على المكمّش بيدها اليمنى. راحت تعصره وتحرّك يدها إلى الأمام وإلى الخلف. ذكّرته الحركات بالعادة السرّية. لا شيء استجاب. لا شيء تحرّك. تمنّى لو تسلّفه يدها ليعود بها إلى المبيت ويفعل بها وحده ما تفعل بها المرأة الآن، إذّاك سيحقّق انتصابا عظيما تعقبه نشوة كاملة. مرّت دقيقة ثقيلة، كأنها دهر، والمرأة تحاول معه، ولكن لا شيء يتحقّق على الإطلاق!

كلّما تحمّست المرأة أكثر، وزادت من إيقاع حركتها، شعر بالانتفاء

والتقلّص أكثر. كان مغمض العينين، يفتحهما بين الحين والآخر، ليلتقط صورة من جسد المرأة، يؤبّدها في خياله، يدفنها في جبّانة عينيه، في قبر حذو مقابر أخرى. اختلس النظر إلى ذلك الشرخ الهائل، إلى الأخدود المنتوف الشعر، الذي تجمعت ما بين شفريه فتافيت من الجلد. تذكّر بقوة مشهد جثة والده، وسمع جلبة الناس، وسمع العويل. انتابته قشعريرة وأحسّ بالخذلان التّام، فارتدّ إلى الخلف، رافعا جذعه وساحبا ركبتيه من بين ساقي المرأة.

قال بنبرة متقطعة وبلغة فرنسية: «شكرا. شكرا. لا داعي لمزيد المحاولة. لا أشعر أنني بخير. لست مرتاحا، إلى مرّة أخرى، مرّة أخرى...». قالت له باللغة ذاتها: «ما بك؟» وأضافت قبل أن تسمع جوابه: «الأموال لا تستعاد سوى فعلت أو لم تفعل!». قال: «لا شيء!». فقالت: «نعم، لا شيء، كل هذا لا شيء... لا ينبغي أن تنزعج. كثير من الناس يحصل معهم هذا. لا بد أن يكون لك مانع نفسي. اتخذ لك صديقة وجرّب معها. لا تيأس. هذا لا شيء، أنت سليم! ما في رأسك هو الذي يعوقك...

خرج يوسف من عندها متجّهما، ينازعه شعور متعاظم أنه لا يصلح لشيء، وإن تلك الجلدة العالقة أعلى فخذيه لا تصلح إلاّ للتبوّل. أمضى يومه متحيّرا متطيّرا، يتذوّق طعم المرارة بجرعات كبيرة. لا يستطيع أن ينتشل نفسه من الغرق في أخدود منتوف الشعر وموحل. خطر له في ذلك اليوم أن يتحوّل إلى لواطي مأبون. فكّر في «ميشال فوكو» الفرنسي الذي كان يدرّس الفلسفة في الجامعة التونسية. كان فيلسوفا

مِثليا، يتناقل الطلبة المعجبون بدروسه الباهرة أنه يحبّ أن يؤتى من الخلف في قرية سيدي بوسعيد في الضاحية الشمالية لمدينة تونس. رأى يوسف أن في تلك الحالة شيئا مقزّزا. تذكّر حديثا نبويا، كان يرويه جدّه حمدان الأعمى، وينسبه للنبي: «لا يُرجى خير من امرئ كحّلت عين ظهره بمرود البطن». ثم تذكّر امرأة الماخور، سمّاها دانيال، وربّما كان اسمها جوليات! تذكّر كيف كانت تقف مشفقة عليه عند باب غرفتها. كانت تحاول مواساته والتخفيف عنه عندما قالت: «مادمت لسانيا فأنت تستطيع أن ترضي النساء بلسانك. شرط أن يكنّ غير مجرّبات، وضحكت وهي تشير إلى نفسها. المرأة كائن ضعيف. يكفيها أحيانا قبلة حقيقية صادرة من الأعماق حتى تنتشي. لا عليك. الجنس يتمّ في الدماغ أكثر مما يتمّ بين جسدين...». اعتبر يوسف كلامها المتأرجح بين السخرية والحكمة يصلح للتعزية، ولكنه بلا معنى في حالته. فالطاعنون في الحياة وفي الجريمة وفي الجنس يحقّ لهم أن يقولوا حِكما ومواعظ لا يسمعها ولا يعمل بها أحد.

انطبع في ذهن يوسف أن الحكمة لا يمكن أن تعوّض التجربة بأي حال من الأحوال. كان في حاجة إلى تجريب ما يفعله الآخرون بغرائزهم وبأجسادهم بعيدا عن الحكمة والتخريف والخوف. تعجّب يوسف كثيرا كيف يفعل الناس ما يفعلونه بتلقائية ولا مبالاة، شأنهم في ممارسة الجنس شأن من يأكل الطعام أو يتنفّس الهواء أو يتخلص من الفضلات، مع أن تلك الممارسة، حسبما بدت له، فعل خارق، يتطلب قدرة استثنائية وغِفلة وأعصابا من حديد ودماء حامية لا يصدّها

شيء، مثلما تتطلب عقلا صارما موصدا في وجه الهواجس والوساوس والشرود والذهول والتأملات. عقل لا يعرف الخوف إليه سبيلا. خوف اقتحام المجهول والتغلغل في العتمة.

تساءل يوسف: «هل الأفعال الخارقة قرينة الغفلة والبداهة؟» ورأى أنه لو فكّر جميع الناس فيما يفعلونه بتلقائية وبداهة على أنه أمر خارق فهل يكون بمقدورهم، بعدئذ، إتيان ذلك الفعل بالأريحية والطواعية ذاتها؟ كم يتطلب الجنس من النسيان وعدم الانتباه ونكران الذات؟ كم ينبغي له من الغيبوبة وامّحاء الذاكرة والنكوص إلى الحالة الحيوانية الأولى، حالة الغريزة العمياء، الجاهلة، الأمية، التي لا تقرأ ولا تكتب، ليحصل الانتصاب وثم الولوج ومن ثمة البهجة الخاطفة الصمّاء، واحتدام الطبيعة وتوالجها الشهواني الميكانيكي: قطط، كلاب، بشر، خيول، أحمرة، نباتات، ضفادع، أسود، كلّهم دخّل خرّج ربّي يفرّج أو يتفرّج! حفلة دنيوية معقودة على الدوام، من الأزل إلى الأبد، للمضاجعة. وثمّة في كل جزء من اللحظة ملايين الكائنات تتلوّى وترهُزُ وتتأوّه وتشهق وتعوي، دون أن تتلقى أمرا واحدا بالكفّ عن ما هي عليه، والوقوف ثانية صمت ورثاء لجلدة يوسف المحرومة من الولوج!

بقي يوسف طيلة سنوات تلمُّ به حالات من الشقاء المحض كلّما تذكّر تلكما التجربتين المريرتين. انطبع في ذهنه أنهما تجربتان ساهمتا في القضاء على احتمال رجولته قضاء مبرما، لا شفاء منه. بلغ به الأمر إلى هجر جلد عميرة، وحاول تعويد نفسه على تقبّل حالته كما هي. له شكل ذكوري دون عتاد ذكوري. وقد أضحى يضيق ضيقا شديدا كلّما

عاد إلى والدته دلندة في العطل والأعياد، خصوصا بعد تخرّجه وانتدابه للتدريس في الجامعة، بسبب إلحاح دلندة، في كلّ مرّة، على استعراض الفتيات المؤهلات للزواج منه والأخريات المرشحات من تلقاء أنفسهن للارتباط به. كانت والدته تتعمّد دعوة البعض منهن عند حضوره، لمزيد غوايته للاقتران بإحداهن. كان يوسف يشعر بالرّعب في حضورهن، ويسارع دائما إلى مغادرة البيت مكفهرّا وحانقا. نبّه على أمه أن تكفّ عن مشاغبته بسلوكها وأن تقلع عن صنيعها، لكنها لم تكن ترعوي. كانت تكرّر معه المحاولة في كلّ زيارة بإلحاح العجائز المشؤوم. قرّر أن يحسم معها الأمر حين قال بتوحّش: «افهمي. أنا لا أصلح للزواج. الزواج مهمة الذين لا مهمة لهم. أنا تزوجت المعرفة لأنجب كتبا لا أطفالا... لست مثل الآخرين، هل فهمت؟!»، ولكنها لم تفهم شيئا. تساءلت: «هل إنجاب الكتب يسمّى إنجابا؟».

اعتقدت دلندة أن ولدها يخدعها. لجأت إلى الشعوذة والسحر. وحين تيقّن يوسف أن لا فائدة تُرجى منها ألغى زياراته لها نهائيا، اعتزلها وصار يقيم في العاصمة بشكل متواصل، ويسافر في العطل الصيفية سنويا إلى مدينة «ليون» الفرنسية، لتمضية أسبوعين من الشطر الثاني لشهر جويلية عند أستاذه القديم «مسيو دي لا كروا» الذي صار يعيش بمفرده بعد وفاة زوجته وانشغال أولاده بالعمل في بلدان أخرى.

ليلة نوبة الصرع الثالثة

لم يَعُد يوسف يجد راحته إلاّ في الابتعاد عن الآخرين. والشاب الذي تأخذه العزلة مبكّرا تغدو له ملامح رهبانية، شاحبة ومتغضّنة، تذكّر بالمخبولين والمخبولين والمهجورين. لم يكن له سوى صديق وحيد، هو ذلك المخرج الذي أنتج فيلما عن الحركة الوطنية. صداقته المتحفظة له ذات مدى محدود، تواصلت بإصرار المخرج ورغبته الانتهازية.

كان المخرج لا يجيد تأليف الجمل اللغوية بالعربية ولا بالفرنسية. كان له ذهن لغوي مشوّش، مع أنّه يمتلك موهبة فائقة في استنباط المشاهد وتأليف حركة الأحداث وضبط نسقها والصعود بها إلى مستويات درامية عالية. كان المخرج يلجأ إلى يوسف في التحرير والصياغة اللغوية.

بقدر ما كان المخرج منطلقا وشهوانيا ومرحا ويشيع الحبور في محيطه، كان يوسف منقبضا ومستاء ومحبطا، يفيض منه الكره والسواد. وكان يتحيّل على حالته البائسة بأن ينسبها للتعفّف والزهد والسموّ النفسي، وفي نيّته تقويض وجود صاحبه. كان يوسف يقول للمخرج: «أنت خاضع خضوعا مطلقا لعبودية نزواتك وأهوائك وغرائزك شأنك

شأن البهائم. إنك لا تعرف كيف تسمو بنفسك!». كان المخرج يردّ عليه بصخب وهو يضحك: «لنترك السماء للعصافير ولربّ العصافير. أما البشر فلا سموّ لهم إلاّ في الملذّات. هل ثمّة يا يوسف ما هو أسمى من المتع الحسّية؟ فيها وحدها يتحقّق الانفصال والاتّصال، وذلك هو معنى الفنّ. أما متعة الفكر التي تتحقق بالانفصال دون أمل اتّصال فهي خدعة خرقاء وقبض أوهام، فلا تصدّقها!». كان يوسف يعلم في سريرة نفسه أن كلام صاحبه سليم ومنطقي مائة بالمائة، ولكنه كان يكابر ويدافع عن حصنه الأخير: «هل تعلم أنت معنى متعة الفكر لتتحدّث عنها؟ خلّيك في خلاعتك وشهوانيتك، ابق مع البهائم!».

رفض يوسف دعوات صديقه المتعدّدة للسّهر معه، على انفراد أو بصحبة الآخرين، وكرّر رفضه هذه المرّة أيضا، لكنّ المخرج ألحّ عليه إلحاحا شديدا لا فكاك منه. هذه السهرة ليست ككل السهرات. إنها للاحتفال بفرحة العمل الأوّل. أنتج المخرج أعمالا تلفزية عديدة وأفلاما سينمائية قصيرة. لكن هذا أول شريط سينمائي طويل ينجزه في حياته وقد حظي بموافقة رئيس البلاد. قال المخرج ليوسف مناورا ومهدّدا: «إن لم تحضر هذه السهرة معنا فلن أعود لرؤيتك ثانية! لا تنس أنه لولا إعانتك لنا في كتابة السيناريو وتدقيق المعطيات التاريخية لما توصلنا إلى إنجاز هذا الفيلم الذي سيكون الحدث الثقافي الأكبر في البلاد خصوصا بعدما نال رضا الرئيس». وأضاف متوعّدا بخبث: «فكّر في الأمر جيّدا. رفضك حضور السّهرة معناه مناوءتك لتاريخ الحركة الوطنية، واستخفاف برضى رئيس الدولة!».

مثل هذه الأجواء التي يُقيمها أهل الفنّ وينبسطون فيها على راحتهم، ويتبادلون خلالها، في كل حين، تبذير العواطف والقبل وعبارات المجاملة والمديح التي لا يمكن توقّع متى تتحوّل إلى نقيضها، تكون تلك الأجواء قاسية على الغرباء ومربكة لهم، وتجعل الذين ليسوا من أهل الفنّ يشعرون بأنهم موجودون في مكان خاطئ لا يناسبهم ويثير اشمئزازهم وحنقهم. يتصرّف أهل الفنّ فيما بينهم بطريقة عائلية حميمة ويتبادلون القبلات وأحيانا الصفعات، نساء ورجالا، ومن مختلف الأعمار الراشدة، ولا يضيرهم في شيء سماع الكلام الخليع الفاحش والنكت البذيئة.

وجود يوسف في هذا الجوّ سبّب له الاختناق فازدادت نفسه انقباضا. لم يتبادل طيلة السهرة الاحتفالية الكلام مع أحد. كان يجلس وراء طاولة الصدارة مع المخرج ونفر من جماعة التلفزة. لم يأكل سوى بعض الفتات من الطّاولة العامرة بالأطباق. لم تكن شهيته مفتوحة للأكل. كان يشعر بتقلّصات في معدته، وينتظر بفارغ الصبر نهاية سهرة السأم هذه، حتّى يعود إلى بيته وينفرد بنفسه. كان على تلك الحالة حين ألّمت بشهرزاد نوبة الصرع التي أسقطتها أرضا، تهتزُّ وتتخبّط متصلبة الجسد متيبّسة الأعضاء، وقد احتشد الساهرون حولها وانحنى عليها المخرج يرشّها بالعطر، وطفقت تلك الممثلة الثانوية المقرفصة، ذات العجيزة الضخمة، تدير مفتاحا في يد الصريعة.

أثار سقوط شهرزاد فضول يوسف. التحق بالحشد واندسّ بين المتحلّقين. وجد نفسه مشرفا مباشرة على مشهد النجمة المبعثرة على

الأرض. ألقى يوسف، في البداية، نظرة محايدة على الجسد المهان الذليل. لكن حركة المفتاح في اليد هيجته جنسيا. اشتدّ به التهييج وهو يتطلّع بنهم إلى الجسد الحطام الذي دكّه الصرع وأذلّه. كانت حالة جسد شهرزاد المتدهور الرميم تدعو إلى الشفقة والحزن. كانت مبعثرة على الأرض بلا كرامة وقد تلوّث شعر رأسها بالزبد السائل من فمها، وكانت مبللة في أسفلها، مشرعة اليدين منثنية الركبتين، مخذولة في وضعها، مهانة في أنوثتها وجمالها وتألقها. تلك الحالة، بالذات، هي التي أججت يوسف جنسيا وجعلت قضيبه يتحرّك في سرواله، لأوّل مرة، في حضور امرأة وحضور الآخرين، دون دراية أحد، شكل من أشكال الانتصاب الفوضوي.

شعر يوسف شعورا مؤكدا أنه في هذه اللحظة تحديدا بمقدوره الانقضاض على الجسد لينشب فيه شيأه المتحفّز، ويقتحم الجسد اقتحاما لا رجعة فيه ولا نكوص. كما لو أن يوسف كان يبحث عن أشلاء امرأة لا عن امرأة كاملة، عن أنثى مهشّمة وحطام، ليحقّق فيها رجولته المخصية، وليقيم حوارا مضمون العواقب، مضمون الفوز من البداية. وجد ضالته. إنها شهرزاد المنهارة، المنطفئة والمسحوقة تحت نوبة الصرع. وحدها من دون نساء الدنيا كافة حرّكت رجولته المختومة. اعتقد يوسف في تلك اللحظة، اعتقادا جازما راسخا، أنه يقدر عليها ولن يصاب بالعنّة في حضورها. وتمنّى في قرارة نفسه، وبشكل حارق، أن تدوم حالة الصرع عندها إلى ما لا نهاية، حتّى يمتلكها إلى الأبد.

اضطرّ المخرج، ليلتها، لمغادرة السهرة لاصطحاب شهرزاد التي

تعافت قليلا إلى بيتها على متن سيارته. رافقه يوسف مغتبطا في هذه المهمة. كان ثلاثتهم صامتين. كانت شهرزاد تشعر بالقهر والظلم وهي إلى جانب السائق ويوسف يجلس في مقعد السيارة الخلفي. حين وصولهم إلى مدينة أريانة أوقف المخرج السيارة أمام منزل عائلة شهرزاد الفسيح. ما تبقى من الضيعة بعد التفريط ببيع الإصطبل. بادر المخرج شهرزاد بكلمات مطمئنة لرفع المعنويات. كان يودّعها ويعدها بالزيارة صبيحة الغد. حين همّت بالنزول اقترحت على مرافقيها، اقتراحا للمجاملة أكثر منه للتحقيق: «لماذا لا تنزلان معي فتشربا عندي فنجان قهوة؟». تكلّم المخرج ينوي شكرها والاعتذار عن قبول الدعوة الشكلية. لكنّه لم يكمل كلمة الشكر حتى انطلق صوت يوسف، من الخلف، مرحبا بتلبية الدعوة، ومؤكدا حاجته وصاحبه لمثل ذلك الفنجان من القهوة. في خضم دهشة المخرج والممثلة وتفاجئهما بسلوك يوسف، فتح هذا الأخير الباب الخلفي للسيارة ووثب إلى الخارج واقفا حذو شهرزاد. انقاد المخرج لهذا التصرّف المحيّر وغادر السيارة. اعتقد المخرج أن استجابة يوسف للدعوة إحراج لشهرزاد المريضة وتكليف لها بما هو فوق طاقتها. عَدَّ سلوك صاحبه منافيا للذوق ولا مبرر له. اغتاظ لذلك ولكنه لم يشأ أن يتفوّه بكلمة، مراعاة لشهرزاد في المقام الأول، وحتّى لا يجرح مشاعر مرافقه الذي قبل حضور سهرة الاحتفال بعد إلحاح. عوض القهوة قدّمت لهما شهرزاد مشروبات غازية واكتفت هي بكأس ماء. كان الجوّ ثقيلا بين الثلاثة والصمت مطبقا. تكلّم المخرج كلاما بلا معنى لإنقاذ الموقف. انتبه إلى أن نظرات يوسف ظلّت تحوّم حول

شهرزاد. كان يتفحصها خلسة. شاء المخرج أن يقدّم لها يوسف. امتدح علمه ورصانته وعفّته بكلمات حارة تنطوي على نوع من المبالغة. كانت شهرزاد تستمع إلى كلام المخرج وهي ضجرة يكاد صبرها ينفذ وتنهار باكية. كانت تشعر أنها على غير ما يرام وفي حاجة إلى الراحة والاختلاء بنفسها. استجمعت قوّتها وأرادت أن تنهي هذا كله ببسالة. قالت: «مادام صاحبك بهذه الخصال اصطحبه معك غدا لأتعرّف عليه. الوقت متأخر الآن للتعارف!». قالت ذلك ونهضت واقفة فنهض الاثنان على إثرها ولم ينهيا تناول المشروب الغازي الذي قدما لهما. بقيت شهرزاد في غرفتها ولم تصاحبهما إلى الخارج. في الممرّ إلى الباب الخارجي اعترضهما والدها عائدا من تيهه إلى البيت. سلّما عليه مشافهة. ردّ السلام بخفوت دون أن يأبه لهما. تحاشاهما قليلا وواصل سيره الوئيد المترنّح. استغرب يوسف من ذلك الرجل الذي له هيئة شبح. لكنّه فيما بعد تعوّد عليه. علم أن والد شهرزاد لم يعد يأبه لشيء منذ نكبته العائلية في ليلة الجنون والفناء، حتّى زواج ابنته المتبقية الوحيدة العزيزة على قلبه من يوسف لم يثر انتباهه ولم يغيّر من حاله.

يوم عقد القران بحثوا عنه في مساجد الجهة ليشهد كتابة عقد الزواج فلم يعثروا عليه. أشار لهم أحد الجيران إلى أنه رأى الحصان يسلك بعد ظهر ذلك اليوم طريق المقبرة. اضطرّ يوسف للذهاب بنفسه للبحث عن عمه. وجده مقرفصا في مدخل الجبّانة. انحنى عليه وأخذه من يده بودّ. تبعه الرجل طائعا مستسلما دون أن ينبس بكلمة. في الطريق سمعه يوسف يكرّر بتضرّع وبصوت خافت ولكنه مسموع بوضوح:

«يا لطيف، يا لطيف أنت اللطيف ألطف بعبدك الضّعيف». أشفق عليه يوسف وهو يلاحظ لباسه المزري ولحيته البيضاء المشوّكة. مرّ به على الحلاق فزيّنه وأصلح من حاله. كان يوسف يقول في نفسه: «لعلّ عمل الخير يشفع لي في هذه الليلة الليلاء!».

حين دخل يوسف على شهرزاد ويده في يد الحصان احتضنت العروس والدها وعانقته بهدوء. أبقته في حضنها لحظات. رفع والدها يده ومسح بها على رأسها ثم طبع قبلة على جبينها واستدار خارجا وهو يتمتم بكلمات لم يتوصّل يوسف إلى معرفة كنهها. قالت شهرزاد ليوسف وقد رأته وهو يحاول اعتراض طريق والدها لاستبقائه: «اتركه لحاله. لا ترغمه على البقاء. اتركه يتصرّف على راحته، من فضلك». كانت تتكلّم بإعياء وخفوت وتجاهد للتخلّص من إرهاق شامل يسيطر على كامل جسدها وينكشف بوضوح على وجهها، خصوصا في تغضّن خدّيها وفي حدقتي عينيها. تمنّى يوسف من كل قلبه أن تشتدَّ الحالة بشهرزاد كلّما تقدّم الليل. فلا يدخل عليها دخولا رسميا ولا ينفرد بها إلاّ بعد أن تكون قد ألّمت بها نوبة صرع تجعلها رميما وأشلاء، حتّى يتسنّى له الانتعاض فيتمكّن من أن يفعل معها ما يفعله الرجال مع النساء في ليلة الزفاف الأولى، وفق الأعراف والتقاليد. ينبغي أن يجدها منهارة في حطامها الأنثوي، متصدّعة ومغمورة بالغيبوبة والتلاشي، وإلاّ فإن ليلة عمره ستكون أسوأ ليلة في حياته. إن ذلك بالنسبة إليه مسألة حياة أو موت بالحياة لا انبعاث بعده.

فشل مرّتين مع نساء ثيب وعموميات فكيف سيكون حاله من امرأة

عذراء تكبره ببضع سنوات؟ أنثى وعذراء وتكبره في الوقت ذاته! أي سلاح حربي مذهل يُمكّنه من اختراق حصنها وتمزيق غشاء بكارتها؟ من أدراه أنها بكر؟ تمنّى يوسف: «ليتها أن تكون غير بكر!» لتصير مهمته أقلّ مشقّة وتكون شهرزاد بين يديه ذليلة ومنكسرة تلجمها الخطيئة ويسحقها العار. استدرك يوسف: «لكن حينئذ قد تتضاعف المصيبة وتغدو مصيبتين! تكون تعرّفت على رجال قبلي وتذوّقت الجنس معهم وعرفت لذته ومعناه، حينذاك ستخضعني للمقارنة بهم، أفلحت معها أو لم أفلح، وبذلك يكون الخسران بلا ضفاف!».

تفقّد في ذلك اليوم عضوه، قبل أن يزيل عنه شعر العانة وبعد إزالة الشّعر. لم يطمئن قلبه تماما. كان اضطرابه يتعاظم كلّما حانت لحظة الاختلاء بالعروس. ندم كثيرا على قرار الزواج. انتابته فكرة الفرار كحمّى أكثر من مرّة، ليترك أهل البلاء للبلاء وينجو بجلده وبلثامه السفلي السافل.

كان حفل الزفاف الليلي صغيرا ومحدودا. حضره بعض من أهل المسرح والتلفزة، نساء ورجالا، تولّوا بأنفسهم تنشيط سهرة ليلة الزفاف، وتنافسوا في إظهار مواهبهم الفنية فابتهجوا وأبهجوا. كانوا جميعا من معارف شهرزاد وليس بينهم سوى المخرج على علاقة بيوسف. كانت غربة يوسف مضاعفة. عرض عليه واحد من المحتفلين كأسا من الويسكي قائلا: «إنه شراب ينفع في مثل هذه الليالي - وأضاف - إنه يسهّل المهمات ويُعين على ارتكاب المعاصي، هذا رحيق أم الخبائث!». تردّد يوسف ثم استلم الكأس. ارتشف منه جرعة صغيرة

نبّهته إلى تيبّس حلقه وجفاف ريقه. لم يشأ أن ينهي ما في الكأس وكان بادي الضّيق والتململ وهو إلى جانب عروسه. لاحظ الحاضرون ذلك فظنّوا أن حالته بفعل شوقه ونفاد صبره، فاختزلوا السهرة من تلقاء أنفسهم. التمّوا في حلقات صغيرة لتوديع العروسين. كان يوسف مفجوعا من ذهابهم ومن حالة شهرزاد الصحيّة. بدت له معافاة وفي كامل لياقتها، وكأن الليل أنعشها فتلألأت فاتنة فتنة أخافته، كانت كأنّها جنيّة من الجنيات. كان جمالها يصيبه بالقشعريرة ويجعله يرتجف ويمنع نفسه عن تخيّلها عارية. إذا كانت بهذا الشكل وهذه الصورة وهي بثيابها فكيف تكون إذا تجرّدت من كسوتها وأسفرت عن كنوزها الشامخة المهيبة وأسلحتها المخبوءة التي لا تبقي ولا تذر؟

ليلة المديح الثاني للخيانة

عندما دخل ليلة الزفاف مع شهرزاد إلى الغرفة، الغرفة ذاتها التي بها السرير الزوجي وتقيم شهرزاد فيها الآن، عمد يوسف مباشرة إلى إطفاء الضوء. استغربت شهرزاد من صنيعه الذي بدا لها غريبا فطلبت منه بصوت فيه رجاء أن يشعل الضوء حتى تعرف كيف تتحرّك في الغرفة بجلاء. أجابها بصوت مكتوم، سمعت فيه شهرزاد الذعر والفحيح: «لا أحبّ الضوء في غرفة النوم، تدبّري أمرك بلا ضوء». تطيّرت شهرزاد من هذا السلوك وانطبع لديها أنه نذير شؤم. لم تشأ مواجهته منذ الليلة الأولى حتّى لا تبدأ حياتها الزوجية بالنزاع والصداع. أخذت تتخبّط وهي تتحسّس أشياء الغرفة. استلقى يوسف على ظهره في السرير وتمدّدت شهرزاد حذوه على جنبها الأيمن مولية وجهها للفراغ. تملّكت يوسف الحمّى وراح رأسه يتموّج ويغلي، وعيناه مفتوحتان في الظلام تغشاهما الدموع. حافظ على وضع استلقائه الأوّل وكان يشعر أنه يتخشّب. لم يشأ التحرّك عن وضعه قيد أنملة حتّى لا يكون تحرّكه مدعاة لكوارث تلوح في الأفق. بغتة لسعته ملامسة من مؤخرة شهرزاد، فوق ركبته بقليل، تململت المرأة تتمطّى لتسمح

لجسمها بالتدفّق في الحيّز من الفراش التي تشغله. كانت لمسة خفيفة للحم ناعم، وفير ولاسع، لا مثيل له. شيء ليّن ولحيم وشبه طريّ لامس أسفل فخذه بطريقة مباغتة ووثيرة. تنبّه يوسف إلى أن الفراش وثير هو الآخر، بالغ النعومة والطراوة. وتنبّه إلى أن جوّ الغرفة يعبق بروائح الطيب والعطور والأنوثة الفوّاحة. انطبع في ذهنه أن تلك اللمسة لم تكن بريئة ولا عفوية، وأن شهرزاد فعلتها عامدة متعمّدة لتذكيره بواجبه ولتوبيخه على إهمالها لها، وهذا ضاعف من تخشّبه وارتفاع سعير الحمّى في رأسه. شعر بتقلص أسفل بطنه وبأن شيئه السفلي لا يكفّ عن الانكماش والضمور، وبأن خصيتيه تبخرتا ولم يبق لهما أثر، شعر بألم في جسده كلّه، وخصوصا في نصفه السفلي، فهاجت ذاكرته بصور والده المقتول ووالدته دلندة ومسيو سارج دي لا كروا وامرأة ليلة القطط ودانيال الفرنسية، امرأة الماخور.

حدج الآن يوسف عبد الناصر شهرزاد المعاقة المتكوّمة على سريرها بنظرة مليئة بالأسى والشجن، وبرق في ذهنه خاطر مفاده أن المسألة كلّها لا تعدو أن تكون حلما أسود فيه الكثير من الهزل والسخرية المريرة!.. هل انقضت حقا سنوات طويلة على ذلك؟ هل شهرزاد السرير، المغمضة العينين، التي تتنفّس بإجهاد وبصوت مسموع، هي شهرزاد نفسها ليلة زفافه بها، ليلة أصابه التخشّب وتمكّنت منه العنّة؟ وتساءل يوسف عن نفسه ما الذي بقي منها وما الذي تغيّر فيها وما الذي ضاع؟ هل بإمكانه أن يتعرّف على نفسه في حكايته؟ في حكاية ذلك الشخص المرعوب المختوم، الذي أهملت جلدته بطريقة غير متعمّدة فكادت أن

تقضي على حياته؟

تحسّس يوسف أسفل بطنه وهو يتطلّع بنظره إلى شهرزاد الحكاية، شهرزاد البكماء العمياء الكسيحة. كان نَفَسُها الذي يشبه الشخير منتظما، في إيقاع ثابت ومتلاحق، وهي تبدو كما لو أن روحها متلاشية في عوالم أخرى!.. هل كان يشتهيها على هذه الحالة، بكماء، عمياء، محطّمة الساقين ومشلولة، لا تشمّ وتكاد تفتقد كل أحاسيسها الإنسانية؟

ولكن، هل غيّرت حالتها هذه من أمره شيئا؟!

لم تمض سوى لحظات قصيرة على توقف يوسف عن متابعة قصّ حكاية هلال الأحد مع الفتاة زبيدة حتّى أدرك بحدسه وخبرته بشهرزاد أنّ زوجته قد انسجمت مع الحكاية. تساءل في سريرة نفسه: «ما الذي يجري في دماغ شهرزاد الآن؟ أي كلام حبيس يمور في داخلها؟ أي مشاهد وذكريات وأشواق وأحزان تسبح فيها هذه المرأة الأسطورية؟ رائحتها هذه، رائحة لحمها النديّ الطريّ الرطب، هذه الرائحة الخاصة والغريبة، كأنها رائحة ملابس نظيفة ومبلولة مرّت عليها فترة لم تنشر لتجفّ، هذه الرائحة هل تنبئ على ما في داخل جسم صاحبتها من رطوبة تجعل أفكارها لزجة وخيالها دبقا رطبا؟ هل هي بصدد متابعة حديثة المنطوق؟ وهل تسمع حديثه الداخلي؟ هل تفهمه؟ هل فهمته أكثر مما فهم نفسه؟ ما كل هذا العبث في الحكايات كلّها؟!».

كانت شهرزاد تسمع فعلا صدى كلماته الخرساء حين قال لنفسه: «ما كل هذا العبث في الحكايات كلّها؟». رمشت شهرزاد بعينيها المنطفئتين وحرّكت يدها فتلقفها يوسف عبد الناصر واحتواها بين يديه وقرّبها

من شفتيه وهمَّ بلثمها وهو يردّد: «لم أحبّ في الدنيا أحدا سواك، ولن أحبّ أحدا غيرك أبدا!..»، ولكن حركة شفتي يوسف تمّت في الفراغ. شدّت شهرزاد يدها لتكبح تدفّق عواطف يوسف. تلقّى حركتها كتوبيخ. شقّ عليه الأمر فتململ محرّكا ركبتيه المتيبّستين، وثنى يده على السرير في وضع اتّسم بالجدية. كان كأنه تلميذ في فصل وعليه أن يستعرض درسه عن ظهر قلب. قال يوسف بصوت متعجّل ليتدارك ما فاته: «لنعد إلى المطعم حيث يوجد هلال الأحد مع زبيدة الفتاة المغرمة بالشعر والتي تسعى إلى أن تكون شاعرة، وصديقها الصحفي الشاب عبّاس. هذا الثلاثي هو أصل الحكاية، إذا كان للحكاية من أصل! شابة وشاب برفقة كاتب كهل يبلغ في يومه القادم الستين سنة من عمره، وهو يمرّ بفترات مراهقة ثانية، أصبح فيها مولعا بالأفكار والمدن لا فقط بالنساء والغرام. مراهقة مضاعفة كما يبدو. كتب هلال رواية «بحار الكائن الخائن» ليبرهن فيها على أن الخيانة هي شرف الإنسان من أجل تحقيق كينونته، وحاول أن يسرد في الرواية قصّة حياته ليقيم البرهان، وبالدليل القاطع، على أن الملاقيط هم نار الله الموقدة التي تطهو المجتمعات والحضارات ليكون مذاقها مستساغا وأكلها طيّبا شهيّا. عمل في روايته على تمجيد أطفال بورقيبة وسعى لإحكام ربط نسبه مع الزعيم الذي تبنّى لقطاء شعبه والأطفال المشرّدين. كان هلال يباهي بأنه أوّل كاتب عربي يكتب رواية ينصف فيها أحد الحكّام العرب، ويبيّن فيها أن أولئك الحكّام كانوا متقدمين على شعوبهم وعلى مثقفيهم لأنهم يحوزون على معطيات الواقع ومعلوماته الموثوقة، في حين

أن المثقفين يقفون في مهبّ الرّيح، لا يكادون يعرفون شيئا عن حقيقة واقعهم ومحيطهم المحلي والإقليمي والدولي، ويرى أن غالبية كتّاب العرب هم أناس منتحلون لا بصر لهم ولا بصيرة، وأنهم يميلون حيث ريح الموضة المعرفية والأدبية والفنية تميل بدون تمحيص ولا حكمة، إنهم شيوعيون وقت الشيوعية وقوميون وقت القومية وإقليميون وقت الإقليمية ومحليون وقت المحلية وقبليون وقت القبيلة وسلفيون وقت السلفية وديمقراطيون وقت الديمقراطية ومعولمون وقت العولمة، فلا نفع ولا رجاء من كثرتهم الكاثرة.

يقول هلال بصريح العبارة في روايته «بحار الكائن الخائن» أن المهمّة الأولى والأخيرة ملقاة على عاتق الحكّام، إن شاؤوا نهضوا بشعوبهم الرثّة المهلهلة، وإن شاؤوا انحدروا بها إلى أسفل السافلين من أجل أن يطمروها في الوحل ويبيدوها هناك. ويختم الرواية بقوله: «إن الاحتمال الثاني هو الأرجح... والعلم لله!».

صار هلال يقيم بطيب خاطر في لقاطته. رضي بقسمته ونصيبه وأدرك أن الخيانة هي القاسم المشترك بين بني البشر، وأن أعمقهم شعورا بالخيانة وارتكابا لها هم اللقطاء والمشرّدون والمتشرّدون والأيتام والمنبوذون والمساكين وعابرو السبيل... جميع المجروحين في وجودهم أولئك هم الذين حملت رياح الوجود بذورهم المجنّحة وألقت بها في تربة مجهولة فنبت زرعهم مورقا وبهيجا، يعجب الأوفياء والمحافظين والمخلصين فيتمنونه لأنفسهم، ولكن، هيهات، ما كلّ ما يتمنّاه المرء يدركه!.. اختلطت في ذهن هلال معاني الخيانة والإبداع واللقاطة.

كان شغوفا بتقصّي آثار الإبداع لدى الآخرين، وكان يرى أنه وفق استعدادهم للتبدّل وخيانة أنفسهم ومعطيات وجودهم تكون قابليتهم للإبداع، لذلك اعتبر أن كل مأثرة إبداعية ينبعث منها دوما الأنين والحنين وصوت التباريح، ويشدّها التوق من جلدها ومن صميم وجودها إلى البعيد، ويفنيها الشوق. وشاء له مزاجه الرائق، مزاج كهل في الستّين، متيقّظ وماكر، أن يمارس هوايته مع زبيدة وزميلها في تقصّي آثار الإبداع عند كليهما. هذه الفتاة الشابة ذات العنق الأبيض الطويل، وذات الشعر المقصوص والبشرة المتورّدة الناعمة، تلبس قميص صوف ذا لون حليبي مخلوط قليلا بالشوكلاطة كأنه امتداد لبشرتها، وقد تورّد خدّاها الأسيلان وشعّت عيناها بالأنوثة بعد أن سرى محتوى الكأس الوحيدة في عروقها عندما دلقته دفعة واحدة لحظة غياب هلال في التواليت... هذه الفتاة، هذه الفتاة المشتهاة، وهذا الفتى حذوها ينبض فتوّة وحياة، والجوّ مشحون بينهما، مليء بطاقة الكهرباء والمغناطيس ليضيء في أية لحظة الجسدين اليافعين عند أوّل التحام. فهل يقدحان الشرارة الجسدية ليخففا من عتمة الكون وينجبا حكاية هلالية أخرى؟ هل يلقي بهما التيار في بحار الكائن الخائن ليسقيا نفسيهما ماء الوجود؟ أم سيلقي بهما على ضفاف تلك البحار المعهود التي بلا معنى؟ هل سيأكلان من الشجرة الحرام حتّى تنتعش الدنيا بين يديهما. آدم وحواء جديدان وعليهما أن يستمرّا في ارتكاب المعصية الأزلية وقضم التفاحة حتى يُحققا شرف الانتماء إلى الأب الأوّل والأم الأولى، وحتّى تظل مشيئة الله تتحقّق عبر الأيام والدهور. قال هلال: «عليهما أن يستمتعا

طويلا بشبابهما قبل الإنجاب، وإذا حصل وأنجبا عليهما أن لا يهملا الطفل، وأن لا يودعاه مأوى من مآوي أطفال بورقيبة». وقال هلال: «كفى تشردا في الأنساب وسفحا للدماء الساخنة. على الأبوين أن يعترفا بأبوّتهما للطفل، وعلى الطفل أن يتعرّف على أبويه ويشكر لهما صنيعهما معه. يشكر لهما هدية الحياة التي منحاها له». وقال هلال: «كفى انتسابا لبورقيبة. كفى زعزعة للثوابت. لقد تصدّع كلّ شيء وبانت نذر الانهيار. لندخل حالة السلم كافة!».

كان أشدّ ما بقي يحيّر هلال قرابته الدموية بالآخرين، من هو أبوه الدموي؟ ومن هي أمّه الرحم؟ من هم إخوته، أعمامه، أخواله، عمّاته وخالاته؟ ما هي دائرة المحارم العائلية لديه؟ هل صادفه، خلال تجاربه المتنوّعة، أن ولغ في الدماء المحرّمة لأقاربه الذين لا يعرفهم؟!

كان هلال يتفرّس دوما في الوجوه والملامح والهيئات لعلّه يعثر على ملامح تشبهه. ولكن جميع الوجوه لا تنبئ بشيء. كان يتخيّل أن له أخا غير شقيق يشبهه، وسيما ومثقفا، فارع الطول وقوي البنية، له اسم يوسف عبد الناصر ورسمه سليم الجسم ومعتلّ الروح. مصاب مثله في هويته. مختوم غير مختون. يتخبّط في أسر جلدته المنكمشة من بقايا الطفولة ويمرّ بظروف حالكة، ويواجه مشقّات وشدائد من نوع منحطّ لأنه نوع غير ماديّ ولا ملموس. كان هلال يتخيّل أن على يوسف الزواج بشهرزاد، شهرزاد الحكايات المريرة، ليقصّ عليها اضطهاد الزمن له عوض أن يقوم باضطهادها، أو ليعرض عليها اضطهاده ليلحق بها الاضطهاد. يضطهدها باضطهاده، ويقول لها

أن الهُويّة المصابة والمطعونة يحدث فيها انقلاب للأدوار وتشوّش في المعاني واختلاط الذكوري بالأنثوي، وانهيار للقضيب مقابل تعمّق سحيق لهفهوف الفرج حتّى يغدو فاغرا فتحته يبتلع كلّ من يقترب منه. فرج يبتلع الحياة عوض أن يكون منبعا للوجود. ويقول لها أن الذي لا يقدر على إقامة حوار جسدي سليم لن يقدر على إقامة أي حوار مع الآخرين ولا مع أية جهة كائنا ما كانت، بل ولا حتّى حوار مقنع في رواية خيالية! وذلك هو حال غالبية العرب العاربة، إذ صارت فحولتهم وحلا ومستنقعات مع أنهم مازالوا يرفعون شعار شكسبير البائس «نكون أو لا نكون»، في حين كان عليهم أن يتفطّنوا للتحوير التونسي الذي أضاف ألفين ممدودين منتصبين للنّونين، النّونتين، الأولى والثانية، حتّى ينطبق الشعار على الحالة.

ليلة سبر الآراء

بسبب لقاطته غدا هلال يُدمن تفحّص الوجوه والتنقيب عن تفاصيل فيها تشبهه. سأل هلال الأحد الصحفي الشاب عبّاس، بعد أن سوّى حاجبيه وفرك عينه اليمنى بسبّابته: «لمن تشبه أكثر في عائلتك؟ لأبيك أكثر أم لأمّك أكثر؟». أجاب عبّاس: «شيء من ذاك وشيء من تلك، بإمكانك أن تقول عنّي أنني خليط منهما. بشرتي وملامح وجهي أخذتهما من أمّي، أما العينان وشعر الرأس فمن والدي، رحمه الله، قامتي أيضا!».

لم تكفِ الإجابة هلال فعاد يسأل: «من الدّاخل، من تشبه أكثر؟». في تلك اللحظة كان هلال يتذّكر سي صالح، رئيس مركز الحرس الوطني، أبوه المعلن. كان هلال يختلف معه في الشكل ولكنّه يشعر شعورا عميقا أن روحه ومزاجه وأخلاقه مطابقة، مطابقة تامة، لما عند سي صالح. قال عبّاس: «لا أعرف بدقة لمن أشبه من الداخل!». إثر ذلك قالت زبيدة:

أنا لا أشبه أبي ولا أشبه أمّي، أشبه نفسي فقط!

ـ هل أنت على يقين من ذلك؟ ـ قال هلال ـ هل تشبهين نفسك فقط، هل تثبّت من الأمر، ألم تصادفي أحدا من الجيران يشبهك؟

ـ ما معنى ذلك؟ ـ قالت زبيدة لهلال مستنفرة ـ

ـ لا شيء، فقط لمجرّد زيادة التحرّي. قد يكون أحدهم قدّم مساعدة ما حتّى لا تشبهين والدك ولا والدتك!

ـ تقصد...

ـ لا أقصد شيئا! إنما يتوجّب التحلّي بالدقّة في مثل هذه المسائل!

ـ يا ربّي... هل ذهنك منحرف هكذا دوما؟ دائما تميل للتشويه والتدنيس؟

ـ هذا صحيح. ليس ذهني فقط إنما كل الأذهان هي هكذا.

ـ ومن أدراك بالأذهان كلّها؟ هذا إدعاء منك. أليس من الأفضل أن يتحدث المرء عن ذهنه فقط، هذا إذا كان له ذهن وإذا توصّل إلى معرفته!

ـ «برافو..!».

هكذا قال هلال، ولاحظ أن الفتاة تتكلّم بثقة وقحة. استنتج أن جميع فتيات هذا العصر أصبحن وقحات، ورغب في أن يلتمس لهنّ العذر، فقال في نفسه: «ولكن الحياة أشدّ وقاحة منهن، فلا بأس، لنتقبّل الوضع كما هو!». ثم قال وهو يتعمّد المزاح:

ـ لست خبيرا بالأذهان فحسب بل بالأبدان أيضا، ولأبرهن لك على ذلك أقول: «إذا أنجبت طفلا سيكون شبيها بي ـ قال ذلك وغمز

بطرف عينه اليسرى لعباس حتى يتواطأ معه ويبقى على الحياد في هذه المماحكة اللفظية التي أثارت شهيّة الكاتب لسبر آراء زبيدة ونفسيتها، ليتقصّاها. كان قرّر أن يذهب شوطا متقدما في ملاعبتها ـ

قالت زبيدة بسخرية نزقة:

ـ مستحيل، ماذا تبقى منك لتفكّر في طفل يشبهك؟

ـ ما تبقى يكفي لتنجبي ولدا يشبهني!

ـ أنت واهم بلا شكّ، انتبه لنفسك، إنك في عمر أمي!

ـ في عمر أمّك، في عمر أبيك، في عمر جدّك، كل هذا لا يغيّر من الأمر شيئا. يكون الولد يشبهني، يعنى يكون يشبهني.

قال هلال ذلك وابتسم ابتسامة خالها عبّاس ابتسامة من انتهى من التهام فريسة فلا شيء من الوداعة فيها. مرّت بخاطر عبّاس قولة المتنبي: «إذا رأيت نيوب اللّيث بارزة/ فلا تظنّن أن الليث يبتسم». خاف عبّاس، ثم خشي أن تتبخر الفتاة من بين يديه، فتدخّل بطريقة رعناء:

إنه يفذلك، هو يمزح معك. ابنتا سي هلال يكبرانك سنّا!

ولكن زبيدة ردّت على عباس بكلام أدخل الفوضى على ترتيبات العلاقة بين هذا الثلاثي:

ـ إن كان هو يمزح فأنا لا أمزح. يروق لي حقّا سماع مثل هذا الكلام من الشيوخ، حديثي العهد بالشيخوخة.

ـ شيخ. حديث العهد بالشيخوخة! ذلك ممكن. لكنك ظالمة

وتبالغين. هناك شباب أكثر شيخوخة منّي! الشباب كما تعرفين هو في الأذهان لا في الأبدان. أقول لك بصراحة: ليس الشباب فيما يظهر على الأبدان بل في ما يتجلّى على الميدان. فهمت ما أقصد؟ معك حتّى الشيخوخة الأبدان تتحوّل في الميدان، بفضل العزيمة، إلى شباب!

ـ قل لي أيضا هل في الميدان ستنبت لك أسنان طبيعية عوض أسنانك الاصطناعية هذه؟

ـ من قال لك أن أسناني اصطناعية؟

ـ هل تتصوّر، حضرتك، أن الشعراء أقلّ نباهة من الكتّاب في التقاط التفاصيل، خصوصا إذا كانوا من النساء؟ حضرتك في هذا العمر ولك أسنان برّاقة، مستوية ومنتظمة، لا اختلال فيها ولا فجوات، منزرعة إلى أسفل حتّى تكاد تحجب اللّثة، هل تلك أسنان طبيعية؟ إن أطباء الأسنان مهما أجادوا في عملهم لن يصلوا إلى صناعة أسنان طبيعية تناسب الأفواه المتضررة تناسبا تامّا!

ـ هل أنت خبيرة في زرع الأسنان حتى تتكلمي بهذه الثقة؟

ـ أبي له أسنان اصطناعية من أرفع الأنواع، وهي من فرط إتقانها تبدو غير طبيعية.

ـ لم أفطن إلى أن أسنان سي هلال اصطناعية ـ قال عبّاس بجديّة حمقاء ـ هل هي حقّا اصطناعية؟

ـ إذا لم تفطن إلى ذلك فأنت غير فطين ـ ردّت عليه زبيدة ـ

ـ كيف غير فطين؟ هل أنا مدعوٌّة لتقبيله لأتثبّت من فمه وأسنانه

وشفتيه؟

ـ هل تتصوّر أنها تثبّتت من فمي لأنها تفكّر في تقبيلي؟

ـ ما أدراني؟ ها هي أمامك أسألها.

ـ لم أفكّر في ذلك! لكن هذه مناسبة لأسأل عن مذاق قبلة كاتب عجوز، مع أنني أشمئز من الأسنان الاصطناعية، بدونها يكون التقبيل أفضل.

ـ كفى ركاكة! ـ نهرها عبّاس ـ

ـ لا شأن لك بي! ثم، ما دخلك أنت في الموضوع؟ أنا أتحدث معه عن الأدب وهو يدرك ذلك.

ـ بكلّ سعادة. يعجبني حديثك. يبرهن لي على قابليتك للأدب. حاولي أن يكون سلوكك مطابقا لكلامك.

ـ مثلا؟

ـ فتاة في صحبة فتى يقاربها في السنّ، ذلك أمر عادي ومبتذل من كثرة تكراره وانتشاره، أقصد أنه لا يغري الأدب والأدباء. لكن فتاة شابة، جميلة ومتألقة، تتطلّع للشعر، في صحبة عجوز في الستين له أسنان اصطناعية فذلك شذوذ نحقق به نصف نصّ أدبي ملهم، وخالص من شوائب التكرار والرتابة والملل.

ـ والنصف الثاني؟

ـ هنا المشكلة... المشكلة في النصف الثاني! إنه نصف شاق لا يتحقّق إلاّ بالكتابة. أه، الكتابة! الكتابة التي تحوّل الشذوذ إلى متعة يتقاسمها

جميع النّاس ولا تنفدُ. الكتابة هي التي تحوّل الشذوذ إلى عدوى، تقريبا...

ـ ماذا أسمع؟ ـ قال عبّاس ـ يبدو أن الأمر تحوّل بينكما إلى مشروع عاطفي!

ـ أنت أيضا معني بالإبداع ـ أجاب هلال بدهاء ـ لن يتمّ شيء إلاّ بمباركتك. أنت طرف رئيس في أي مشروع.

ـ منذ حين قالت زبيدة أن لا دخل لي في الموضوع ـ قال عباس باستسلام ـ فلا دخل لي في الموضوع، ولا علاقة لي بمشاريعكما!

ـ مجرد مداعبة منها. لا تكن أحمق فتصيبك الغيرة. المرء لا يغار إلاّ من أنداده. فأين أنت منّي وأين أنا منك؟ فقط، أنا فرح بهذه الفتاة وأرغب في تشجيعها.

ـ تشجعني على ماذا؟

ـ أشجعك على الشعر، طبعا!

تذكرت زبيدة التعريفات التي قُدمت لها عن الشعر والشعراء:

«الشعراء لايحاجّون، إنهم يتطرّفون ويحبّون فحسب، ويتعيّن عليهم أن يكونوا في حالة سكر متواصل، لا بمعنى شرب الخمر بحصر المعنى، بل هو الترنّح بين المعاني والمشاهد». وتذكّرت كذلك ما قرأته صبيحة ذلك اليوم لأستاذها الناقد الجامعي محمد لطفي اليوسفي في تعريفه للشعر: «الشعر انشقاق وتمرّد على الممنوع والمحرّم. الشعر مغامرة خروج نحو المخالف والمغاير، وهو احتفال بالرغائب والأهواء»...

مازالت كل تلك التعريفات حيّة في ذهنها. فماذا يقترح عليها هلال الآن. قالت بفضول:

بماذا ستشجعني على الشعر؟ كيف ستشجعني؟

ـ أن تكوني في صحبتي ـ قال هلال ذلك ببساطة واقتناع وهو ينظر إلى زبيدة ثم إلى عباس الذي كان ينظر إليه ببلاهة ـ

ـ وهل صحبتك من شروط الشعر؟

ـ طبعا. هل في ذلك شكّ؟

ـ هي في صحبتنا ـ قال عباس متعجبا متنازلا ـ

ـ هذه صحبة سطحية تنتج شعرا سطحيا.

ـ وكيف تكون الصحبة غير السطحية؟

ـ حين نجلو يا زبيدة القشور، أو ما في مقامها. حين يغمرنا الموج ويدفع بنا إلى الأصداف القابعة في الأعماق.

كان هلال يدرك أن الشعر تجنيح في الآفاق وليس غوصا في الأعماق، ولكنه قال كلامه وهو يضمر النيل من الفتاة. كان مكتفيا بمتعة الجلوس إلى هذين الشابين يرمق بسعادة تناغيهما وزقزقتهما، وإذا بالحديث يتلوّى ويتعرّج وينزلق ويفتنه عن نفسه. لقد حرّك الحديث مع زبيدة لدى هلال الأحد شهوة عارمة للمراودة والقنص، شهوة حسب أن السنّ أقعدتها، فجرّد سلاح اللغة وبدأ ينصب الفخاخ للفتاة ولصديقها، قاطعا بمهارة وسرعة وتلميح بعض الخيوط التي تشدّ زبيدة إلى مواقعها. كان عليه أن يعمل المزيد لتجريد الشاب عباس من وجوده ودفعه خارج إطار

المشهد عبر توسيع الفجوة بينه وبين صاحبته.

ماذا تنويان للمستقبل؟ ـ توجّه بدهاء إلى عبّاس ـ

ـ سنتزوج قريبا ـ أجابت زبيدة بسرعة بديهة أنثوية.

ضحك عبّاس ونظر إليها محتارا ومعقّبا:

ـ سيكون ذلك عندما ترسو سفينتك على برّ، وقتها نفكّر في الموضوع!

ـ نتزوج ثم نفكّر في موضوع الزواج، ونختار مع بعضنا البرّ الذي سترسو عليه سفينتي وسفينتك، سفينتنا معا!

ـ هذا منطق غريب!

ـ نعم منطق غريب لأنه كلام شعراء ـ سارع هلال بالقول ـ هذه الفتاة لها قابلية عظمى للشعر ولا بدّ من تشجيعها. أقول تشجيعها، هه..!

ـ وهل يقتضي الشعر كلّ هذا الغموض؟

ـ بدون غموض لا يوجد الشعر ـ قالت زبيدة يائسة ـ

ـ أحسنت. أحسنت، الحياة أيضا لا توجد بدون غموض!

قال هلال ذلك وخطف يدها اليسرى وجعلها بين راحتيه. فرك اليد فركتين وربّت عليها ثم أعادها إلى حيث كانت على الطاولة. كان سلوكه مفرطا في الحماس. شعرت زبيدة بالقشعريرة وانتابها التقزّز من تلك الحركة المتصابية. رفعت يدها وأحاطت بها عنق عبّاس وهمّت بتقبيله لزجر هلال الأحد وصدّه. لم يستجب عبّاس. تملّص منها ورفع يدها عن رقبته وهو يقول:

هل جننت؟ هل هذا أوان التقبيل؟!

أنت لا تفهم. لا تفهم شيئا! ـ قالت زبيدة بسخط وبمزيد من الأسى ـ

ابتسم هلال وحرّك رأسه وجذعه حركات متتالية، إلى فوق وإلى تحت، علامة الموافقة والتأييد لزبيدة. كان قد انتبه إلى أن الفتاة لم تكن ترغب في قبلة قدر ما كانت تبحث عن حماية، وتسعى لحسم أمرها معه. في لحظة ثابت الأنثى فيها إلى رشدها وشاءت أن تختار الذكر الذي يناسبها. أرادت أن تتخلص من خزعبلات الشعر وشذوذه وغموضه وفتنته بشكل علني، عن طريق قبلة عمومية سافرة تقطع بها السبيل أمام نفسها من رعونة الشاعرة واندفاعها، لكنّ صاحبها خذلها، لم يقدر على إدراك طبيعة الترتيبات الخفية في هذا الوضع المبلبل، ومن حيث لا يدري ترك صاحبته فريسة للشعر ولهلال. قالت زبيدة بقنوط:

ـ أليس إنجاب القصائد أفضل من إنجاب الأطفال؟

فهم هلال وجهة حديثها ولكنه رغب، بخبث، أن يسدّ أمامها الأبواب، وأن يؤجّج حيرتها ويعمّق تخلخلها. قال منشرحا وبصوت متقطّع:

ـ إنجاب الأطفال للنساء أفضل من إنجاب القصائد. ثم إن النساء اللواتي يقدرن على إنجاب القصائد هن نادرات جدّا، كأنهن معدومات، وبالكاد نعثر على واحدة في التاريخ الأدبي يعتدُّ بها في هذا المجال..!

ـ ولكنّ هناك كثيرات ـ قالت زبيدة محتجّة ـ

ـ حتّى وإن وجدن فهن لسن شاعرات ذرى وقمم شاهقة. إنهن

شاعرات سفوح ووهاد، وذلك لأنه ينقصهن أقلام يكتبن بها!

ـ ما معنى ينقصهن أقلام يكتبن بها؟

ـ على الشاعر أن يكون له قلم يكتب به. في حين أن الشاعرات لهن محابر لا أقلام. ولهن أثداء فيها الحليب. لذلك من الأفضل لهن إنجاب الأطفال لا القصائد. هنّ مهيئات لذلك...

ـ هذا الكلام لا يليق بكاتب!

ـ اللياقة تعوق الشعر وتنمّط الحياة. اسمعي: الأنثى تنجب الأطفال بمساعدة الذكر، والذكر ينجب القصائد بمساعدة الأنثى. هل فهمت؟ حين يغمّس الذكر قلمه في محبرة الأنثى يتخلّق طفل في رحم الأنثى وتتولّد قصيدة في وعي الذّكر. المشكلة، هنا، أن عموم الإناث يكتبن قصائدهن البشرية، في حين أن هناك قلّة قليلة من الرجال يكتبون قصائدهم الشعرية.

ـ هذا طرح عنصري بغيض يقول به غلاة التطرّف الديني!

ـ أحسنت. ملاحظتك سليمة وصحيحة تماما. ولكن الشعر لا يكتبه إلاّ الغلاة، ليس الغلاة الدينيون بالضرورة. إنما الغلاة من ذوي الدماء الملتهبة هم الذين يكتبون الشعر. أولئك الغلاة هم فرسان قبائلهم ورايات عاليات للغاتهم القومية ودعوة أكثر إلحاحا للبشرية حتى تكون بشرية، وقصائدهم في النهاية برهان على حركة روح الإنسان عبر الزمان والمكان، ولا أقصد رهبان حقوق الإنسان من العرب والمسلمين، في حين أنهم لا رهبان ولا هم مع حقوق الإنسان... هل أنت معي؟

ـ لست معك. ما دمت قادرا على تعريف الشعر والشاعر تعريفا مشؤوما لماذا لم تصبح شاعرا؟ أخشى أن تكون لك محبرة مثل النساء لا قلما، حسبما وصفت النساء. ـ ابتسم عبّاس بغبطة حين سمع ملاحظة زبيدة التي بدت له ثاقبة وتطعن في رجولة هلال ـ

ـ لا أدري هل حالفني التوفيق في تعريف الشعر والشاعر. لكن ما أدريه هو أنني لن أقدر على أن أكون شاعرا. ثمة شيء جوهري ينقصني، لعلّه حمق الشعراء ونزقهم الساحر، أو لعلّني متردّد بين طبيعتي الأنثوية وطبيعتي الذكورية، لذلك فأنا أكتب الرواية. علما أن الرواية شأن أنثوي، وهي أشبه ما تكون بالطبخ وإعداد الأطعمة اللذيذة بتأنٍ على نار هادئة، مع القدرة على التصنيف لإثارة الشهية. نعم، إن للروائي محبرة مثل الأنثى، ولكنّها محبرة في صلب القلم وليس منفصلة عنه. لاحظي أنه منذ أُختُرِعَ القلم الحديث، الجاف السيّال، أُدمجت المحبرة في القلم، فخلقت الإنسانية فنّ الرواية. أما حين كانت الريشة مفصولة عن الحبر فوقتها كان زمن الشفوي والملاحم والشعراء يرتعون فيه على هواهم!

ليلة الأسنان الاصطناعية
وتعلّم التقبيل

تنبّه يوسف عبد الناصر إلى أن شهرزاد بصدد التململ وهي قاعدة في الفراش. فَهِمَ أنها تضايقت من الحوار الطويل المسهب بين هلال وزبيدة. يعرف يوسف مجدّدا أن شهرزاد ابنة الحكايات في القديم والسينما في الحديث وهي شغوفة بالحركة والمشاهد والتشويق وتكره الثرثرة والتنظير. إنها تحبّ سماع الأخبار وتجدّد الأحداث وتناميها. قطع يوسف الحوار بين هلال وزبيدة، ريثما يعود إليه لاحقا. انتقل للقول بأن هلال كان يدرك أن ذلك الحوار هو مجرّد أداة في لعبة الذكر والأنثى. كان المهم عنده هو أن يفوز في تلك اللعبة ويظهر على من حوله ظهورا قويا متألقا. لم يكن يعنيه صواب كلامه بقدر ما كان معنيّا بتقويض كلام زبيدة والهيمنة عليها. كان يرغب في أن يقع عليها لغويا إذا تعذر الوقوع عليها جسديا. كان شعاره: «الصبر مفتاح الفَرْجِ» مهما استغلق ذلك الفرْج واشتطّ في التمنّع!

انتهى العشاء. كان هلال وعبّاس منتشيين قليلا وهما يغادران المطعم

صحبة زبيدة. كانت زبيدة ترغب في مواصلة النقاش مع هلال لتستزيد من كلامه الغريب. سارت إلى جانب هلال والتصقت به في الشارع عندما أشرعت مظلتها لتحميه من المطر. راح عباس يتصيّد سيارة تاكسي. استغرب هلال من الكيفية التي تنازل بها عبّاس عن المقعد الخلفي المخصص لشخصين. بادر عباس من تلقاء نفسه بالجلوس على المقعد الأمامي إلى جانب السائق مفسحا المجال بذلك، وعن طيب خاطر، لاجتماع هلال بزبيدة. طلب عباس من السائق أن ينقلهم إلى شقّة العزاب حيث يقيم. استرخى هلال على المقعد وأفرد ذارعه وراء رأس زبيدة، ثم أرخى يده حتّى لامست كتف الفتاة. بقيت هادئة ولا مبالية. شجّعه ذلك على شدّها من أعلى كتفها. تلمّسها قابضا عليها من هناك بحرارة. أدارت له وجهها وبقيت شاخصة كأنها تحدّق به. جذبها من كتفها إلى صدره وضمّها وهو يهمهم في أذنها ويتشمّم شعرها: «أنت خارقة للعادة!». كان هلال يفكّر أن زبيدة صالحة لأن تكون من أطفال بورقيبة. لها قدر لا بأس به من الذهن المبلبل، والخيانة تجري، بعفوية وموهبة، في عروقها، مختلطة مع دمها. فتاة مُلْهَمة، تخلع أصحابها كما تخلع أحذيتها، وتوزّع الشقاء بالقسط والإنصاف على نفسها وعلى الآخرين. تألّم هلال قليلا من أجل عبّاس الصامت إلى جنب السائق يستشعر خلف ظهره عهر صديقته الشابة مع صديقه الكهل ابن الحرام. مثل هذه الوقائع ماذا ستفعل بعبّاس هو الآخر؟ هل ستجعله يغدو بدوره طفلا من أطفال بورقيبة. قال هلال لنفسه: «لا بدّ أن يعمّ الإحساس بالخيانة لدى الجميع»، وابتسم راضيا.

قاربت الساعة منتصف الليل حين وصلوا ثلاثتهم إلى شقّة العزاب الخالية. طمأنهم عباس إلى أن جاريه في السكنى متغيّبان. الأول مريض يقيم بالمستشفى لأنه مصاب بالإدمان على الأمراض والاحتفاء بها، والثاني تغيّب لحضور جنازة والدته في أقصى الجنوب. حجرتان وردهة في الممر بها صالون جلوس بال وكراسي منخفضة ومرتخية الحشايا. الأثاث قليل وموزّع بإهمال والأوساخ في كل مكان. فكّر هلال أن هذا المحلّ يصلح لممارسة الدعارة والفساد. توجّه هلال إلى المطبخ وهو عبارة عن زاوية ضيقة امتداد للردهة بها ثلاجة وجهاز غاز من أرخص الأنواع. فتح الثلاجة. وجدها منطفئة وليس بها شيء يؤكل أو يشرب. قال هلال: «أليس عندك شيء يُشرب نُكمل به السهرة؟» أجاب عبّاس: «لم يبق شيء ـ وأضاف بعد صمت ـ إذا رغبت في مشروب بإمكاني الخروج للبحث. أعرف بعض البيوت تبيع الشراب خلسة في النهار والليل». قال هلال: «حتّى لا تكون جلستنا جافة من الأفضل توفير القليل من الشراب... ما رأي زبيدة؟». قالت زبيدة: «الأمر لا يعنيني!». قدّم هلال ورقة نقدية من فئة العشرين دينارا. خطفها عباس وغاب. جلست زبيدة على الديفون. كانت تراقب هلال وهو يتفقّد شقة العزاب. اقترب منها ومسّ شعرها. خلّل فيه أصابع يديه الاثنتين. قال لنفسه بيقين: «هذه الفتاة لي!» فشعر بالإثارة والاقتدار. ملأه تصريحه لنفسه غبطة وحيوية. جلس ملتصقا بها. عزم على تقبيلها من شفتيها. فكّر في الوضع المناسب للتقبيل. هل يجذب عنقها ويلويه قليلا ليتاح له تناول شفتيها بيسر؟ أم يمدّ عنقه ويخطف قبلة جانبية؟ اختار

حلاّ وسطا. جذبها ومدّ عنقه. لم تمانع ولكنها لم تستسلم له. تصرّفت بطواعية وجمود. تركته يأخذ شفتيها وكانت مفتوحة العينين تبحلق فيه. حين حاول امتصاص الشفتين تملّصت وافتكّت نفسها. منحته تلك القبلة المفككة حلاوة عظيمة وهيّجته. لم يكن جلوسه مريحا. شعر بأنه غارق في الديفون الرديء ذي الحشايا المهلهلة. ذلك يعوقه عن الحركة وحسن الآداء. قدّر أن وضع الفتاة هو مثل وضعه. قبل أن يفكّر في تغيير الوضع أو المكان كان عليه أن يهيء الفتاة. أن يُسخّنها وينقل لها الاهتياج. للصبايا نهود ذات حساسية فائقة وعليه أن يحاول من هناك. مدّ يده واحتضن النّهد من تحت برفق. حرّك أنامله قريبا من إبطها. اقشعرّ جسم زبيدة فانتفضت. كان نهدها صغيرا، مكوّرا ومنتفخا، فيه تماسك وشيء من الصلابة والسحر. ملامسته تطيّر اللبّ وتصيب الشيوخ بطيش الشباب. «أمّاه، أماه، أمّاه». غمغم هلال وهو مفتون عن نفسه. انبعث فيه ظمأ قديم، حادّ وموجع، للرضاعة. تدشين نهد لم يُرضع من قبل وتحويله إلى ثدي ليكون، هو هلال، الابن البكر لزبيدة من الرضاعة، على الأقلّ! ثدي طازج يعثر به للحظة واحدة على أمّه التي لم يتعرّف عليها بعدُ في هذه الفتاة. لن تكون أمّه إلاّ حين تتلوّث وتغدو زانية من أجل أن تكون قديسة فلا يجرؤ أحد على رميها بحجر. «أمّاه، أمّاه» غمغم ثانية وهو يجثو على ركبتيه مقابلا لها، يسعى لحشر رأسه بين نهديها الصغيرين اللذين لا يكفيان لشيء. توتّرت زبيدة. شعرت بفورة في جسدها جعلت أنوثتها تتماوج وتصطخب، لتسفر عن الغرائز السحيقة لديها، غريزة الأرض تنتفض لاعتصار غيمة، حتّى

وإن كانت غيمة صيف بلا بلل ولا ندى. فكّ أزرار قميصها الأبيض الذي يشبه بشرتها. بدا وكأنه يقشّرها. كشف عن صدرها الناعم ذي البشرة الوثيرة وشرع يحرّر النهدين الصغيرين من الحامل، لينتصبا مذعورين، ويستقرّا شامخين في تألق، بحلمتين واسعتين لهما لون وردي عجيب. قبلات سريعة متلاحقة هنا وهناك. داعب الحلمة بلسانه، وتلقفها بشفتيه، فتخدّرت زبيدة وصدرت عنها تنهيدة حارّة ومتقطّعة. أبقى هلال يديه محتضنتين للنّهدين وصعد بجذعه إلى وجه زبيدة ليشكر الفم الذي تنهّد. انقضّ على فمها لاحتواء شفتيها بفمه. حرّكت شفتيها بانفعال. التقط الشفتين معا في النهاية ليجعل التقبيل امتصاصا. كانت شفتاها لذيذتين نديّتين ينبع منهما رضاب آسر. حلاوة عظمى تذوّق منها بعض القطرات، وهي تعِدُ بالكثير الكثير. ذاب هلال في الشفتين وعمل على التقاط اللسان. اصطكت أسنانه بأسنانها. دفعته زبيدة بكلتا يديها من منكبيه لتتخلص من جثومه عليها. قالت بتوجع وغنج: «أنت لا تعرف كيف تقبّل، أسنانك حادّة، آلمتني!». كان محموما فابتسم وهمّ بالعودة إلى ما كان فيه. عاودت دفعه قائلة: «لا أصدّق... بلغت هذا العمر ولا تعرف كيف تقبّل!»

ـ لا أعرف كيف أقبّل... تقدّرين أنني نسيت التقبيل؟ تقبيل فتاة شابة مثلك أعني... لا بأس علّميني من جديد!

ـ أعلّمك ماذا؟ بعدما شاب أدخلوه الكتّاب!

ـ وماذا في ذلك؟ أطلبوا العلم من المهد إلى اللّحد...

ـ إنك تفتح فمك بطريقة غريبة. أسنانك تزاحم شفتيك. عيبك لا

صلاح له. قبلاتك اصطناعية مثل أسنانك!

قال هلال مازحا:

ـ معنى ذلك أنني غدوت أتقن صنعة التقبيل. أتصنّع ذلك! صرت اصطناعيا! ماذا أفعل؟ من كثرة التقبيل حصلت لي خبرة به فصرت صانع قبلات ماهر!

ـ وهل التقبيل صنعة؟

ـ آه، طبعا، طبعا! عوض أن نأكل شفاه من نحبّ دفعة واحدة اخترعنا التقبيل لندّخر الشفاه اللذيذة، ونستمع بامتصاصها أطول فترة ممكنة! وهذا لا بدّ له من حذق وصنعة...

ـ قرأت أن التقبيل تنويع على الرضاعة. كل فترة من عمر الإنسان تتطلّب نوعا من الرضاعة، وهكذا فالإنسان رضيع أبدي، يحتاج أن يرضع باستمرار بأشكال مختلفة.

ـ أنا من كتبت ذلك الكلام في رواية «بحار الكائن الخائن»...

ـ نعم! ذلك صحيح، تذكرت الآن... يبدو أنّك تحذق الكتابة عن التقبيل لكنّك لا تحذق فعل التقبيل، هذه مفارقة!

ـ ما تقولينه هراء! الحذق في ممارسة الأشياء في الواقع هو الذي يوصل إلى الحذق في الكتابة. هل تظنين أن الكتابة يمكن أن تأتي من الفراغ والخيال والوهم والنظريات؟ لا! إنها رحيق التجارب...

ـ كلامك لن يخدعني... عرفت كتابتك وعرفت ممارستك. ممارستك رديئة لا يمكن مقارنتها بكتاباتك. إنّك لا تحسن التقبيل، هذا

واضح... قبلاتك تسبّب النفور!

ـ ومن أين لك المعرفة بالتقبيل وأنت في هذه السنّ؟ مازلت صغيرة!

ـ عشرون سنة من العمر تكفي لمعرفة التقبيل! هل تتصوّر أنك أوّل من يقبّلني؟

ـ لا أدري...

ـ لعلمك، جرّبت التقبيل عديد المرّات.

ـ مع كم واحد؟

ـ ثلاثة، أربعة تقريبا.

ـ التقبيل فقط؟

ـ التقبيل فقط.

ـ مع أناس من أهل الثقافة؟

ـ نعم

ـ هل أعرفهم؟

ـ لا أدري.

ـ إذن أنت لست مشروع شاعرة، بل أنت ثروة جنسية للساحة الثقافية المحلية. نعم، لابد من فتيات مثلك لتفريج كرب الشعراء والكتّاب والفنانين والتخفيف من مللهم وكآبتهم المزمنين.

قال هلال ذلك وهو يرغب في أن يهين زبيدة. أن يوحي لها بأنها فتاة عمومية مشتركة، أدنى حتّى من أطفال بورقيبة، وُجدت لتقديم خدمات جنسية للآخرين. فعل هلال ذلك مقابل إهانتها له بالتعبير

عن سوء تقبيله. كانت بذلك الكلام قد سدّدت له لكمة قوية على فمه أوجعته. لكنه تكتّم عن وجعه. ذكّرته كيف تساقطت أسنانه الأمامية من فوق ومن أسفل. أصيب وهو في الخامسة والأربعين من عمره بمرض تصحّر اللّثة وتراجعها. تخلخلت أسنانه عند منابتها وتهاوت فزرع أسنانا عليا مع نابين وسفلى مع نابين. قيل له أن مرضه وراثي. فكّر هلال في أن عائلته، عائلة الزنى، لم تجد ما تورّثه سوى تساقط الأسنان والسقوط الوجودي والروحي. لمن يعود ذلك المرض؟ هل ورثه عن أمّه أم عن أبيه؟ أيهما أدرد الفم منزوع الأسنان؟

متداعيا للسقوط كان يتخيّل والديه معا بفمين خاليين من الأسنان، فمّين مفتوحين كهاوية، وهما يعملان على تشكيله في رحم الخطيئة والعار، ولهاثهما وشهيقهما يعلوان ويتحوّلان إلى فحيح وزفير. كان يغمض عينيه ويشتم الدماء الوسخة والأفواه الخربة. كان يقول، لتعزية نفسه، إن العضو الذي يتخاذل في بدنك، ولا يُكمل معك مسيرة العمر، ويسقط في منتصف الطريق، هو غير جدير بك، فلا تحزن عليه ولا تبتئس، ليذهب إلى الجحيم، إلى أرذل منطقة في الجحيم. نعم، هي الأسنان الاصطناعية التي أفسدت أسلوبه في التقبيل! أحالت مداعباته الفميّة إلى شيء مقزّز وجارح. قال: «لا بأس. مازال في بدني الكثير من الأعضاء غير الاصطناعية التي يمكنني الاستنجاد بها عند الضرورة. التقبيل ليس كل شيء. ثمّة ما هو أهمّ منه بكثير. مادامت هناك خلية واحدة سليمة مازالت تنبض في بدني فسيتسنّى لي التصرّف فيها واستعمالها وقت اللزوم من أجل إرضاء امرأة ترغب فيّ». قال لزبيدة:

إذن، أنت لم تجرّبي سوى التقبيل؟

مثلما قلت لك!

ـ لكن التقبيل هو مجرّد شاطئ للنص. لا يمكن أن نعرف النصوص والبحار من خلال المكوث على الشواطئ. لابدّ من الإبحار. لماذا لم تبحري مع واحد من أولئك الذين قبّلوك؟

ـ لا أحسن السباحة وأخاف من الغرق ـ قالت ضاحكة من كلام هلال اللائذ بالاستعارة بعدما أعيته الحيلة المباشرة. اعتبرت أن هروبه للاستعارة هي محاولته الأخيرة معها ـ

ـ لا مفرّ لكِ من الإبحار وإلاّ ستيبّسك الشمس وتحرقك على الشاطئ.

ـ أخفتني بهذا التهديد! اطمئن، لن أحترق... كل شيء بأوان!

ـ أحسنت. هذا ما أقوله أنا أيضا. لقد آن الأوان في هذه الليلة.

ـ معك أنت؟! ـ سألت متعجّبة ـ

ـ نعم، معي أنا. لن تَجدي من هو أفضل منّي في شقّ عباب الموج والغوص بمرونة ومهارة ولياقة. أنا خبير بالبحار وأتقن حرفة النمل. أنت معي في مأمن وسلامة.

ـ تتوهّم! كلّ الناس يتقنون ركوب مثل هذا النوع من البحار، حتى القطط والكلاب وسائر الحيوانات الأخرى تتقن هذا النوع من البحار. البحار حسب استعارتك، فلا داعي للتبجّح بالخبرة.

ـ ولكن يا صغيرتي، يا صغيرتي... ليس الأمر على هذا النحو. القطط

نعم، وسائر الحيوانات الأخرى، نعم. ولكن ذكور البشر ليسوا مثل ذكور الحيوانات. قضبان بني البشر في أدمغتهم وليست بين أرجلهم. إن الذكر منهم لا يقع وقوع البهيمة إلاّ إذا كان عقله عقل بهيمة... مع الأسف، الكثير من النّاس قريبو النسب بالبهائم، خصوصا في فترات معلومة من نموّهم، والدليل على كلامي هو يوسف عبد الناصر الذي يحكي حكايتنا لشهرزاد في حين أننا نحن الذين نحكي حكايته. تخيّلي يا زبيدة أن عقل يوسف لم يعترف برجولة يوسف! أقول لك أن يوسف كان معافى عضويا وسليم البنية وليس له من عيب جسدي ظاهر أو خفيّ، لكن عقله يرفض تلك الجلدة الصغيرة التي بقيت عالقة بمقدمة قضيبه. قلفة تافهة، لئام من الجلد يُغطي مقدمة عضوه حرمه من أن يكون إنسانا سويّا. تصوّري أن العقل ليس ملك صاحبه، بل هو ملك الرموز والأعراف. ملك تلك الجلدة الصغيرة التي لم تقطع. عقل مختون يخذل صاحبه المختوم... هذا ليس علم نفس يا صغيرتي! إنه علم عقل الجلود والأرواح. علم الأوشام والبصمات التي نقشت على مساماتنا، هل تفهمينني؟ إنه علم متعذر ولا طائل من الخوض فيه. فقط يمكن أن نتأمّله من خلال تجلياته في الأمثال والعمران وعلى جلود الناس وفي الحكايات، ومنها حكاية يوسف عبد الناصر.

ليلة زفافه من شهرزاد، الفنانة التي لها وفرة في الأنوثة والجمال والجاذبية، أين أنت منها حسنا وفتنة؟ ـ انزعجت زبيدة من المقارنة. قالت لهلال: «احك دون أن تسئ القول! أو اصمت أفضل لك...»، واصل هلال: لا نقارن سوى الأشياء القابلة للمقارنة. أنت جميلة يا زبيدة، هذا ما جعلني أقول ما قلت من أجل أن أعطيك صورة عن

روعة شهرزاد، روعة لم تشفع ليوسف، لا ليلة الزفاف ولا في ما يُسمّى بشهر العسل، ولا حتّى في الأشهر القليلة الموالية. طيلة تلك الفترة كان يوسف محطّما مخلخلا ومطعونا، ينعزل بين الحين والآخر، ليسدّ الأبواب ويمارس عادته السرّية الكريهة، وهو يتخيّل شهرزاد، زوجته، التي هي طوع يمينه. كان يفعل ذلك ويفكّر في الانتحار. تيقّنت شهرزاد أنها مقبلة مجددا على دمار عائلي إذا لم تتولّ بنفسها إنقاذ الموقف. كان يوسف الذي يصغرها سنّا قد انهار بين يدي شهرزاد في شهر العسر وأعلمها بمصيبته. لم تستطع معه شيئا، طيلة خمسة شهور طويلة، سوى إبداء بعض مشاعر التعاطف والرثاء وقليل من التعزية، ثم النفور والاشمئزاز، ثم التسليم والتفكير في حلول ممكنة. لم تُجْدِ نفعا جميع محاولاتها وتنازلاتها الأنثوية المهينة لكليهما. الإناث، يا زبيدة، هن من ألطف خلق الله عندما يتنازلن بلا حدود. هن دائما الأقوى والأكثر خطورة والأكثر رحمة أيضا لأن لهن مغاور وهاويات سحيقة يبتلعن فيها ما يتعذّر ابتلاعه.

عملت شهرزاد مع يوسف أعمال غواية وإثارة تجعل الحجر يسترجل وينتصب ويقتحم، ولكن بلا فائدة. طافت به على الأطباء وأصحاب الكرامات والدجل، بلا فائدة، بلا فائدة على الإطلاق. في النهاية، في آخر نقطة من مرحلة اليأس، تفتّق ذهنها عن حلّ أخير، لا يمكن أن يَرِدَ إلاّ على ذهن واحدة من طينة شهرزاد. حلّ خلاّق. حلّ عبقري بالمعنى الكامل للكلمة، وكان آخر سلاحها، إذا لم ينفع فليحلّ الدمار بلا أسف. أعلمته أن عليهما إيقاف جميع المحاولات الجنسية والعلاجية. أن يتقبّلا بعضيهما على الحالة التي هما عليها،

بدون تطلّع لأي شيء آخر مما يتمّ بين الرجل والمرأة. قالت له أن ذلك لا يضيرها في شيء. ستتقبّل حالته بدون شكوى ولا تذمّر ولا ملل طوال عمرها، شرط أن يخصّصا وقت الجماع المفترض لتمارين في التمثيل. ستعمل على أن تنقل إليه خبرتها في التمثيل. أن تدرّبه شيئا فشيئا ليتقن التمثيل ويصير ممثلا، ليتسليا بهذه الطريقة ويعوّضا بها ما يفتقدانه. كان سلاح شهرزاد الأخير مع يوسف هو التمثيل. أن تعلّمه فنّ الخروج من الذات. فنّ تأجير البدن ونكرانه وتقمّص شخصيات وأدوار مفترضة. أن يلعب مع نفسه ومعها ويعود إلى براءة الطفولة غير المكترثة، حيث الأشياء مازالت لم تتحدّد بعدُ.

تذكّرت شهرزاد كلام مدربها الإيطالي: «الممثّل هو اللاأحد، هو دوره فقط. أن يلعب ما يعرض عليه من أدوار، ويعيشها بعمق، وتكون حياته، لأن الحياة لا شيء آخر غير أدوار تُلعبْ، والفرق الوحيد بين الحياة والمسرح هو الفضاء المكاني والزماني. في مكان معلوم، ووقت محدّد، تتكثّف الحياة وتنكشف لتتحوّل إلى مسرح». تذكّرت إشارة أخرى لذلك المدرّب الذكي الذي استفادت منه كثيرا: «الممثل الناجح هو الذي يعرف كيف يندرج في السياق دون إمّحاء ولا هيمنة، بلا زيادة ولا نقصان. يتقبّل بامتنان الأدوار التي تعرض عليه ليجعلها تناسبه، ويؤديها بنفس الرغبة والحرارة مهما كانت أحجامها. في المسرح لا بطولة إلاّ للعرض ذاته، وما سوى ذلك هباء».

ليلة توزيع الأدوار

في تلكم الأيام، وفي كلّ الأيام، يختنق المسرح في البلاد، ويعاني الممثلون شبه بطالة مزمنة، فالنّاس هنا لا يعرفون الحياة كثيرا فكيف لهم بمعرفة المسرح؟ لا أدوار حقيقة ولا أدوار مفترضة. حالة من الميوعة الموحلة. كما لو أن الأشياء في طور التخلّق واللزوجة، دون أن تَبينَ لها ملامح واضحة ولا أدوار! في ذلك الجوّ الأجدب القاحل عثرت شهرزاد على حلّ بيتي لمواهبها المسرحية الكونية. أن تمثّل في بيتها وتحوّل زوجها إلى ممثل. أن تحوّل هذا الألسني السخيف، الولوع بالفروق الدقيقة بين الحروف والكلمات والأصوات والبُنى، مع أنه لا يقدر على التفريق العملي بين يده وفرج امرأة! أن تحوّلها من لساني عاطل إلى إنساني غير عاطل.

حاولت شهرزاد في البداية ابتكار أدوار سهلة ورائجة لها ولزوجها. أن يتجوّلا في البيت شبه عاريين دون أن ينظر أحدهما إلى الآخر. أن يقوم يوسف بدور مريض مشرف على الهلاك وتقوم هي بدور الممرضة المنقذة. بدور المفتّش والقاتل. بدور الخادم والسيّد. بدور السلطان والوزير. بدور الزانية والزاني يضبطان قبيل اقتراف الجرم... خلال

كل تلك العروض الشّاقة المسلية لاحظت شهرزاد أن يوسف أظهر قدرة عجيبة على تقمّص الأدوار، حتّى باتت تلقى، أحيانا، صعوبة في العودة به إلى سالف وضعه. كان يستمرُّ يهذي بكلمات من أثر الدور ويظل يُبدي منه بعض الحركات والإشارات. كلّما بقي الدور لعدّة أيام ينسلخ يوسف عن نفسه ويترسّخ في الدور، ويصير دوره، عندئذ تعمل شهرزاد على تأليف مسرحية جديدة بأدوار جديدة، إلى أن قررت أن وقت الامتحان الكبير قد أزف. قامت بمسرحة مشهد من الفيلم الذي شاركت فيه عن الحركة الوطنية، والذي ساهم يوسف في صياغة بعض من مقاطع السيناريو فيه. اختارت شهرزاد بدقّة وقصد المشهد الذي اغتصب فيه ضابط الجندرمة الفرنسي فتاة تونسية على صلة بفصائل المقاومة الوطنية. كان الضابط قد اشتبه في سلوك الفتاة. حقّق معها مرّات عديدة بقسوة. تحوّل التحقيق المتكرّر والطويل إلى افتتان الضابط بالفتاة. باح لها بعواطفه وصار يعاملها برقّة وتولّه. صدّته الفتاة بقوّة وحزم وسخرت منه. بعث لها في المرّة الأخيرة من أجل تحقيق جديد معها. انفرد بها في مكتبه واغتصبها وافتضّ بكارتها وأسال دمها بين فخذيها. دور فيه قليل من الرقّة والكثير من العنف والتحدّي. تفطّن يوسف إلى نوايا شهرزاد وطبيعة الدور الجديد المعروض عليه. ثمّة اغتصاب وإيلاج ودم يسيل هذه المرّة. خشي أن يُمنى بمزيد من الفشل فيخسر الرهان حتّى في الأدوار المسرحية عزائه الأخير. لكنه تحايل على نفسه بطمأنتها إلى أن الممثل فيه هو الذي سيخسر هذه المرّة إذا كان ثمة فشل وخسران. ومن أجل تحريضه على قبول القيام بالدور قال يوسف

لنفسه: «المسألة لا تتعدّى برهة أقوم فيها بتقمّص دور ضابط فرنسي. لا داعي للخوف. المسألة كلّها مسرح في مسرح، وأقنعة تتبادل الأدوار والمواقع!».

بُدئت التدريبات الأولى وهُيِّء الركح وضبطت الإنارة وأعدّت الأكسسوارات والمتممات الصوتية وما يلزم من تقنيات. بدأ كلّ واحد يحفظ دوره ويتدرّب عليه منفردا قبّالة مرآة. شُحن يوسف بالدور وامتلأ بعنف قديم جارف. كان ينظر إلى شكله في المرآة والأطوار التي يستغرقها ليتحوّل إلى ضابط استعماري متوحّش. برق في ذهنه خاطر أنه سيقوم فعلا بافتضاض شهرزاد. إن لم يسعفه قضيبه فسيفعل ذلك بعصا الضابط. لا بدّ أن يسيل دمها من بين فخذيها. لم تترك له من سبيل. هي التي اختارت لنفسها هذا المصير. لم تعد له حيلة في الأمر. عزم على القيام بافتضاض شهرزاد حتى لو أدى الأمر إلى شقّها نصفين بالعصا أو قتلها.

بدأت المسرحية في يومها المعلوم، كان يوسف يتحرّك بتعجرف وبتذلل، مرّة بغطرسة المستعمر العسكري وأخرى بانكسار العاشق الولهان، لكن دائما بعنف يوشك أن يتفجّر. كانت شهرزاد في مواجهته مذعورة، حقيقة وتمثيلا، وتحاول المحافظة على رباطة جأشها وتفتعل الأنفة وتصرّ على المقاومة. اندفع يوسف نحوها قبل أوان الاندفاع المسرحي. كان يُرغي ويُزبد وتتلاطخ حركاته بكلماته. أخذها من كتفيها وألقاها أرضا. جثم عليها فظلّت تقاومه بشراسة. بساقيها ويديها وكلماتها وتقلّباتها ذات اليمين وذات اليسار. رفع تنّورتها الواسعة ومزّق

سروالها القصير. شدّها إليه، من وسطها، وقد انبثق متاعه من فتحة بنطلون الجندية، وانغرس فيها وهو يخضّها على وقع صياحها وتفاجئها وعويلها المجروح.

عاشت شهرزاد اتصالها الجنسي الأوّل اغتصابا بإرادتها وتخطيطها، لكن بعنف مُغالى فيه لم تحسب حسابه. نهض يوسف من فوقها وهي مبعثرة ودامية تختلط لديها مشاعر الاضطهاد بالانتصار بالانكسار. توجّه يوسف، مثل ضابط الجندرمة الفرنسي في فيلم الحركة الوطنية، إلى مكتبه الصغير ومسك قلم حبر أزرق دوّن به مذكرة يعلم فيها رؤساءه بالحادث ويطلب إعفاءه من الجندية. فعل ذلك بسرعة وخرج من باب المكتب دون أن يلقي نظرة على ضحيّته. كان يوسف قد تقمّص الدور كاملا وأضاف له عنفا مضاعفا من عنده. خشيت شهرزاد من ذلك وخافت. كان عليه أن يستفيق مباشرة إثر حدوث الاغتصاب والافتضاض. لقد اقترف شيئا خارقا للعادة وعليه أن يثوب إلى رشده. لحقت به شهرزاد. أولى يوسف وجهه للحائط في الممرّ وهو ينتحب. لم تدرك شهرزاد هل كان نحيبه جرّاء الندم أم الفرح؟ قالت متهلّلة متوجّعة وهي ترغب في التفوّق على حالتها المزرية: «نجحنا! نجحنا يا يوسف! نجحنا...»، نظر إليها بشرود وعيناه مليئتان بالدموع. فكّ ذراعيها اللتين طوّقتا رقبته، ثم شرع يخلع بدلة الضابط الفرنسي. كوّم البدلة ووضعها بين يدي شهرزاد وعاود النّحيب. احتارت شهرزاد، لم تدر، مرّة أخرى، هل كان نحيبه جرّاء الندم أم الفرح؟ مبعثه المرارة أم الحلاوة؟ لكن ما أدركته، فيما بعد، هو أن يوسف لم يكن هو من

ضاجعها وافتضّ بكارتها عنوة وبلا رحمة، بل كان دوره! طيف ذلك الجندي الفرنسي الغازي! لم تول للأمر كبير أهمية. كانت تفكّر في ضرورة أن تعمل في المرات القادمة على أن تكون الأدوار الموكولة إليها وإلى يوسف أقلّ وحشية وعنفا، وأن تضفي عليها بعض الليونة وغلالة من الرومانسية والمتعة.

قامت شهرزاد بمعية يوسف بتأليف مسرحيات كثيرة لعبا أدوارها معا. أغلبها كانت غرامية والفراش فضاءها الركحي. بفعل الأدوار المسرحية انجبت شهرزاد من يوسف ابنا أوّلا ثم ابنا ثانيا فثالثا، ثلاثتهم سمّاهم جدّهم المكنّى بالحصان، على التوالي: محمد وعيسى وموسى. عند مولد الذكر الأوّل سارع الحصان العجوز إلى المصحة، دخل على ابنته وهو يلهث، يكاد يتساقط من الإعياء. أخذ المولود بين يديه المرتعشتين وهو يترنّح بما يحمل ويفيض البِشْرُ من وجهه. قال لابنته وهو ينظر إلى صهره يوسف: «مبروك علينا محمد. هذا هو محمد الذي كنت أنتظره قبل أن أموت». أعاد الوليد بتؤدة إلى جانب أمه على السرير وقفل عائدا من حيث أتى. دهشت شهرزاد من والدها الذي اعتزل الحياة ورغم ذلك علم بوضعها، وكأنه كان يراقب حملها من حيث لم تكن تدري. المشهد ذاته تكرّر مع ابنها الثاني عيسى وابنها الثالث موسى، الذي أضاف الحصان وهو يحتضنه مرحّبا: «سأبقى على قيد الحياة في انتظار إبراهيم حتّى تكتمل درر العقد الفريد»!.. ولكن الحصان مات وإبراهيم لم يأت. ثم لم تكن إلاّ صيحة واحدة وقضي على الأطفال الثلاثة في حادث سيارة، نجت منه شهرزاد بأعجوبة، بعد أن

فقدت البصر والكلام والشمّ وساقيها، وظلّت رهينة الفراش يعمّها الظلام من كل جانب.

قالت زبيدة لهلال:

ـ أحداث عجيبة!

ـ ما هو الشيء العجيب؟

ـ كل هذا عجيب...

ـ ما هو الأكثر عجبا من بين ذلك العجيب؟

ـ الحكاية!

ـ عليك إذن أن تعيشي حكاية عجيبة ـ قال هلال بدهاء ـ

ـ كيف؟

ـ (قال بصوت غير مسموع: أنت في سبيلك لأن تكوني أعجوبة، فالعهر والخيانة يتطلعان نحوك، فلا تستعجلي الأمر. وأضاف بصوت مسموع وهازئ) أن تتناولي شراب المحبّة. أن تصيري حبيبتي...

ـ حبيبتك! ولكن لا أمل منك! أنت متزوّج وأب، وفوق ذلك أنت هرم فوق الستين و...

ـ فقدان الأمل! وماذا أيضا؟ لا يكون شيء عجيبا إلاّ حين فقدان الأمل. ـ قال ذلك بنفاد صبر وهو يحاول أن يطوّق بحنكة وتغرير ما تبقى من مواقع الفتاة ـ

أخذ هلال زبيدة بين ذراعيه ونهض من على الديفون بعدما شعر بألم

في ركبتيه. كانت الفتاة مستسلمة. أوقفها مسنودة للحائط. ابتعد عنها خطوتين وشرع يتأمّلها. بدت له رائعة ومبلبلة الخواطر. تساءل: «هل تستحق الحياة كل هذا الجمال وكل هذا العبث وكل هؤلاء الضحايا؟». كان يتأمّل الفتاة فألمّ به خيال بنتيه. كانتا في عمر يفوق عمر هذه الفتاة. تساءل مرّة أخرى: «ماذا لو كانت واحدة منهما أو كلتاهما في وضع زبيدة؟ كيف ستكون مشاعري كأب؟».

سبق لهلال الأحد، في غير هذا المقام، أن طرح على نفسه سؤال أنوثة بنتيه، وهو يتابع نموّهما المندفع، بلا توقف، كما لو أنهما على عجلة من أمرهما. البنات يكبرن سريعا بصورة لا تصدّق. هن نبت إبليس! ها هو يضيف لبنتيه شذوذ فارق السنّ ليصبح السؤال أكثر مأساوية وحدّة. كان يقول: «زرعوا فأكلنا ونزرع فيأكلون». لكن الجارح عند هلال أن يتخيّل الوالد ابنته في حالة مضاجعة، وقد تبدّلت سحنتها وتعرّت، وغريب من الأغراب يخضّها ويخرجها عن أطوارها بطريقة لا رحمة فيها ولا كرامة، يفعل بها في وجهها وفي فمها وفي كامل بدنها فعل الحرث والتقليب والطعن ليثخنها جراحا. فكّر هلال أن عرب الجاهلية كانوا مرهفي المشاعر عندما كانوا يئدون بناتهم حتّى لا يعرّضوهن للتمريغ والتمثيل. يذكر أنه كان في لبنان يتبادل مع علقمة بعض النوادر عن علاقة العرب القدامى بالنساء. علق بذاكرته ما رواه علقمة عن يسار الفارسي من شعر ديك الجنّ الحمصي وهو يعرّض بالعرب: «فاتركي الفخر يا أُمَامَ علينا/ واتركي الجود وانطقي بالصواب/ واسألي إن جهلت عنّا وعنكم/ كيف كنّا في سالف الأحقاب/ إذ نربّي بناتنا

وتدسّ/ ون سفاها بناتك في التراب» فلما سمعه أشعب قال: «صدقت يا أبا فايد، أراد القوم بناتهم لغير ما أردتموهن له» قيل وما ذلك؟ قال: «دفن القوم بناتهم خوف العار وربيتموهن للنكاح» فضحك القوم، وودّ يسار لو تسوخ به الأرض. أما مطيع بن إياس فقد مرّ بيحيى بن زياد وحمّاد الراوية وهما يتحدّثان، فقال لهما: «فيم أنتما؟» قالا: «في قذف المحصّنات». قال: «أو في الأرض محصّنة نقذفها؟». وذلك القول يسبق مقولة سارتر: «كل النساء عاهرات إلاّ أمّي لاحترامي لها» ويتفوّق عليه زمنا ومعنى، كما كان يقول علقمة.

قدّر هلال أن العار لم يُبْقِ حصنا إلاّ اجتاحه ودكّه. قال: «فليكن، كان الفضل للقدامى حين وعوا هذا الأمر وسلّموا به، وكانوا في فترة الإسلام الأولى ينكحون ما طاب لهم، بل كان الأصحاب يتخيّرون بناتهم الصغيرات ويتبادلونهن للزواج دون أن يلقوا بالا لفارق السنّ، وكانوا بذلك يتنعّمون بهذه الطريقة المثلى». تأمّل هلال زبيدة على بعد خطوتين منه ثم اقترب منها. أخذها بين يديه واحتضنها بحنوّ. فكّر أن لا حيلة له مع بنتيه اللتين على أبواب العنوسة. ليسلكا الدرب الذي يناديهما، مع أن لا درب ناداهما وهما في بحر الثلاثين من العمر بفارق سنتين للكبيرة عن الصغيرة. حاول أن يطردهما من خياله وأن يخلي نفسه لهذه المتعة السانحة. داعب زبيدة من نهديها ووجهها دون أن يقبّلها. التصق بها ودسّ يده أسفل بطنها. كان يعمل ما فيه وسعه لتهييجها، لكنها كانت قد بردت، بَرَدَتْ تماما ولم تعد قادرة على التفاعل معه حتى بقدر ضئيل. فكّ حزام بنطلونه وتركه يسقط على كعبيه دون

أن يتخلّص منه نهائيا. تلاحقت أنفاسه فيما يشبه اللهاث. ضحكت زبيدة وهي تقول:

ـ لم أكن أتصور أن رجلا في مقامك وفي سنّك يتصرّف بهذا الشكل!

ما معنى ذلك؟

تجهد نفسك بلا طائل.

لأنك لست متعاونة...

ـ أتعاون على ماذا؟ لا، إنك غريب الأطوار... لم أكن أتخيّل أن أراك على هذه الصورة!

ـ ماذا؟

ـ أقصد أنك في حالة غريبة... بلا وقار! نزعت بنطلونك فنُزع عنك عمرك والوقار، قالت ذلك وضحكت بصوت مرتفع وبشماتة...

ـ إذا نزعت أنت بنطلونك فسيعود لي عمري ووقاري... لا تتركيني بلا وقار!

ـ أفضّل أن تبقى بلا عمر ولا وقار على أن أخلع أية قطعة من ثيابي.

ليلة الوقت الفنّي

سُمعت حركة المفتاح وهو يدور في قفل الباب. تملّصت زبيدة من التصاق هلال بها. انحنى هلال ببطء يلتقط بنطلونه من بين قدميه. دخل عبّاس وهلال منحن عاري الساقين ومؤخرته المستورة في مواجهة الباب الخارجي. لمح عبّاس الشعر الرمادي الكثيف ينتشر على ساقي هلال. التفت هلال وهو يستوي واقفا إلى عباس. قال عباس من فوره أنه أمضى أكثر من ساعة يطرق أبواب بيوت بيع الخمور السوداء ولكنه لم يظفر بشيء. نفدت السلعة عند الجميع، فشعبنا الحبيب المسلم في حاجة إلى السّكر لينسى نفسه وليرفّه عنها في الوقت ذاته. الرفاهية قليلة والشعب كثير. الطلب أكثر من العرض. قال عباس وهو يرمق زبيدة بنظرة مُلْغِزة. ابتسمت له زبيدة وحرّكت رأسها بتواطؤ. قال عبّاس إن الوقت تأخّر كثيرا وله عمل صباح غد، وأنه مجهد ويرغب في النوم. قال ثانية وهو يدلف إلى حجرته: «تصرّفا كما يحلو لكما... سأغلق باب غرفتي وأنام. الوقت متأخر، فلا تأْبَها لي!»

سألت شهرزاد نفسها بصوت قلبها: «متى يكون الوقت متأخرا ومتى يكون متقدّما؟». منذ أن غدت تعمَه في الظلام، ذي الغلالة

البنفسجية، إمّحى لديها إيقاع الوقت والإحساس به. اندثر إحساسها بالليل وبالنهار. صار الوقت عندها مجرّد ألفاظ جوفاء لا تدلُّ على شيء، رغم أنّ تلك الألفاظ تحدث طنينا في أذنيها. إنها تحاول الآن تخيّل معنى الوقت المتأخر. هل يتأخر الوقت حقّا وهل يتقدّم؟ عند من يتأخر وعند من يتقدّم؟ وهل ثمّة شيء اسمه الوقت؟ أليست المسألة مجرّد خيال؟ خيال نُعلي من شأنه ونحتفي به بكثير من الضوضاء، ونسمّيه الوقت، ونصبّه في الكؤوس ونحتسي سمّه المميت. نتصرّف معه بجدية وحرص ولهفة، فيصير ذلك الخيال شيئا فشيئا متعجرفا ومستبدّا فيستحوذ على النّاس ويستعبدهم، قبل أن يتغلغل فيهم ويفنيهم». ثم أضافت شهرزاد بصوت قلبها: «إن مأساة النّاس أنهم أسرى الوقت، يُملي عليهم تعاليمه الفظّة ويسخّرهم للأعمال البليدة والشقاء، وهم يطأطئون له رؤوسهم بمسكنة ويندثرون. يوسف عبد الناصر، هذا الثرثار السخيف، يتصوّر أنه قادر على خداع الوقت بتلفيق الحكايات الوهمية حول هلال الأحد، ويظنّها وقائع لا يطولها الشكّ! ولكن شهرزاد كانت تعلم منذ البداية أن يوسف فضيحة الوقت. لن تستتبّ له حكاية ولن ينتظم له خيال. لا يعي أن هلال ليس مجرّد استعارة. ليس ظلاّ باهتا لنفس يوسف المريضة التي تسوّل له الخيانة دون أن يقدر على ارتكابها، لا في الواقع ولا في الخيال، لا عبر هلال ولا عبر زبيدة ولا عبر أحد. تعلم شهرزاد مسبّقا أن هلال لن يُفلح في شيء مع زبيدة، رغم ذلك فهي تودّ أن تسمع الحكاية من فم يوسف لتدعيم توقعاتها والتيقّن مما تعرف. إنها على قناعة بأن حالة العقم استشرت في الفضاء

وأصابت كل شيء، وأفسدت الوقت أكثر ما أفسدت، فانقلب الخيال إلى أغلال، وكفّ عن كونه فسحة وحريّة. دعته شهرزاد بصوت قلبها: «هيّا واصل الكلام يا يوسف عبد الناصر فإننا أعلم بما ستقول»!

دخل عباس لينام وأغلق باب حجرته ـ قال يوسف ـ في الردهة من شقة العزاب بقي هلال الأحد مع زبيدة. لم يكن هلال محبطا. كفّ عن مناوشة الفتاة. كان مبتهجا قليلا بفاكهة جسدها الغضّ الريان، وبما تذوّق من شفتيها وما لمس من نهديها البكرين، وبما علق به من شباب جسدها المصقول. كان يقول في نفسه أن زبيدة منذورة للخطيئة وأنها من سلالته. شعر بأنها قريبة منه أكثر مما لو ضاجعها وسكب ماءه في نهرها، نهر حياتها الظامئة لأمطار غزيرة خلال كل الفصول. يكفيه ما تحصّل عليه من متعة صغيرة، هي في حسبانه كبيرة ومن أفضل المتع التي صادف في حياته. أفضليتها لا تنبع فقط من مقدمات جنسية ولكن مما حفّ بها، لقد فضّلته، هو هلال الهرم في كهولته، المُقدم غدا على عيد ميلاده الستّين، فضّلته على شاب له ثلث عمره تقريبا. تركت صديقها من أجله وأعلت ميزانه على موازين غيره، وطوّعت العشرين من أجل الستّين، بمهارة الأنثى وبطيب خاطر سخيّ. ذلك هو منتهى المتعة. أعادت الاعتبار لذكورته الستينية مقابل ذكورة شابة ومندفعة، لا يقوى حيالها على شيء، لولا مبادرة زبيدة بنجدته وقلب الموازين. من أجل ماذا فعلت ذلك؟ هل من أجل شخصه، شكله، مظهره، حديثه، أسنانه، لقاطته، رجولته المهلهلة، سمعته؟ أم من أجل الكاتب الذي فيه، من أجل الأدب وصياغة الحكايات، من أجل ذاتها

المحتملة كشاعرة ستكون مصنعا مذهلا للعواطف والمتع واللقطاء المجهضين منهم والمولودين؟ لم يكن هلال يضمر الشماتة بعباس. بدا له الوضع منصفا للجميع. تنازل عباس طواعية عن صاحبته، فأمامه فرص كثيرة لتشكيل الفتيات ومعاشرة نساء متنوّعات، ومن العدل أن يترك له زبيدة ولا يكون أنانيا. ثم ماذا أخذ هو من زبيدة؟ لم يأخذ شيئا فعليا سوى القليل من عبق رائحتها، أكثر من ذلك سيقتله. لقد بانت له زبيدة كتلة عظيمة من الزبدة والدهنيات. ملعقة كبيرة منها تسبّب ضغط الدم وتعلي من منسوب الكوليستيرول لديه، بصورة كفيلة بأن تودي بما تبقى من حياته. مسح هلال شفتيه من أثر الدهنيات العالقة بهما. باليد ذاتها التي مسح بها شفتيه أمسك براحة زبيدة وقرّبها من فمه ولثمها امتنانا. قالت له زبيدة:

هل لك عادة تقبيل الأيدي؟

أقبّل كل ما يستحق التقبيل.

تقبيل الأيدي، في ظنّي، لا يخلو من الذلّ والمسكنة...

وهل تتصوّرين أن الإنسان بإمكانه أن لا يكون ذليلا؟

بطبيعة الحال... إذا كان ذليلا فهو ليس بإنسان.

ـ لو عكست لأصبت. هو إنسان لأنه ذليل. كلّ ما يحيط به يهدّده بالذلّ... هذا الجسد، أقصد جسد الإنسان، أقرب شيء للإنسان، الجسد يذلُّ صاحبه في عافيته وفي مرضه، على حدّ سواء.

ـ يمكن ذلك في المرض أما في العافية فكيف يكون ذلك؟

ـ العافية أخطر من المرض لأنها تختزن ذلاً أكبر بما تنشره في الوعي من إحساس الاعتداد والغرور وهو إحساس سرعان ما يتبخّر فيشعر المرء بذلّ مضاعف. الأفضل أن يكون الواحد عليلا ذليلا عوض أن يكون عرضة لخداع العافية وسرعة زوالها...

ـ هذا غير معقول أبدا!

ـ لا يحقّ لك أنت أن تتحدّثي عن المعقول وغير المعقول...

ـ لماذا؟

ـ ألست تحاولين الشعر؟

ـ نعم، وما الرابط بين الأمرين؟

ـ الشعر لا تخدعه الصحّة ولا تمكر به الحياة. الشاعر هو العليل الذليل دوما...

ـ هذه تعريفات أخرى للشعر! لم يكفنا ما تلقيناه طيلة هذه السهرة! أخذا بخاطرك سأحتفظ بهذا التعريف الشاذ للشعر... لكن قبل ذلك قل لي: هل كان صاحبك يوسف عبد النّاصر، زوج شهرزاد، هذا الذي يقصّ قصّتك وأن تقصّ قصّته، هل كان عليلا لأنه شاعر؟

ـ للأسف! إنه عليل ولكن ليس شاعرا، وذلك من أسقط أنواع الاعتلال، إنه اعتلال مجاني كلّه عذاب وفقدان أمل. اعتلال الشعراء كمال وجودهم، واعتلال يوسف إصابة شاملة في وجوده...

ـ وكيف عرفت ذلك؟

ـ لا يستحق الأمر نباهة كبيرة. إنه ابن دلندة ولم يتربّ في كنف أبيه.

تربّى في المدرسة الكبيرة لمحو الأميّة، التي محت أشياء أساسية وهي تظنّ أن قصدها محو الأميّة فحسب... أمثال يوسف ينتسبون إلى نبي أميّ فالأميّة أصل من أصولهم. حين بدأ نظام بورقيبة محو الأمية في هذه البلاد تداخلت الحروف والمعاني مع غبار الطباشير. صار يوسف وأشباهه غبارا تذروه الرياح!

ـ لا أفهم! كنت تقول أنك مع موت الآباء ولقد اغتبطت في بداية السهرة عندما أعلمك عباس بموت أبيه المباغت...

ـ دائما أنا مع الموت لأنني مع الحياة...أنا مع موت الآباء بعد ختان أطفالهم لا قبل الختان... هل فهمت؟

ـ لكن ماذا لو مات والد يوسف بعد ختانه، هل تعتقد أن ابنه سيصير عليلا وشاعرا؟

ـ لا أدرى بالضبط! لكنّني أرجّح أن يوسف وقتها سيختن ويعيش حياة فظّة، ويصير إنسانا غليظا قاسيا محروما من نعمة الرهافة والمرض، أي إنسان لا رجاء منه..!

ـ أنت تخرج من نفق مظلم إلى نفق أشدّ ظلاما!

ـ تلك مشيئة الله! لكن على الآباء، في كل الأحوال، أن يقوموا بختان أطفالهم الذكور قبل أن يموتوا... ـ قال هلال ذلك في ما يشبه الهذيان

ـ قلت بمشيئة الله؟! يشاع أنك ملحد، هل أنت مؤمن؟

ـ ومن أنا لأؤمن أو لألحد؟ ثم بماذا سأؤمن وبماذا سألحد؟

ـ بالله!

ـ وهل ثمّة من يلحد بالله؟ إذا كنت تعرفين أحدا دلّيني عليه... مادام الله موجودا في الكلام فكيف السبيل إلى إنكاره أو جحوده والإلحاد به؟ أنا لم أسمع بملحد استطاع أن يمحو الله أو يطرده من الكلام... إذا فعل أحدهم هذا المستحيل فهو جدير بأن يكون ملحدا عتيدا. أما نفي الله أو إثباته فذلك كلّه وجهان لعملة واحدة، عملة الإيمان، رصيدا كانت أم دَيْناً..!

ـ والله في الواقع؟

ـ لا يوجد الواقع، يوجد الكلام فقط. الواقع هو الكلام. حين يتغيّر الكلام في لغة ما يتغيّر الواقع بالضرورة. المشكلة أن الله في الكلام معلن ومتخف، لذلك لا أحد يقدر عليه. فالكلام هو مملكة الله اللامتناهية يتنزّه فيها من لسان إلى لسان دون أمل الظفر به...

ـ وما هو دور الشعر حينئذ؟

ـ مناشدة الله والتضرّع إليه ليحلّ ضيفا على كلام الشاعر.

ـ تقصد شكلا من أشكال المدائح والأذكار؟

ـ إطلاقا يا صغيرتي! بل هي محاولة يائسة، تنتصر على يأسها، لتشهد حركة الله في الأشياء والكون. الحركة العنيفة الفظّة والحركة الليّنة العذبة. عندما نشهد ذلك تحاول أن تخبر به الآخرين... الشعر مواعيد الله يضربها في ساحة اللغة. أما المدائح والأذكار فهي بضاعة الغيبوبة ولا علاقة لها بالغيب يحترفها المتزلفون والمتلفزون...

ـ ما هذا الدرس الذي تلقيه على مسمعي؟ من السكر إلى الخيانة إلى الاعتلال إلى شهادة حركة الكون، تلك مواصفات تصلح لعاهرة من

فصيلة امرأة ليلة القطط التي صادفها صاحبك يوسف...

ـ ربّما! لم لا؟! ربّما كانت تلك تسمّينها عاهرة هي شاعرة بطريقتها، ومكلفة غيبيا وشهوديا بمهمة التقاط يوسف من الرصيف، وكشف عورته المختومة، وامتناعها عنه وطرده وتأزيمه... قد يكون كل ذلك من أجل تحقيق حكاية بعيدة الغور قصيّة المرامي... من أدرانا؟

ـ هل ختن صاحبك في الأخير، لتنتهي هذه الحكاية المشؤومة؟

ـ للختان مواقيت معلومة في الطفولة إن أُهملت يظلّ المرء مختوما العمر كلّه. لا بد أن نجرح جسد الإنسان المسلم في أكثر مواطنه حساسية حال وجوده بين الناس، لنزع لثامه، حتى يقدر على الإفصاح عن نفسه. هكذا تتم الأمور عندنا، ولا أرى أنها ستتغيّر...

ـ اليهود يختنون أيضا!

ـ هم أوّل من ختن من أصحاب الديانات السماوية وهم أوّل من أقام عهدا مع الله لفريضة الختان...

وتلا هلال، من ذاكرته، نصّ عهد اليهود مع الله بخصوص الختان:» وقال الله لإبراهيم وأمّا أنت فتحفظ عهدي، أنت ونسلك من بعدك في أجيالهم. هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك. يختن منكم كل ذكر. فتختنون في لحم غرلتكم، فيكون علامة عهد بيني وبينكم. ابن ثمانية أيام يختن منكم كل ذكر في أجيالكم. وليد البيت والمبتاع بفضّة من كل ابن غريب ليس من نسلك. يُختن ختانا وليد بيتك والمبتاع بفضّتك. فيكون عهدي في لحمكم عهدا أبديا. وأمّا الذّكر الأغلف الذي لا يختن في لحم غرلته فتقطع تلك النفس من شعبه.

إنه قد نكث عهدي».

وروى هلال لزبيدة كيف أن إبراهيم خُتن وهو ابن تسع وتسعين سنة، وكان ابنه إسماعيل ابن ثلاثة عشرة سنة حين ختن في لحم غرلته.

وأضاف أن أوّل مرّة يجرّب فيها أبناء إسرائيل الخديعة كانت عن طريق الختان، وذلك حين زنا شكيم ابن حمور الحوّيّ رئيس أرض كنعان بأختهم دينة، ثم رغب في إصلاح ما أفسده، فخطب دينة التي صار يحبّها من أبيها يعقوب ليتزوّجها، فما كان من ابني يعقوب، شمعون ولاوي أخوي دينة إلاّ أن اشترطا، مناورة منهما، ختان ابن رئيس أرض كنعان وكل ذكورها، وبعد ثلاثة أيام من عملية الختان الجماعية اجتاح أبناء يعقوب مضارب القبيلة المصاهرة لهم، وكان كل ذكورها متوجّعين وعاجزين عن الحركة السليمة فضلا عن المقاومة بفعل حدّة الختان وأعراضه، فأعمل ابنا يعقوب السيف وأبادوا كل الرجال ونهبوا المواشي والحلي واستعادوا أختهم معهم، فعلوا ذلك مكرا وغدرا انتقاما لشرف أختهم الذي نُجِّس.

ثم قال هلال لزبيدة أن المسلمين واليهود هم من سلالة إبراهيم. المسلمون ينتسبون لإسماعيل واليهود لإسرائيل. وإسماعيل ختن قبل إسرائيل، ورغم ذلك فاليهود والمسلمون أبناء عمومة، مع أن اليهود يتنكّرون لذلك ويعملون على الاستئثار بالسّامية التي هي لهم ولنا. أما المسيحيون فهم لا يختنون، ذلك لأن السيد المسيح كان بلا أب بشري على وجه الأرض يختنه، وقد يكون أهله اليهود قد ختنوه، لقد كان يهوديا قبل النبوّة. بسبب فقدانه لأب أرضي ظلّ أتباعه يعانون

مشكلة أبوّة مزمنة... إن حكاية مريم البتول عليها السلام مربكة جدّا ومحيّرة، تشبه في بعض وجهها حكاية يوسف عبد النّاصر. كانت مريم عليها السلام مختومة، هي الأخرى، ورغم ذلك فقد أنجبت. أنجبت أتفهمين؟ بدون رجل وبدون مضاجعة، أتفهمين؟!

ـ وصاحبك المختوم لم ينجب طفلا واحدا فحسب لقد أنجب ثلاثة ذكور..!

وما فائدة إنجابه؟ لقد ماتوا ثلاثتهم وهم في ريعان الصبا.

وهل حزن المختوم لذلك؟

تيقّظت شهرزاد. تحوّل جسدها جميعه إلى سمع لالتقاط كلمات يوسف عبد الناصر بجزئياتها. هنا يصل في حكاية صاحبه هلال مع الفتاة زبيدة إلى منطقة حسّاسة ظلّت غامضة، نوعا ما، لديها. وصل يوسف إلى لبّ الموضوع. فكيف، يا ترى، استقبل حادث السيارة؟ وكيف استقبل موت الأطفال الثلاثة؟ وهل حقّا ماتوا وانقضى أمرهم؟ وهل يمكن أن يموتوا؟ هم الذين منحوا لوجودها معنى وقيمة وغاية؟ ومن أجلهم احتملت هذا المسخ، هذا الشخص الشيطاني، صاحب الحكايات المفككة الهزيلة، التي أنتجت في المداجن الاصطناعية لا في رحم خيال ملحمي فسيح. يوسف ابن أمّه دلندة! دلندة صاحبة الاسم الروماني المشؤوم، اسم الحروب والتخريب والدمار ورشّ الملح على أراضي الجيران حتّى لا تعود صالحة للحرث والزرع. تنبّهت شهرزاد ليوسف عبد الناصر وهو يواصل قصّ حكاية هلال مع زبيدة. هلال الذي كان يقصّ حكاية يوسف مع شهرزاد على مسامع زبيدة. قال

هلال:

سُعد يوسف لأنه لم يكن في السيارة زمن وقوع الحادث القاتل، وإلاّ لكان من الهالكين. لم يشعر بحزن إنساني. ألمّ به يوم الدفن حزن فنيّ. حزن إنسان يتفرّج على مسرحية أو يقرأ رواية تحصل فيها أحزان وكوارث. كان حزنه حزنا مؤقتا، عابرا، لا يلبث أن يزول في برهة من الزمن، يخلّف في نفس صاحبه تطهّرا وأسى شفيفا ومتعة جمالية. كان يوسف يشعر في سريرة نفسه أن أولئك الأطفال الثلاثة أنجبهم خلال أدوار مسرحية. كانت شهرزاد توكل له الأدوار فيؤديها. تعلّم كيف يَرضى بالأدوار المسرحية ويقْنَعُ، فينفّذها بتفان وإخلاص ويتماهى كليّا معها، وحين يكون خارج الدّور يشمله يقين أنه خصيّ وعقيم لا يصلح للمضاجعة فما بالك بالإنجاب. قامت علاقته بالأطفال على أساس أنهم تحف، مخلوقات فنية خيالية، شيء للفرجة والتسلية والتأمّل. كائنات ذكورية ثلاثة هم من الرهافة والهشاشة والزوال بحيث تبدو كينونتهم ضربا من ضروب الوهم والإيهام. كان يوسف يعجب من شهرزاد وكيف أخذت الأمور بجدّية وصدّقت كذبها. غدت تفيض أمومة وحنانا وعذوبة مع كل مولود تنجبه. كانت تغار على أبنائها وتتعصّب لهم وترعاهم أكثر من رعايتها لنفسها، وتتصرّف معهم مثل أغلب الأمهات في الدنيا مع أطفالهن. كان يوسف يرى في ذلك نوعا من الخبل والجنون. شخص يصدّق أحلامه وكوابيسه ويتصرّف مع بنات أفكاره تصرّفه مع آدميين. يُلقم بنات أفكاره الثدي ويطعمهن ويغيّر ملابسهن الملوّثة ويعلّمهن التربية وحسن السلوك واللياقة في التعامل مع النّاس. أشياء من هذا القبيل كانت تضعضعه، فلا يعود يميّز بين اليقظة والمنام، وبين بنات الأفكار وأولاد الحياة... لم يكن

ذلك يشقيه فحسب، بل يتحدّاه كمثقف وكألسني أكاديمي، يبحث الظواهر اللغوية في ماديتها... كيف تتولّد الدلالة من غير دال، وكيف تتوالد الأشياء بلا مولّد؟ وكيف يمتزج الشيء بالشيء؟ وكيف يكون إخراج الميّت من الحيّ وإخراج الحيّ من الميّت؟ وكيف ينوب اللسان عن القضيب؟ وينوب الكلام عن الوجود؟ شعر يوسف، حين موت الأطفال الثلاثة، أن الأمور استقامت عنده بعض استقامة، وسعت الأشياء عائدة إلى نصابها. اختفى أبناء الوهم والأدوار المسرحية، وخلّفوا وراءهم أمّهم حطاما كما تمنّاها يوسف، تقريبا، ليلة شاهدها في حفلة فيلم الحركة الوطنية، عندما تملّكتها نوبة صرع...

وكيف كان حادث السيّارة؟ ـ تساءلت زبيدة في شوق ـ

ـ وهل هذا شيء مهم؟ كان مثل جميع حوادث السيارات... كنت أتوقع أن تسأليني عن حال شهرزاد.

ـ ذلك ما قصدت إليه.

ـ تعلّمي أن تحددي قصدك بدقّة، حتّى لا تتعرّضي لحوادث السير والطرقات، فيحصل لك ما حصل لشهرزاد.

ـ وهل قَصْدُ شهرزاد لم يكن مُحَدّدا؟

ـ لا! مع شهرزاد المسألة معكوسة. لقد حدّدت أمورها بدقّة مفرطة في التناهي، والإفراط في التناهي يسبب الانفراط...

ـ ماذا حصل لها؟ باختصار أرجوك، سيطلع النّهار وأنت لم تنه الحكاية! هيّا سيطلع النّهار... قل ما حدث دون تنظير...

ـ لن يطلع النهار إلاّ حين نسمع صياح الديكة ترتفع من بين

صفحات الكتب، لأنه لم تعد هناك ديكة تصيح في الواقع... أو حين نسمع صوت المؤذن يعلو لآذان صلاة الفجر. أمازال صوت المؤذن يعلو؟ هل مازال هناك فجر؟ إفهَميني يا زبيدة: ما أقوله ليس تنظيرا ولكنه من صلب الحكاية، وسترين كيف أنه بدون ذلك لا مجال لإقامة الحكاية.

في يوم الحادث صباحا أفاقت شهرزاد واجفة القلب. كانت تتقلّب هنا وهناك ولا تعرف ماذا تفعل تحديدا. لها في الأفق دور سينمائي جديد لا تعرف هل ستفوز به أم سيوكل لغيرها. رشحها المخرج للدور وكانت في انتظار مصادقة المنتج على الأسماء المشاركة. تلقت وعدا بإبلاغها نتيجة المصادقة صباح ذلك اليوم. مرّت عليها مواسم وسنوات لم تلعب دورا سينمائيا، عدا بعض المشاركات العابرة في مسلسلات تلفزية، كانت تتحرّك في بيتها في ذلك الصباح وعيناها على الهاتف ووجيب قلبها يرنّ. مصيرها معلّق برنين الهاتف الذي سيحمل لها إجابة المنتج. أعجبها الدور المعروض عليها واشتاقت بكل وجودها لتجسيده، وإذا حرمت منه فستعتبر نفسها في عداد الأموات... هل تعلمين يا زبيدة، يا صغيرتي، ماذا كان الدور المعروض على شهرزاد؟

ـ كفّ عن مناداتي «صغيرتي»... هذا لا يليق! أنت تعرف أنه لا علم لي، فلا تعد وتسألني مرّة أخرى...

ـ من سخرية الأقدار أو من جدّيتها، لا أدري يا زبيدة، يا صغيرتي! أن شهرزاد كانت مدعوّة لتنفيذ دور شهرزاد في فيلم «أطفال بورقيبة»، وهو دور امرأة تفقد أطفالها الذكور الثلاثة في حادثة سيارة. على إثر ذلك الحادث تصاب في نطقها وبصرها وشمّها ورجليها. تغدو طريحة

الفراش، طوع زوج يواسيها بالحكايات عن وجوده الملتبس في الدنيا، وعن لثامه، وعن خيانته لأصله وفصله، ويقصّ عليها تفاصيل قرينه المسمّى هلال الأحد وسعيه للإيقاع بفتاة تصغره بثلاثين سنة تُسمّى زبيدة...

فتنت شهرزاد بأحداث السيناريو وتمنّت حيازته وتمثيله أمام جميع خلق الله. رأت أنه يتوافق مع قدراتها ومواهبها. إنّه دور عمرها. رنّ الهاتف. أعلمها المخرج بموافقة المنتج على اختيارها رسميا للدور، وأنه في انتظارها لتوقيع العقد. لم تسعها الدنيا فرحا. جاشت نفسها واهتاجت مشاعرها بتلك البُشرى العظيمة التي تلقتها كهدية سماوية. قامت من فورها وجمّعت أطفالها الثلاثة في السيارة. هذا النهار ليس نهارا تقبع فيه في البيت وتأكل من طبخ يديها. شاءت أن تحتفي بدورها القادم بصحبة أطفالها الثلاثة باستضافتهم في مطعم بضاحية المرسى، لتمضي معهم وقتا شيّقا بمناسبة هذا الحدث السعيد، الذي يستحق هذا وأكثر. قرّرت أن تبقى مع أطفالها حتى قبيل الخامسة بعد الظهر موعد مقابلتها المنتج وإمضاء العقد. كانت منشرحة جدّا والحبور يطوّح بها في آفاق لا تخطر على بال، وكان انفعالها يشتدّ كلّما تخيّلت نفسها تلعب الدور وتتألق فيه وتدير رؤوس المتفرجين بحضورها الجميل الفاتن.

سلكت طريق المرسى السريعة، وهي عائدة من مأدبة الغداء مع أبنائها بعد أن أمضت العقد. أوصلتها الطريق السريعة إلى الفراش، لتجد نفسها تعمَهُ في الظلام، لا تقدر على الحركة ولا على الكلام ولا على الشمّ، ويوسف عبد الناصر جاث على ركبتيه حذو السرير يقصّ عليها الحكايات. كان يوسف يعلم أنها من شدّة الانفعال، بعد إمضائها

العقد، تعرّضت إلى نوبة صرع وهي وراء المقود. كانت صيحة عظيمة قتل فيها الأطفال الثلاثة وسبعة رجال آخرين وتهشّمت فيها عشر سيارات. أنقذت شهرزاد بأعجوبة. بالمقابل كانت شهرزاد تعلم علم اليقين أنها، وهي في فراشها على تلك الحالة، بصدد القيام بدورها الرائع في الفيلم السينمائي الكبير الذي ينتظره المشاهدون والنقاد بفارغ الصبر. كانت شهرزاد تعلم أنه دور متشعّب، طويل وشاق، تختلط فيه الأوهام بالحقائق، وتمّحي فيه الحدود بين الخيالي والواقعي. دور لا يقدر على الاضطلاع به سوى الصفوة من الممثلين، وذلك لأنه دور بطولي لا يليق بغير الكواكب الحيّة، شديدة التوهّج والسطوع.

في هذه اللحظة، في هذا الطور الأخير من الحكاية التي يقصّها هلال على زبيدة اختلط عند شهرزاد الممثلان يوسف وهلال. تساءلت لأوّل مرّة: من هو يوسف ومن هو هلال؟ ارتاعت حقّا حين عادت تتبّع خيوط الحكاية من منشئها. إنهما الاثنان ابنا دلندة! فهل يعلمان هما بذلك؟ وهل يكونان فعلا أخوين غير شقيقين؟! أم هما شخص واحد يتناوب بين التخفّي والتجلّي على دورين وحكايتين مختلفتين في حكاية واحدة؟ ألم يتعرّف هلال على يوسف ويوسف على هلال في السيناريو المدوّن؟ وكيف تحرّكا باتجاهها من أفقين متباعدين ليصلا إليها ويلتقيا في سمعها دون أن يعلما؟ هل هما لا يعلمان؟ وإذا كانا لا يعلمان فلماذا لا يفصحان؟ وكيف ستتصرّف معهما في الفيلم؟ كيف ستميّز بينهما؟ وهل من الضرورة أن يشتركا معها في الفيلم؟ وهل هما من العناصر الأساسية في دورها في الفيلم؟ بل هل ثمّة فيلم أصلا؟ هل ثمّة شيء؟!

مازالت شهرزاد في حيرة الأسئلة وتفرّعاتها التي لا تنتهي حين تخيّل يوسف عبد الناصر أنه بلغ الستين من العمر.

كان في الليلة التي سبقت عيد ميلاده الستين برفقة فتاة أعجبته للغاية. رأى أنها تفيض حلاوة وجمالا. أمضى معها وقتا ساحرا، تصرّف أثناءه كمراهق ولم يعبأ بفارق السنّ.

مع الفجر قبّل جبهة الفتاة الناصعة النديّة وهما واقفان، ثم استدار فوجد برنسا مغربيا على شمّاعة فألبسها إياه. على تلك الحالة ترك فتاة العشرين لصديقه الشاب. غادر شقة العزّاب قبل طلوع النهار، عائدا إلى بيته حيث تقيم زوجته. لم يكن يشعر بالندم. لم تعد الخيانة الزوجية تثير فيه أدنى مشاعر الإثم. غدا متعوّدا على الخطيئة. آمحت عنده الحدود بين الحلال والحرام. كل أنواع الجنس النسائي طيّبة ومستساغة، وهي تصلح لتقوية العزيمة الفردية. عدا نكاح المحارم فهو يقع خارج تفكيره، وتعزله عنه بحار من دماء القرابة. تلك الدماء التي تنبع من أرحام دامية ولا تصلح إلاّ لإثارة عواطف الشفقة والحزن.

في الطريق إلى بيته كان يفكّر في حكاية مثيرة يرويها لزوجته. تخيّل أنها بانتظاره في غرفتها المظلمة العابقة بالأنفاس وبرائحة اللحم البشري مشلولة الحركة. مكوّمة على السرير تسندها الوسائد، امرأة لا ترى ولا تتكلم ولا تشم، تنتظر عودته ليلقى على مسامعها حكاية جديدة تقتات منها كوجبة ليلية ضرورية. منذ أن صارت هامدة كسيحة بكماء، مقيمة في سريرها لا تبرحه، باتت تتغذى وجوديا بالسماع. ذلك كل ما بقي لها بعد حادث سيارتها الفظيع الذي أودى بحياة أطفالها الثلاثة وألحق بها دمارا جسديا كاملا.

الفهرس

ليلة الفتى و الفتاة..... ٥
ليلة هلال الأحد..... ١٥
ليلة مقتل عزوز عبد الناصر ٢١
ليلة طلوع الجان..... ٣٥
ليلة البذاءة..... ٤٩
ليلة اللّقيط والنّذل..... ٦٣
ليلة الأحد والجمعة ٧٥
ليلة الفداء ٨٩
ليلة علقمة..... ١٠٩
ليلة الأسماء..... ١٢١
ليلة الجنون والفناء..... ١٣٣
ليلة فيلم الحركة الوطنيّة..... ١٤١

ليلة امرأة القطط..... ١٥٣
ليلة نوبة الصرع الثالثة..... ١٧٩
ليلة المديح الثاني للخيانة..... ١٨٩
ليلة سبر الآراء..... ١٩٧
ليلة الأسنان الاصطناعية وتعلّم التقبيل..... ٢٠٩
ليلة توزيع الأدوار..... ٢٢١
ليلة الوقت الفنّي..... ٢٣١

أطفال بورقيبة

حسن بن عثمان إعلامي وروائي تونسي حوكم سنة 1986 على مجموعته القصصية "عبّاس يفقد الصواب" في أول محاكمة قضائية من نوعها في تاريخ تونس... كتب الروائي المصري جمال الغيطاني ذات افتتاحية لجريدة أخبار الأدب: "...*رواية حسن بن عثمان اعتبرها علامة هامة في تطور الرواية التونسية خاصة، ونموذجا فنيا فريدا في الرواية العربية (...) بالنسبة لي تركت عندي هذه الرواية حزنا شفيفا ومتعة في الوقت نفسه تحققها كل كتابة جميلة*".

تبادر دار التنوير بنشر هذه الرواية التونسية الرائعة التي تأخذ بشغاف القلب خلال تغلغلها في العمق الاجتماعي والروحي والنفسي للمجتمع التونسي، وكذلك من أجل إعادة الاعتبار لأدب بلاد أبي القاسم الشابي في بعده الروائي السردي، وخصوصا من أجل تحية ثورة تونس غير المسبوقة في تجارب بلدان الدنيا.

التنوير
للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت ـ هاتف: ٠٠٩٦١١٤٧١٣٥٧ تلفاكس: ٠٠٩٦١١٤٧٥٩٠٥
www.dar-altanweer.com
info@dar-altanweer.com

توزيع دار الفارابي

75128
BD 3-400

ISBN 978-6589-09-881-6
9 786589 098812